نبذة ملخصة من

مجالس الحداد

الإمام السيد عبد الله بن علوي الحداد الحضرمي

مع ما ذيل به عليها الشيخ أحمد بن عبد الكريم الشجار

تلخيص العلامة الشيخ

أبي بكر بن الشيخ محمد بن عمر الملا الحنفي الأحسائي

المتوفى سنة ١٢٧٠ هـ

تحقيق

يحيى بن الشيخ محمد بن أبي بكر الملا

الطبعة الثانية

دار الفتح
للدراسات والنشر

نُبْذَةٌ مُلَخَّصَةٌ مِنْ

مَجَالِسِ الحَدَّادِ

الإمامِ السَّيِّدِ عبدِ اللهِ بنِ علويٍّ الحدَّادِ الحضرميِّ

نبذة ملخصة من مجالس الإمام عبد الله بن علوي الحداد

تلخيص : العلامة الشيخ أبي بكر بن محمد بن عمر الملا الحنفي الأحسائي
تحقيق : يحيى بن الشيخ محمد بن أبي بكر الملا
الطبعة الثانية : 1437هـ - 2016م
جميع الحقوق محفوظة باتفاق وعقد©
قياس القطع : 17 × 24
الرقم المعياري الدولي : ISBN : 978-9957-23-153-8
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية : (2009/10/4400)

دار الفتح للدراسات والنشر

هاتف : 4646199 6 (00962)
فاكس : 4646188 6 (00962)
جوال : 799038058 (00962)
ص.ب : 183479 عمّان 11118 الأردن
البريد الإلكتروني: info@daralfath.com
الموقع على الشبكة الإلكترونية: www.daralfath.com

الدراسات المنشورة لا تعبّر بالضرورة عن وجهة نظر الناشر

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال دون إذن خطي سابق من الناشر.

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing from the publisher.

نُبْذَةٌ مُلَخَّصَةٌ مِنْ

مَجَالِسِ الحَدَّادِ

الإِمَامِ السَّيِّدِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَلَوِيٍّ الحَدَّادِ الحَضْرَمِيِّ

مَعَ مَا ذَيَّلَ بِهِ عَلَيْهَا الشَّيْخُ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الكَرِيمِ الشَّجَّارِ

تَلْخِيصُ العَلَّامَةِ الشَّيْخِ

أَبِي بَكْرِ بْنِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ عُمَرَ المُلَّا الحَنَفِيِّ الأَحْسَائِيِّ

المُتَوَفَّى سَنَةَ ١٢٧٠ هـ

تَحْقِيقُ

يَحْيَى بْنُ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ المُلَّا

دار الفتح
للدراسات والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله بحقائق حمده، والشكر له على كريم جوده وفضله، والصلاة والسلام على إمام أهل الحق سيد الأنبياء والمرسلين، وقدوة الهداة المصلحين، صلاةً وسلاماً دائمَيْن متلازمَيْن إلى يوم الدين وعلى آله الميامين، وأصحابه مصابيح الدجى، ونجوم الاهتداء، ومن سار تحت لوائه من الهداة المصلحين.

وبعد،

فإن الله سبحانه وتعالى هيَّأ لهذه الأمة في كل زمان رجالاً مصلحين، ودعاةً إلى الحق واليقين، يرشدونهم ويدُلونهم على الله، ويوضحون لهم السبيل، لتزكية أرواحهم، وتوثيق صلتهم بالله تعالى، ويحثونهم على استنهاض الهمة في مدافعة الشهوات الحاجبة عن رؤية الحقائق، ويضعون لهم الأدوية المناسبة لعلاج تلك الأمراض القلبية التي يعانون منها، ولعل تلك الأمراض كثرت في هذا العصر، وبرزت تلك العلل، وتلاطمت أمواج الفتن من كل جانب، ولعل ذلك لقلة الأطباء الذين يدلون الخلق، ويأخذون بأيديهم، ويصِفون لهم الأدوية المناسبة لكل علة، ومن تلك الأمراض المنتشرة: الحسَد، والكِبْر، والرّياء، والسّمعة، والشّح، والأنانية... إلخ.

ولا علاج لهذه الأمراض إلا بالعودة إلى ما كان عليه سلف هذه الأمة من التمسك بالكتاب والسنة، فلن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، ولذا قال الإمام الجنيد: «الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول ﷺ». وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي: «من دعا إلى الله بغير ما دعا به رسول الله ﷺ فهو مُدّعٍ».

وهكذا كان للعلماء الأعلام والدعاة المصلحين في كل زمان دور بارز في إرشاد الناس وردهم إلى ما كان عليه سلف الأمة من التمسك بالكتاب والسنة، وكان لسيرتهم وحياتهم النزيهة وزهدهم في حطام الدنيا تأثيرٌ كبيرٌ في نفوس الناس، حتى يبقى الخير في هذه الأمة إلى ما شاء الله أن يبقى. وكان من بين أولئك الدعاة المصلحين **السيد عبد الله بن علوي الحداد**، المتوفى سنة (١١٣٢هـ).

وهذا الكتاب الذي بين أيدينا يشتمل على نبذة يسيرة من **كلامه** الذي كان يتكلم به في مجالسه العامة والخاصة، وما شرحه وفَصَّله في بيان مسألة أو حديث، على حسب ما يجريه الله تعالى على قلبه، وينطق به لسانه، لا على حسب مادة يسهب فيها الكلام ويطول، ويرتبط بعضه ببعض كما هو في أبواب العلوم المعروفة، كالفقه وغيره، ولهذا يكون كل كلامه على حدة، لا تعلق له بما قبله ولا بما بعده غالباً، من غير أن يُعمل فيه قلمَ التعديل الذي يقتضيه كل عمل شفوي تسجله الأقلام. وقد جمعه ودوّنه مع تعليقٍ وزيادةِ توضيحٍ تلميـذه الأجل **الشيخ شهاب الدين أحمد بن عبد الكريم الشجار الأحسائي**.

وقد حوى علماً غزيراً، وإشراقاً ونوراً يستضيء به السائر، ويهتدي به الحائر، في بيان سلسٍ وواضح.

وقد لخص نبذة في ذلك كله ورتبه: خاتمة المتأخرين المربي الكامل **الشيخ أبو بكر ابن الشيخ محمد الـملّا الحنفي الأحسائي**، المتوفى سنة (١٢٧٠هـ)، الذي قضى حياته في التعلم والتعليم، والتصنيف والتلخيص، والوعظ والتذكير، وجمع القلوب على حب الله وحب رسوله ﷺ.

فإليك يا أخي هذه النبذة اليسيرة، تَمَعَّنْها لتعلم أن الحاجة إلى مثل هذه الكتب في هذه الأزمنة ماسّة، ولعل الله ينفعُك وينفع بك، فالفائدة بهذا الكتاب مؤكدة، والهداية إلى طريقه معبَّدة، لما اشتمل عليه من عبارات رائعة ورقائق صادقة، تُروِّضُ العَصِيَّ الجامح،

وتدنيه من مَهْيَع السلف الصالح، رفيقًا للذين سبقت لهم من ربهم الحسنى، فكانوا بالله عن الخلق أغنياء، وبإخلاص العمل لله أصفياء، فلا شك أن الاطلاع على كلام الصالحين، الذين لهم قدمٌ راسخةٌ في المتابعة لسيد المرسلين، والصحابة المتقين، والهداة المهتدين، هو البديلُ لما يرد من انحرافات وتجاوزات وقع فيها بعض المُدّعين، وخالفوا بها المنهج القويم الذي سار على نهجه العلماء العاملون.

وقد حملني إعجابي بهذا الكتاب على أن قمت بخدمته وضبط ألفاظه وإخراجه، ووضع عناوينَ لبعض الموضوعات، رجاءَ أن أكون ممن شارك مع أولئك المصلحين، ودعوةٍ صالحة تلحقني يوم الدين، يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون.

جعل الله أعمالنا خالصةً لوجهه الكريم، نافعةً لمن حاد عن الطريق القويم، فالفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

* * *

ـ عملُنا في الكتاب، ووصف النسخ المعتمدة:

١ ـ اعتمدت على نسختين خطيتين.

الأولى: بخط المؤلف رحمه الله، وقد فرغ من تسويدها في اليوم الرابع من جمادى الثانية عام ١٢٦٦هـ، وعدد صفحاتها (٧١) صفحة، في كل صفحة (٢٩) سطراً، في كل سطر (١٤) كلمة تقريباً.

والثانية: بخط تلميـذه الشيخ أحمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحمن بن محمد بن عرفج، وقد فرغ من نسخها في اليوم التاسعَ عشَرَ من شهر شوال سنة ١٢٦٩هـ، وعدد صفحاتها (٨٣) صفحة، في كل صفحة (٢٥) سطراً، في كل سطر (١٣) كلمة تقريباً.

وخطُّ المخطوطتين واضحٌ وليس فيهما سقط ولا خروم، فالسقط الذي في الأصل مثبت بهامش المخطوط ويرمز له بعد إثباته برمز التصحيح (صح).

٢ ـ راعيت في كتابته القواعد الإملائية المتعارفَ عليها في الوقت الحاضر.

٣ ـ عزوت الآيات القرآنية إلى أماكنها.

٤ ـ خرَّجت الأحاديث النبوية وعزوتها إلى مصادرها الأصلية.

٥ ـ وضعت ترجمةً موجزةً لكلٍّ من: السيد عبد الله الحداد، والشيخ أحمد الشجار، والشيخ أبي بكر الملا.

وأخيراً، أرجو من الله العلي القدير أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم، وأن يوفقنا لخدمة ديننا وأمتنا، إنه ولي ذلك والقادرُ عليه، وأن يسلك بنا مسالك أهل السعادة، لنحوز في الآخرة الحسنى وزيادة.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الأحساء في
٥/ ٧/ ١٤١٩هـ

وكتبه
يحيى ابن الشيخ محمد ابن الشيخ أبي بكر الملا
عفا الله عنه

ترجمة السيد عبد الله الحداد

هو شيخ الإسلام، وقدوة الأنام، قطب الدعوة والإرشاد، السيد الشريف (عبد الله ابن علوي بن محمد الحداد) العلوي الحسيني الحضرمي الشافعي. (إمام أهل زمانه، الداعي إلى الله تعالى في سره وإعلانه، المناضل عن الحنيفية بقلمه ولسانه، والمشار إليه بالبنان، في العلوم والعرفان).

ولد بإحدى ضواحي مدينة (تريم) من مدن حضرموت ليلة الخامس من شهر صفر سنة (١٠٤٤هـ)، ونشأ بـ(تريم) وحفظ بها القرآن الكريم، وكُفّ بصره وهو صغير بسبب إصابته بالجدري؛ فعوضه الله بنور البصيرة. ثم اشتغل بتحصيل العلوم حتى برع ونبغ، وصحب أكابر علماء عصره. ومنحه الله حفظاً يسحر الألباب، وفهماً يأتي بالعجب العجاب، ولازم الجِدَّ في العبادة، وأضاف إلى العلم العمل، وشبَّ على ذلك (وشاب)؛ حتى بلغ المدى. وانتصب لتربية المريدين، وإرشاد السالكين؛ فقصده الناس من أكثر الأمصار، ونفع الله به في غالب الأقطار، وارتحل وتنقل في البلاد للدعوة والإرشاد، ونشر العلم بين العباد.

وكان إلى ذلك شاعراً موهوباً؛ إذا نظم بهر، وناثراً بليغاً؛ إذا قال سحر، وإذا وعظ أسر، وإذا حاجَّ قهر.

وكان مؤلفاً واضحاً في عبارته، قويّاً في أسلوبه، محققاً في بحثه، مدققاً في نقله، واضح الحجة، باهر المحجة، فياضاً في البيان، يدعم بحثه بآيات من القرآن، وبالأحاديث النبوية،

والأقوال المأثورة عن الأئمة، وينتزع من دخائل النفوس ووساوس الصدور كل شبهة، ويعالج كل نزعة؛ حتى لا يُبْقِي مقالاً لقائل، ولا جواباً لسائل، كما يظهر ذلك من مطالعة مؤلفاته كـ(النصائح الدينية)، ورسالة (الدعوة التامة)، ورسالة (المذاكرة مع الإخوان المحبين)، و(الفصول العلمية)، و(إتحاف السائل بأجوبة المسائل)، وديوانه العظيم.

توفي رَضيَ اللهُ عنه في عشية يوم الثلاثاء سابع ذي القَعدة سنة (**١١٣٢هـ**)، ودفن بمقبرة زنبل بتريم، أجزل الله مثوبته[١].

* * *

(١) هذه الترجمة للشيخ تم نقلها برمتها من مقدمة كتابه «النصائح الدينية»، للشيخ حسنين مخلوف رحمه الله.

ترجمة الشيخ أحمد الشَّجَّار

هو العلّامة الجليل الشيخ شهاب الدين أحمد بن عبد الكريم الشَّجَّار الأحسائي، من علماء القرن الثاني عشر.

ـ مولده ونشأته:

ولد في مدينة الأحساء، ولا يُعرف تاريخ مولده، ونشأ بها نشأةً صالحة، وحفظ القرآن الكريم، وتعلم الكتابة والقراءة في سن مبكرة، ثم اشتغل بالعلوم العربية والفقه على عدد من علماء الأحساء وغيرهم.

ـ رحلته:

لقد كان الشيخ ممن رحل في طلب العلم حتى ألقى عصا التسيار في بلاد اليمن في (تريم) ولازم السيد عبد الله الحداد سبعَ عشْرةَ سنة، لا يكاد يفارقه في مجلس من مجالسه العامة والخاصة، مدة إقامته عنده، ويسير معه حيث سار، ويدوِّنُ كل ما يقوله في مجالسه العامة والخاصة، ويعلق عليها علماً جمّاً مما يزيدها وضوحاً وبياناً.

سافر بعد وفاة شيخه بقليل إلى الحرمين الشريفين والتقى بعلمائهما، ثم رجع إلى الأحساء وأقام بها على سيرة حميدة، واشتغل بالتعليم والإرشاد، مع انقباضٍ عن الناس إلا لأجل العلم، وهذا هو المحمود في هذا الزمان المنقوص، الذي لا يكاد يسلم فيه مع المخالطة إلا القدرُ النادر.

ـ صفاته:

كان ذا حفظٍ للعلم، وطلبٍ وإتقان؛ بل كتب جميع مؤلفات السيد عبد الله الحداد بقلمه وغيرها من الكتب، كثير النقل، متبعاً للفوائد، يحفظ من كلام السيد عبد الله وكراماته شيئًا لا يكاد يحصى لكثرة ملازمته، وانقطاعه إليه.

وكان عليه ـ في مدة إقامته عند السيد ـ وظيفةُ الأذان، وحمل السجادة والحبوة.

لقد عرف الشيخ رحمه الله بالصلاح والتقوى، وحرص على إرشاد الخلق إلى الله تعالى والدلالة عليه، وكان له حظ عظيم في المعارف الصوفية.

لبس الخرقة عن السيد عبد الله ما لا يكاد يحصى، وتلقن الذكر كذلك. وكانت له صحبة لجملة من العلماء في اليمن، منهم: السيد أحمد بن زين، جلس عنده سبعةَ عشَرَ يوماً وقال: أقمت عند سيدي أحمد كل يوم طباق سنة عند سيدي عبد الله.

ومنهم: السيد الجليل عمر بن عبد الرحمن البار، صَحِبَهُ الشيخ وأخذ عنه مدة، وقد وهبه الله صوتاً حسناً، إذا أنشد ترنم السامع لصوته، وكان شيخه السيد عبد الله الحداد كثيراً ما يطلب منه إنشاد القصائد التي ينظمها في مجالسه العامة والخاصة.

ـ مؤلفاته:

لم أقف على شيء من مؤلفاته سوى ما كتبه من مجالس السيد عبد الله الحداد، وما علّقه عليها من الحواشي التي هي كالشرح لها، وسماه «تثبيت الفؤاد في مجالس السيد عبد الله الحداد»، وقد كان للشيخ أبي بكر المُلّا الحنفي الأحسائي اختيارات لبعض مجالس السيد عبد الله الحداد وشرحِها للشيخ أحمد الشجار، وهو هذا الكتاب الذي بين أيدينا.

فرحم الله الشيخ أحمد الشجار رحمةً واسعةً، وصلى الله على خير خلقه سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

ترجمة الشيخ أبي بكر الملا

هو الإمام العلامة العارف بالله تعالى والدالُّ عليه، من بالعلم والورع تحلى، الشيخُ أبو بكر ابن الشيخ محمد ابن الشيخ عمر الملا الحنفي الأحسائي.

ـ مولده ونشأته:

كانت ولادته بمدينة الأحساء في اليوم الثاني من شهر ربيع الثاني سنة ١١٩٨هـ. وتوفي والده وهو صغير فتربى في حجر والدته، وحفظ القرآن وهو ابن عشر سنين، ثم جد واجتهد في تحصيل العلوم: النقلية والعقلية على عدة مشايخ، منهم: عماه الشيخ عبد الرحمن والشيخ أحمد ابنا الشيخ عمر الملا، ومنهم: الشيخ حسين بن أبي بكر الأحسائي، والشيخ عبد الله بن أحمد الجعفري. كما اشتغل على غير هؤلاء من المشايخ ممن يقْدُمُ الأحساء من هاتيك البلدان.

وكانت له رحمة الله عليه إجازات من مشايخَ نبلاء منهم: العلامة الشيخ حسين أبو بكر السابق ذكره، والشيخ السيد محمد ابن السيد أحمد العطوشي المالكي المغربي، والشيخ السيد ياسين مرغني الحنفي المكي، أجازه كل واحد منهم بما تجوز له روايته وتُعلَم لديه درايته من منقول ومعقول.

كما تلقى علم الأخلاق والآداب والسلوك من العالم الزاهد الشيخ حسين بن أحمد الشهير بالدوسري، وتلقى بعض الأوراد والأذكار عن غير هؤلاء من المشايخ حتى بلغ الغاية، وفاق معاصريه في العبادة والزهادة.

ـ صفاته:

وكان رحمه الله محافظاً على الصلوات الخمس في الجماعة، مواظباً على نوافل الطاعات ومتأسياً بقول سيد الناس ﷺ: «ازهد في الدنيا يحبُّك الله، وازهد فيما أيدي الناس يحبُّك الناس»، فمِن ورعه وتعففه أنه لا يجعل غذاء جسمه إلا من غلات عقارات ملكه، وأما ما كان تحت يده من غلّاتِ عقاراتِ وقفٍ فيعزلها في موضع، وتباع ويصرفها في مصارفها، وما فضل بعد ذلك يصرفه فيما ينوبه من الأمور المباحة.

وكان رحمه الله متخلقاً بالأخلاق الحسان من الحلم، وكظم الغيظ، وصلة الرحم، وكف الأذى، والصفح عمن أساء إليه، وفعل المعروف، والإحسان إلى الأرامل والأيتام، وإيواء الغرباء والفقراء وإطعامهم الطعام، ذا سياسة، وعقل كامل رصين، بحيث إنّه لا يواجه أحداً بما يكره، صاحب إيثار وإنصاف وعفاف، ينصح الناس ويحبِّبُهم للائتلاف، وينهاهم عن الأمور التي تؤدي بهم للخلاف والاختلاف، ذا رحمة وشفقة وغيرة وحمية دينية، يزجر عن الأفعال الرَّدِيّـة.

وكان رحمه الله ـ مع اتصافه بهذه الأوصاف ـ لا يرى لنفسه حالاً ولا مقاماً؛ بل يرى التقصير فيها مع الاعتراف، ويكره التنويه والتفخيم لاسمه، وإذا أَلَّفَ أو لَـخَّصَ كتاباً سماه باسمه وكتب وقفيته عليه ولا يحب نسبته إليه؛ بل يقول: «ليس لي فيه كلام، إنما هو منقول من كلام السلف الأئمة الأعلام، فما أنا إلا كمبلِّغ خلف إمام»، وهذا من كمال تواضعه رحمه الله.

ـ وفاته:

كان رحمة الله عليه قد حج سبع مرات، وكان ينزل في طريقه إلى الحج على بيت الحداد أحفاد السيد عبد الله، ويمكث في تريم أياماً التقى خلالها بجمع من كبار علماء اليمن آنذاك. وفي الحجة السابعة سنة **١٢٦٩**هـ حج وأقام بمكة بعد الحج، ومرض مدة

شهرين من غرة محرم (١٢٧٠هـ) إلى يوم الثامن والعشرين من شهر صفر وكان معه إسهال البطن. وكان رحمه الله في مدة مرضه يشتغل أحياناً بمطالعة بعض الكتب، وكان آخرَ كتاب لخصه هو كتاب «صيد الخاطر»، لخصه رحمه الله في مرض موته وسمَّاه «الزهر العاطر بتلخيص صيد الخاطر»، ولما كانت ليلة التاسع والعشرين توفي وقت التذكير في الحرم الشريف، وسجي عليه إلى طلوع الشمس، ثم صُلِّيَ عليه في الحرم الشريف عند باب الكعبة، ثُمَّ حُمِلَ إلى المعلَّى ودفن في شعبة النور في حوطة الشيخ محمد صالح الريس، وصار قبره رحمه الله مما يلي الجدار الشمالي وبعده قبران إلى جهة القبلة.

وقد رؤي رحمه الله بعد وفاته بمراءٍ تدل على رفعة قدره ومكانته عند الله.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

ـ مؤلفاته:

له من المؤلفات الكثير حتى بلغت فوق مائة كتاب، منها: «التذكرة في أحوال الموتى والآخرة»، و«هداية المحتذي شرح شمائل الترمذي»، و«منهل الصفا في شمائل المصطفى»، و«منظومة تحفة الطلاب». ومن أراد الوقوف على مؤلفاته فليرجع إلى ترجمته التي كتبها ابنه العلامة الشيخ عبد الله والمسماة «بغيةَ السائلين عن ترجمة خاتمة المتأخرين».

وقد تُلُـقِّيت كتبه بالرضا والقبول؛ لأنها مختصرة مفيدة وافية بالمقصود، معَ اشتمالها على طريق الحق والإنصاف.

وكان رحمه الله قد دَرَّسَ وأقرأ العلوم واستفاد وأفاد طلاباً دَرَّسُوا في حياته وبعد وفاته، وأجاز مجموعهم بإجازات تلقاها من مشايخه.

وقد وقع بينه وبين من عاصره في بعض المسـائل مناظرة، وأجاب عنها وأزال الإشكال.

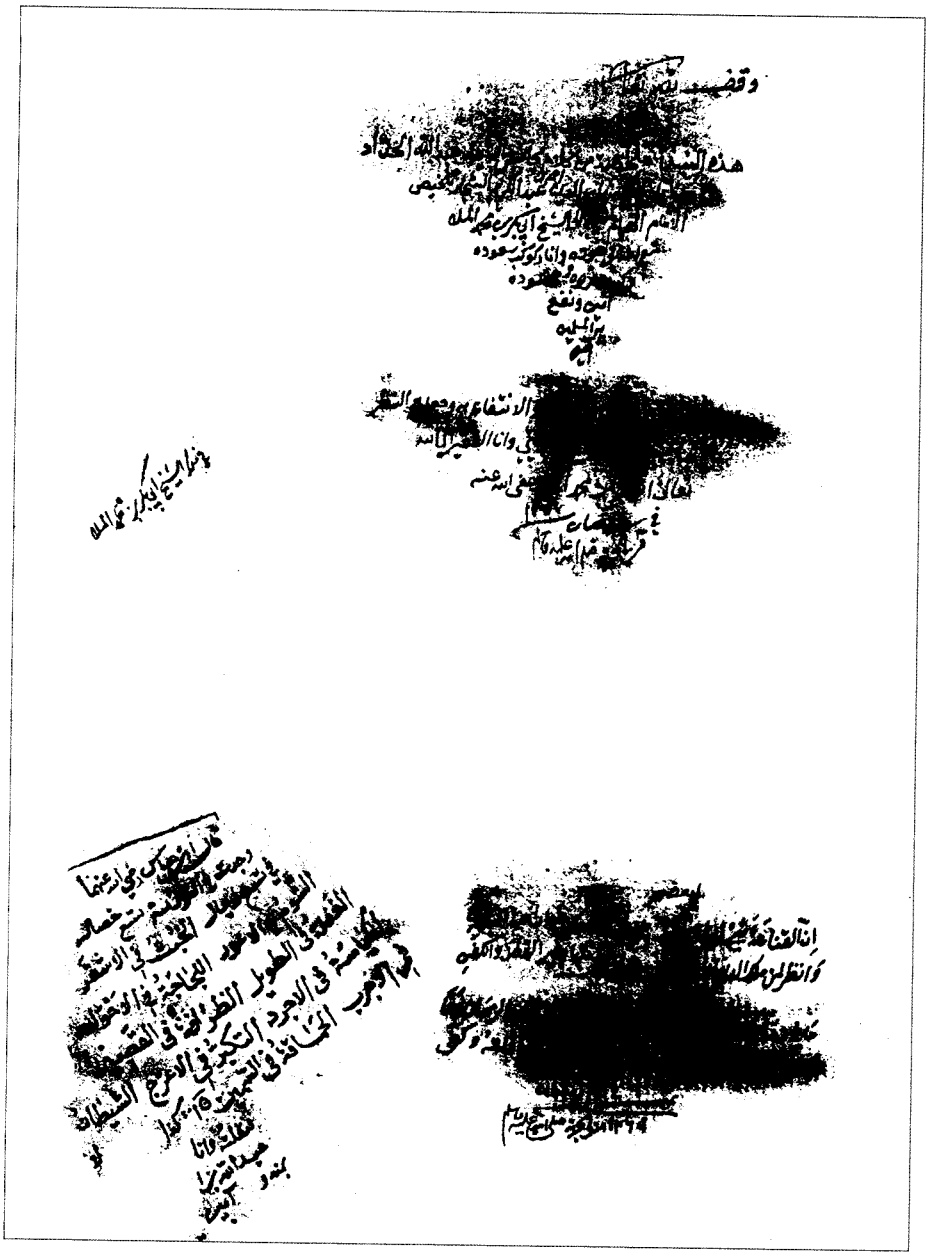

الصفحة الأولى من النسخة الأولى

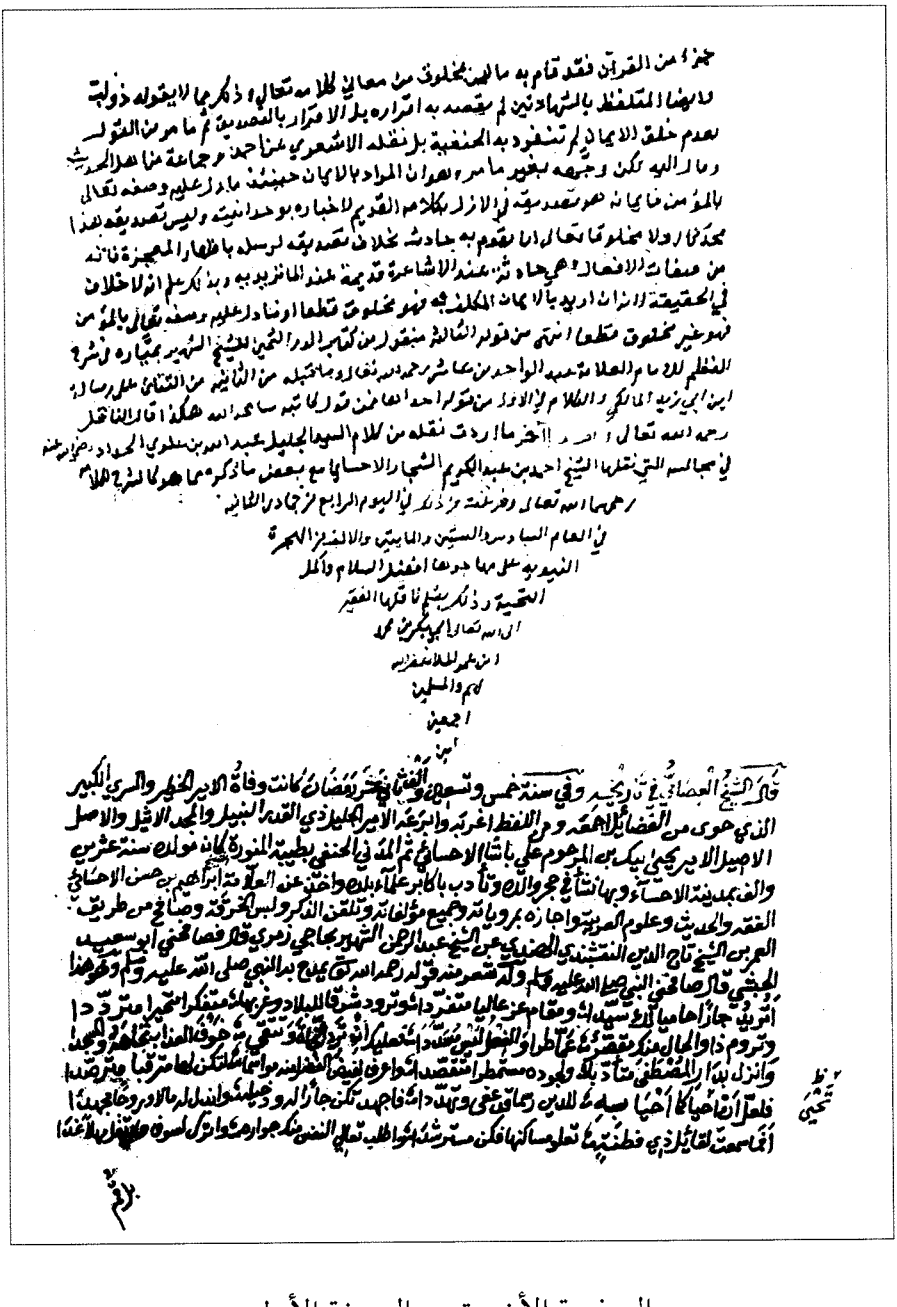

الصفحة الأخيرة من النسخة الأولى

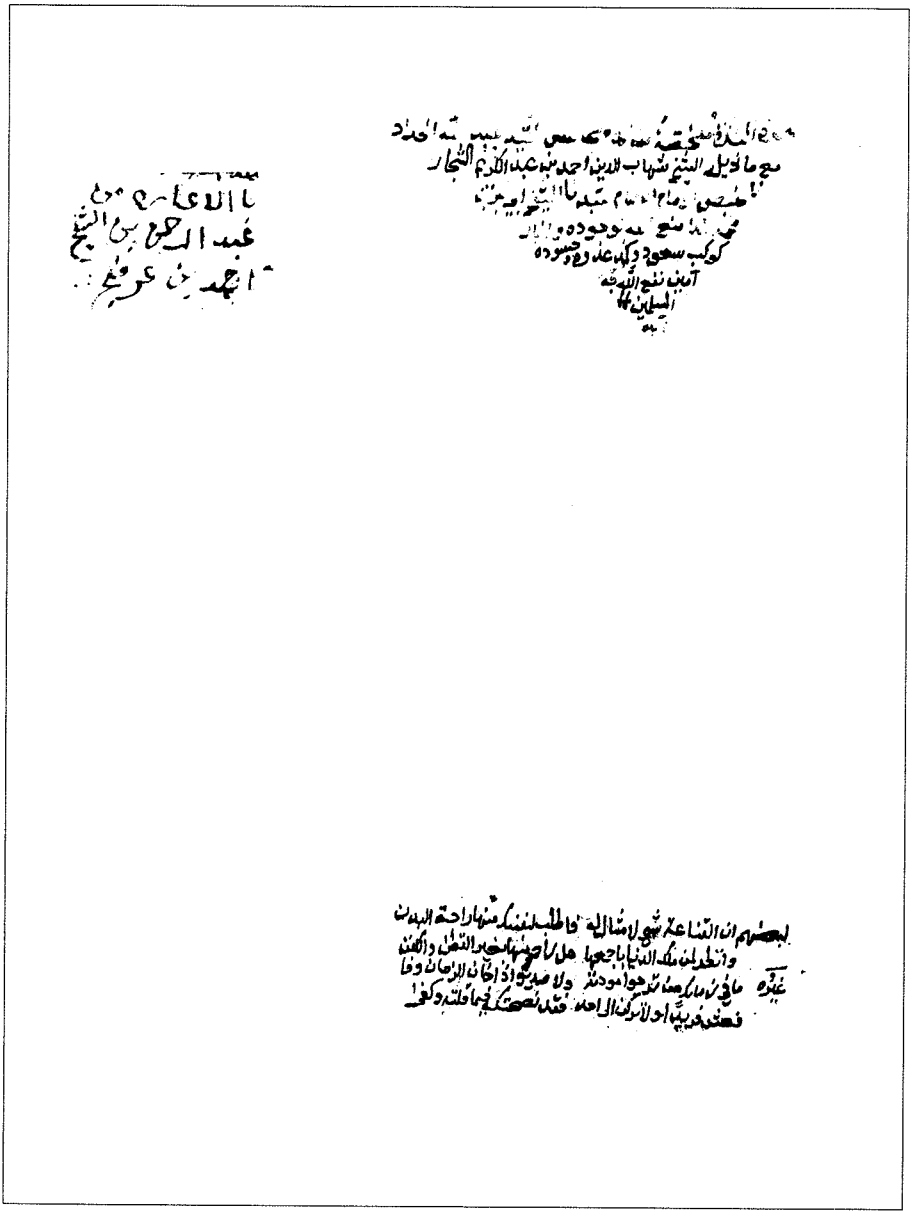

صورة صفحة الغلاف من النسخة الثانية

التي بخط تلميذ المؤلف، الشيخ أحمد بن عبد الله العرفج

صورة الصفحة الأولى من النسخة الثانية

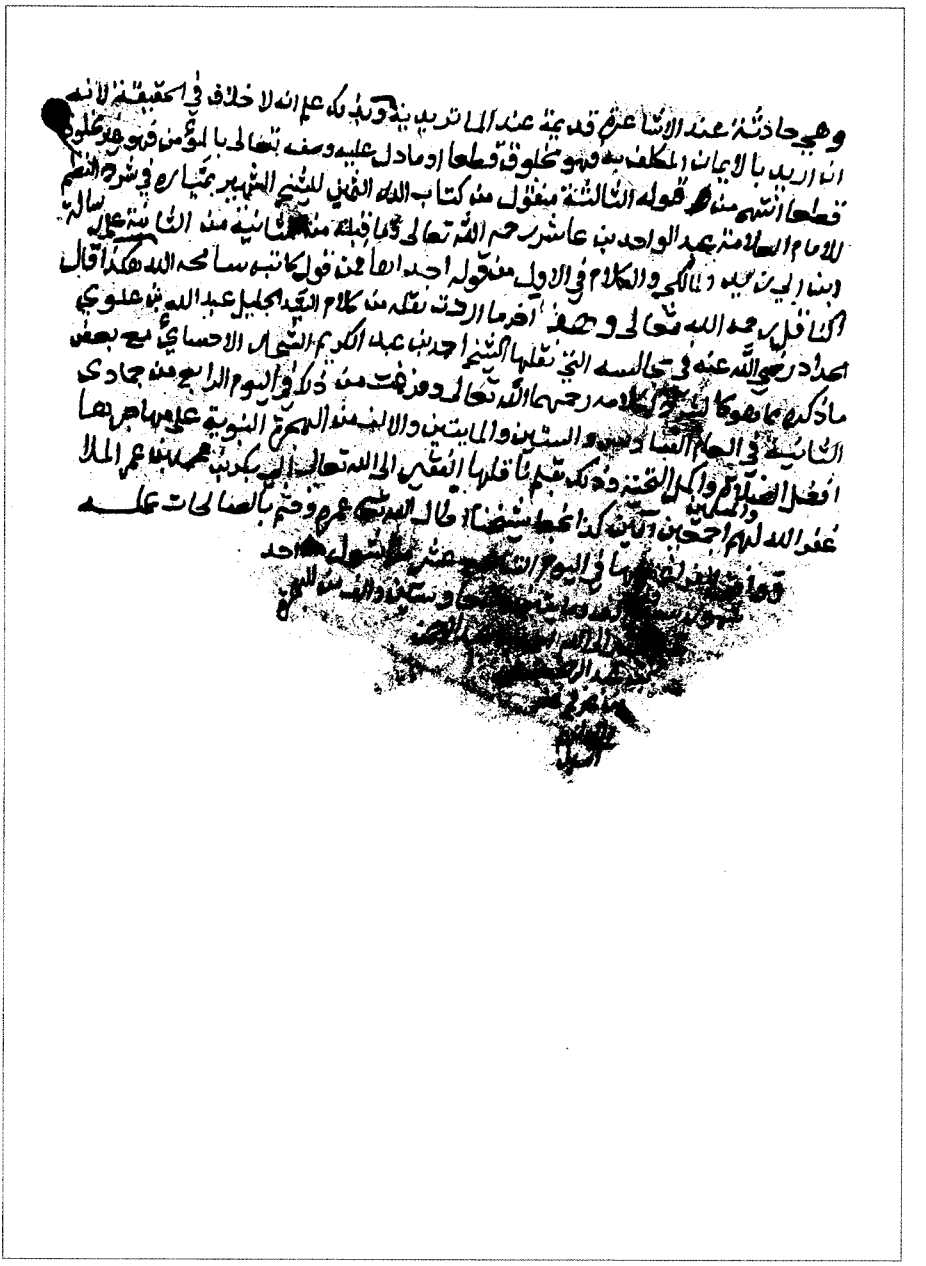

صورة الصفحة الأخيرة من النسخة الثانية

نبذة ملخصة من

مجالس الحداد

للإمام السيد عبد الله بن علوي الحداد الحضرمي

مع ما ذيل به عليها الشيخ أحمد بن عبد الكريم الشجار

تلخيص العلامة الشيخ

أبي بكر بن الشيخ محمد بن عمر الملا الحنفي الأحسائي

المتوفى سنة ١٢٧٠ هـ

تحقيق

يحيى بن الشيخ محمد بن أبي بكر الملا

دار الفتح
للدراسات والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه والتابعين.

أما بعد،

فهذه نبذةٌ من كلام سيدنا العالم الكامل، العارف بالله تعالى، السيد عبد الله ابن علوي الحداد، نفع الله تعالى به، الذي كان تكلم به في مجالسه، بحضرة جماعته، حسب ما نقله عنه تلميذه ومريده الأجلُّ المحترمُ العالمُ الفاضلُ الشيخ شهابُ الدين أحمد بن عبد الكريم الشَّجَّار الأحسائي، لخصتها من خطه الشريف، مع بعض ما ذُيِّـلَ به من المعاني، التي هي كالشرح لذلك الكلام المنيف، قاصداً بذلك الانتفاع لي وللمسلمين، لما فيه من زيادة الإيمان واليقين، وبالله سبحانه التوفيق والهداية إلى سواء الطريق.

[الأجر على قدر الهمة والنية]

قال السيد رَضيَ اللهُ عنه: «اعمل لله على قدر همتك ونيتك، فإنَّ الأجر على قدر الهمة والنية، لا على قدر العمل، فإن خزائنه تعالى مملوءة عبادة، فإذا كان المَلَكُ الواحد من الملائكة من قَبْل خلق الدنيا إلى يوم القيامة في سَجْدة، وآخَرُ في ركعة، ونعَّمهم بذكره، كما هو معلوم من أحوالهم، فما قدر عملك أنت؟ فإنما هو

بالنية، فإن الله تعالى شكر للضفدع حيث حملت في فيها ماء لتطفئ نار النمرود عن إبراهيم عليه السلام، فقيل لها: أتقدرين على طفئها، فقالت: هذا حد قوتي، فنهى الشرع عن قتلها، والوزغ، حيث جعل ينفخ فيها، وقال: أريد أن أظهر له الشماتة، ذمَّهُ اللهُ حتى رغَّبَ الشرعُ في قتله».

قال الناقل رحمه الله تعالى: أقول: قوله: «رغب الشرع في قتله»، أي: وعَدَّ على ذلك من الحسنات، مع أنَّ كلًّا منهما عمله قليل لا يذكر، ولا يؤثر فيما أراد، فلا ماء الضفدع مؤثر في طفء النار، ولا نفخ الوزغ مؤثر في شَبِّها؛ ولكن ذلك بحسب نية كل منهما، وبسببه ورد النهي عن قتلها، والترغيب في قتله، بحسب النية، لا بحسب العمل، وقد ورد أن من قتل الوزغ في الضربة الأولى فله مئة حسنة، وفي الثانية خمسون، وهكذا، أي: خمس وعشرون، وعشر، وخمس، وواحدة، كذا يتنزل بعدد الضربات، فعُلِمَ بذلك أن الجزاء بحسب النية، لا بحسب العمل؛ ولذا ورد: «سبَقَ درهم مئة ألف درهم»[1]، فتضاعفت نية صاحب الدرهم الواحد على نية صاحب الألوف، في الصلاح والحسن والكمال، بمئة ألف جزء، حتى سبقتها بذلك القدر، ونقصت عنها نية صاحب المئة الألف بهذه الأجزاء، فقصرت عنها بقدرها.

[السبق في الأعمال على وجهين]

والسبق والتقدم في الأعمال على وجهين:

أحدهما: منسوب إلى العبد شرعاً، بحسب حسن نيته وقصده وكمال

---

(١) أخرجه النسائي (٥: ٥٩) وابن خزيمة في صحيحه رقم (٢٤٤٣) وابن حبان في صحيحه رقم (٣٣٣٦) والحاكم في مستدركه (١: ٤١٦) وقال: صحيح على شرط الشيخين، كلهم عن أبي هريرة، ورمز السيوطي لصحته في الجامع الصغير رقم (٤٦٥٠).

معرفته، وإلى الله سبحانه حقيقةً، حيث وَفَّقَهُ ويَسَّرَهُ لحسن النية وكمالها، وغاية صلاحها، وقوة رغبته في الخير، وفي رضاء الله، حتى كَمُلَتْ بسبب ذلك.

الوجه الثاني: مما يقتضي السبق والتقدم في الأعمال، وهو منسوب إلى الله سبحانه حقيقةً بكل وجوهه، لا مدخل فيه لغيره، فهو أنه سبحانه وتعالى سبقت محبته وعنايته لأقوام اختصهم بذلك دون غيرهم، فصار بسبب ذلك حسناتُهم مقبولةً، وتقصيرهم مغفوراً، وذلك دون سابقة منهم، ولا وسيلة ولا سبب منهم يقتضي ذلك؛ بل بمحض اختيارٍ منه سبحانه، فصار لذلك مثاقيلُ الذر من أعمالهم أفضل من أوزان الجبال من أعمال غيرهم، كما ورد في وصف الصحابة رَضِيَ اللهُ عنهم، لما سبقت لهم من الله تلك المزية فكانوا قوماً يحبهم الله ويحبونه؛ فلهذه المزية والخصوصية «لو أنفق أحد ـ من غيرهم ـ مثل جبل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»[1] ، فانظر كيف سبَّب سبق محبته تعالى لهم أنَّ مُدَّ طعامٍ يتصدَّقُ به أحدهم، يأكله إنسان في وقعة واحدة، أو نصف مُدٍّ، لا يبلغه عملٌ من تصدق من غيرهم بجبلٍ ذهباً يكفي خلقاً كثيراً في سنين كثيرة، فأي تفاوتٍ عظيم بين العملين!

[رب قليل كثَّرته النية]

وقال رَضِيَ اللهُ عنه: «رب قليلٍ كثَّرته النية، ورب كثير قَلَّلَتْهُ النية».

قال الناقل رحمه الله تعالى: أقول: أي إذا صلحت النية وكَمُلَتْ سبقت

---

(١) رواه مسلم في الفضائل (١٦: ٩٢، ٩٣) والبخاري في المناقب (٨: ٣٣)، وأحمد (٣: ٢٦٦)، وغيرهم.

الأعمال، كما سبق الدرهم الواحد مئة ألف درهم، فإذا صلحت النية في العمل كفى اليسير منه، وإذا ضعفت هنا لم يكف الكثير منه.

[النية لا يتطرق إليها الرياء]

وقال رَضِيَ اللهُ عنه: «لأن النية قلبية، لا يتطرق إليها الرياء ونحوه، بخلاف أعمال الجوارح».

قال الناقل رحمه الله تعالى: أقول: يعني: موضعُ نظر الله تعالى قَلْبُه الذي هو محل النية والإخلاص، وأما الجوارح الظاهرة فلا حكم لها إلا بما اقتضته النية، طابت أو خبثت، لأنها تابعة لها، وثوابها وجزاؤها أعظم من جزاء الأعمال، وخُبْثُها أبلغ[1] من خُبْثِها، والقلب بيت الرب، الذي قال سبحانه: «ما وسعني أرضي ولا سمائي، ووسعني قلب عبدي المؤمن»[2].

[معنى قوله سبحانه وتعالى: «ووسعني قلب عبدي المؤمن»]

قال سيدنا: وُسعَ معرفةٍ، وحَمَلَ الأمانةَ التي عجزت عنها السماوات

---

(١) في ع: أعظم.

(٢) ذكره في الإحياء بلفظ: «قال الله: لم يسعني سمائي ولا أرضي ووسعني قلب عبدي المؤمن اللين الوادع»، قال العراقي في تخريجه: لم أر له أصلاً، ووافقه في «الدرر» تبعاً للزركشي، وفي حديث أبي عتبة الخولاني رفعه: «إن لله آنية من أهل الأرض، وآنية ربكم قلوبُ عباده الصالحين، وأحبها إليه ألينها وأرقها». انتهىٰ. أخرجه الطبراني، وفي سنده بقية بن الوليد يُدلس؛ لكنه صرح بالتحديث.
وانظر: إتحاف السادة المتقين (٧: ٢٣٤) وكشف الخفا (٢: ٢٥٥) والأسرار المرفوعة لعلي القاري (٢٦٠، ٣١٠، ٣٧٦).

والأرض، ولهذا صار عمله أبلغ من أعمال الجوارح بأضعاف، وقد ذكر الإمام الغزالي في حديث «يموت الإنسان على ما عاش عليه ويبعث على ما مات عليه»[١] أنّ معناه: أن المراد بقوله: «ما عاش عليه» أي: ما كان الغالب على قلبه في حياته، وما هو أكبر همه في مدة عمره، لا ما كان أكثر عمله، ويراعى في ذلك حالُ قلبه، لا حالُ شخصه، فمن صفات القلوب تصاغ الصور في الدار الآخرة، ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم.

وقال رَضِيَ اللهُ عنه في حديث: «ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن»: يعني وسعَ المعرفةَ وحمَلَ الأمانة، وسعَ علم لا جِرم، والقلب لا يضيق بكثرة المعلومات وإن كثرت، وإنما تضيق أماكن الفراغ مما يكون فيها من الأجْرام.

[يحصل بالنية الصالحة ما لا يحصل بالعمل]

وقال رَضِيَ اللهُ عنه لرجل مسافر: اللهَ الله في الطاعة، اللهَ الله في الطاعة، هكذا مرتين، اللهَ الله في العمل الصالح، والنية الصالحة، فإذا لم تقدر على العمل، أو لم يتيسر لك، فلا تترك النية، فإنها أسهل من العمل، لمن وفقه الله، ويحصل بها ما لا يحصل بالعمل، لأن العمل فيه شروط، ويحتاج إلى الإخلاص، وله عوارض تبطله، والنية سالمة من جميع ذلك، فقال الرجل: النية أشد من العمل، فقد يقدر

---

(١) «يبعث كل عبد على ما مات عليه». ذكره الغزالي في الإحياء (٤: ٣٥٣ و٣٦٤)، وأخرجه مسلم وابن ماجَهْ كلاهما عن جابر كما أشار إلى ذلك الإمام السيوطي في الجامع الصغير رقم (٩٩٩٤) وفي رواية: (يبعث الناس على نياتهم)، أخرجه أحمد في مسنده عن أبي هريرة، ورمز السيوطي لصحته (٩٩٩٣)، ولفظ مسلم برقم (٢٨٧٨): «يبعث كل عبد على ما مات عليه»، ورواه أحمد (٣: ٣٣١، ٣٦٦) والحاكم (١: ٣٤٠، ٢: ٤٥٢، ٤٩٠).

عليه دونها، فقال سيدنا: إذا وفق الله سهلت حتى يكون في عمل واحد نيات كثيرة.

[المخطئ في الطاعة لا يؤاخَذ]

وقال رَضيَ اللهُ عنه: المخطئ في الطاعة لا يؤاخذ، لأن الله تعالى رفع عنه الخطأ، وهو كفاعلها على وجهها؛ بل يثاب على قصده، والمخطئ في المعصية كالعاصي، ويأثم على قصده، لأن المدار على القصد، لا على نفس العمل.

قال الناقل رحمه الله تعالى: أقول: يعني إذا فعل طاعةً يظنها معصيةً صار مأثوماً بنيته، وإن كانت طاعة، بخلاف ما ظن ونوى فعله، وإن فعل معصيةً يظنها طاعةً فيثاب على نيته، وإن خالفها العمل، فتجري عليه الأحكام على ما نوى، لا على ما عمل، ويُجزَى على حسب ظنه وقصده، لا بما في حقيقة الأمر؛ لكن إن علم ببطلان عبادة لازمة، فيجب عليه قضاؤها ولا إثم عليه، ويثاب على حسب ظنه وقصده، وافهم ذلك مما نذكره عن قول الإمام الغزالي[1] الآتي. وكذلك إذا فعل ما يظنه صواباً فبان خلافه، فلا يأثم بذلك، كمن صلى يظن أنه على وضوء فبان حدثه: أثيب على نيته، وعلى قراءته، وإن كانت صلاته باطلة، ويجب عليه قضاؤها. وقد ذكر هذا المعنى الإمام الغزالي في «الأربعين الأصل» حيث قال: من جامع امرأةً أجنبيةً يظنها زوجته فلا يأثم، ومن واقع زوجته

---

(١) هو محمد بن محمد الغزالي الطوسي، أبو حامد، حجة الإسلام، فقيه، متصوف، له نحو مئتَي مصنف، ولد سنة (٤٥٠هـ)، ووفاته سنة (٥٠٥هـ) في الطابران (قصبة طوس بخراسان). من كتبه: إحياء علوم الدين، تهافت الفلاسفة، الاقتصاد في الاعتقاد، محك النظر، مقاصد الفلاسفة، والمنقذ من الضلال (معجم المؤلفين ١١: ٢٦٦).

يظنها أجنبية أثم، فالإثم وعدمه متعلق بالاعتقاد والنية، فبحسب ذلك يُجزى، وما أُمِرْتَ بأن تصلي وثوبك طاهر؛ بل أن تصلي وتعتقد أنه طاهر، وأنك غير مُتعبَّدٍ بما هو في نفسه حلال؛ بل بما هو في اعتقادك حلال. انتهى.

[إذا كان العمل لله فلا عبرةَ بخواطر السوء]

قال رَضيَ اللهُ عنه: «كل عمل يعمله الإنسان لله، يعلم من نفسه أنه لم يعمله إلا لله، فلا عليه بأس من خواطر السوء».

[الحضّ على علو الهمة وإخلاص النية وإصلاح العمل]

وقال رَضيَ اللهُ عنه: «قَوِّمْ همتك وارفعها واجعلها لله تعالى، وأخلص نيتك، وأصلح عملك، واقصر نيتك على أمرين لا تتعداهما:

١ـ أن يكون جميع أفعالك وحركاتك وسكناتك وأحوالك ـ ظاهراً وباطناً ـ لله تعالى، أو ما هو وسيلة إلى ذلك.

٢ـ واجعل ميزانك في الآخرة يرجح بما هو لله تعالى على ما هو لنفسك، لتكون ممن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون، ومن ثقلت أمور نفسه على ما هو لله، فأولئك الذين خسروا أنفسهم، والنفس طبعها طبع الماء، إذا سَيَّبْتَهُ إنما يسير إلى أسفل لا إلى أعلى؛ ولكن يمضي عمر الواحد ما قهر نفسه لله، ولا قام بحقه، كما ينبغي منهم؛ بل تركوا حقه، وراحوا لأمور لا فائدة فيها، لأن الشيطان قعد لهم على الصراط المستقيم، فلا يصِلون إلى الله إلا منه، ومنعهم منه الشيطان، فإذا كان لا يدخل الجنة داخلها ولا يدخل النار داخلها إلا بالصِّكاكِ لهم في ذلك، أفيحسبون الأمور سايبة؟!».

[حال أهل هذا الزمان]

وتكلم يوماً في أهل الزمان وأكثر، ثم قال: «إن شهود الزمان فسقة، وكذا قضاته وعدوله، وإنما تقبل فتاويهم وشهاداتهم للضرورة، وإذا تأملت حال العُبَّاد فيهم فضلاً عن غيرهم، تراهم في كل مباح ـ من أكل ونوم ونحو ذلك ـ في غفلة، أين الآداب؟ أين الأذكار الواردة في هذه الأشياء؟ هيهات! ذهب الدين، ولم يبق منه إلا الرسوم».

[أمور الدين لا تتم إلا بعد إحكام الأساس]

وقال رَضِيَ اللهُ عنه: «أمور الدين كالبيوت، لا يتم بناء القصر إلا بعد إحكام الأساس، كذلك الدين: أساسه كلمة التوحيد والتصديق بها، ثم الأحكام الواجبة، ثم قراءة القرآن، ثم ما يندب بعد ذلك، قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: ١٠٩]، فالتأسيس بإثبات العقائد والنيات والصدق، ثم البناء لذلك بعد ذلك.

[العبرة بالعمل بالقرآن، لا بقراءته بلا عمل]

قال الناقل رحمه الله تعالى: أقول: وقوله: «ثم قراءة القرآن»، يطلق هذا اللفظ على العمل بالقرآن لا بقراءته بلا عمل به، كما قال سيدنا عمر، لما أقام الحد

على ابنه الملقب أبي شحمة[١] فمات في الحد، أي وهو يضربه الحد، قال له أبوه: يا بني، إذا لقيت محمداً ﷺ أقْرِهِ مني السلام، وقل له: هكذا تركت عمر يقرأ القرآن، يعني يعمل به ويقيم حدوده.

[الخلوة والرياضة في هذا الزمان]

وقال رَضِيَ اللهُ عنه: «لا تصلح الخلوة والرياضة في هذا الزمان، لعدم شروطهما فيه، كأكل الحلال، وغير ذلك؛ ولكن من بنى أمره فيه على ملازمة الفرائض، وترك المحرمات، وما استطاع من نوافل، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وإعانة ضعيف، وإحسان إلى محتاج، أو إقامة بمؤونته وما شاكل ذلك، وثبت عليه، حصل له ما حصل لأولئك برياضاتهم وخلواتهم، وأدرك ما فاته منها».

قال الناقل رحمه الله تعالى: أقول: انظر إلى هذا الكلام البديع الذي لا يمكن أن يتصرف فيه إلا من ثبت له ذلك المقام الرفيع، وهو شبيه بما يقال في بعض الأحاديث المروية الثابتة، لأن مثل هذا لا يقال من قِبل الرأي.

[طرق التصوُّف واحدة، وحالات النفس مختلفة]

وقال رَضِيَ اللهُ عنه: «طرق التصوف وإن تعددت فهي طريقة واحدة، وهي مجاهدة النفس، والخروج من كل ما تدعو إليه، وهذا أمر عسر»[٢].

قال الناقل رحمه الله تعالى: أقول: وإنما كان ملاك الطريق، والذي عليه

---

(١) في ب: شاعر.

(٢) في ب: عسير.

العمدة في الوصول إلى الله: مجاهدة النفس، ومخالفة كل ما تهواه؛ لأن لها ثلاثَ حالات: حالة خبيثة إلى الغاية، وهي النفس الأمارة، وهي نفوس العوام والجهال وصغار السن وضعفاء العقل، وهذه مجبولة على حب كل ما يكرهه الله تعالى، فلا وصول إليه إلا بمعاداتها، ومخالفتها في كل مطالبها، حتى تستقيم وتعتدل، وحينئذٍ تصير لوامة لها وجهان: وجه يميل إلى الخير فتدعوه إليه، ووجه يميل إلى الشر فتدعوه إليه، فإذا فعله لامته على فعله، فلذلك سميت لوامة، ثم يلزمه مجاهدتها أيضاً إلى أن تصير مطمئنة، كل ميلها إلى الخير، وكل دعائها إليه، وهي نفوس الأنبياء، وتليها نفوس الأولياء، وكل نفوسهم مطمئنة، ونفوس الأنبياء أكمل في الاطمئنان، ولا تميل هذه النفس إلى غير الحق، ولا تدعو إلا إليه، ولا يصل إلى الله إلا إذا صارت نفسه مطمئنة، ولا تصير كذلك إلا بعد الجهاد الطويل، وحمل الثقيل في مخالفتها ومجاهدتها، كما تسمعه من شأن الصوفية والمقبلين على الله.

[العلوم الحقيقية لا تُعرف بالشرح]

وقال رَضِيَ اللهُ عنه: «العلوم الحقيقيَّة لا تُفهم ولا تعرف بالشرح؛ بل مَن وصلها عرفها، كتعليم الصغير الوقاع، فإنه لا يعرفه حتى يكبر، وأصل وضعها مع ذلك خواطر تخطر لهم».

قال الناقل رحمه الله تعالى: أقول: أي يوقعها الله في خواطرهم)[1] من غير سبب، ومن غير ما يعلمون، وتكون حقاً وصدقاً، كما يُكاشِفون الإنسان بما يخطر له في خاطره.

---

(١) ما بين القوسين سقط من ب.

[حال الأولياء في البرزخ]

وقال رَضيَ اللهُ عنه: «أهل البرزخ من الأولياء في حضرة الله، فمن توجّه إليهم توجّهوا إليه».

قال الناقل رحمه الله تعالى: قوله: «توجه إليهم» يعني بالمحبة والعقيدة، «وتوجهوا إليه» أي: بحصول مطلوبه، وقضاء حاجته من الله تعالى، فضلاً منه سبحانه وتعالى وتكرماً ببركتهم وجاههم عنده وكرامتهم عليه لعلو منزلتهم لديه، كما ذُكر في الحديث القدسي عن الله سبحانه وتعالى أنه قال: «ما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»[1]، رواه البخاري.

قال الناقل رحمه الله تعالى: قوله: «فإذا أحببته كنت سمعه»... إلى آخر الأعضاء المذكورة، يعني: إذا أحبه ربه صار لا يفعل بهذه الأعضاء المذكورة إلا ما يرضي الله ويرضى به، حيث إنّها منها وبها الأعمال الكائنة من العبد طاعةً ومعصية، فالعبد الطالب للتقرب إلى ربه يجاهدها تكلفاً أن يحصل منها الطاعة، ويجنبها المعصية إلى أن يحبه ربه، فإذا أحبه صار يعمل بها الطاعة، ويجنبها المعصية، بتلذذ وسهولة بلا تكلف، فيتبدل تعبه وتكلفه حلاوةً ولذة، فلا يفعل بها قطُّ إلا ما يرضي ربه. وقوله: «ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»، يعني سأل

(١) رواه البخاري في الرقاق رقم (٦٥٠٢)، والبيهقي (٣: ٣٤٦ و١٠: ٢١٩).

واستعاذ لنفسه أو لغيره، فما صاروا أولياء إلا بعد ما أحبهم، وما أحبهم إلا بعد ما أحكموا فرائضه ونوافله، وتقربوا إليه بذلك، فصارت لهم عنده هذه المنزلة العالية، فإذا كان الأمر كذلك، كيف لا تُسْتَقضَى بهم وتقضى ببركتهم الحوائج! وكيف لا تُسْتَدْفَعُ بهم وبجاههم البليات والكربات! فوالله، قد رأينا من ذلك عجائب كثيرة، وليس الخبر كالمعاينة، وذلك مجرد فعل الله، ومثل جنس معجزات الأنبياء، فما من معجزة لنبي إلا ومثلها كرامة لولي، فالمعجزة خلق من الله للنبي شاهدة له بالصدق في دعواه النبوة، والكرامة خلق من الله للولي شاهدة له بصدق المتابعة لنبيه، وشاهدة أيضاً بصدق نبيه، ولا فرق بينهما إلا بالتحدي، وهو وجوب إظهار النبي معجزته للخلق ليصدقوه، ويتبعوه في الإيمان بالله، وطاعته، ولا يلزم الولي إظهار الكرامة، ومن هو من أهل الكرامات يجريها الله له حياً وميتًا، كما قال: «أهل البرزخ من الأولياء في حضرة الله» إلى آخر المقالة.

فاعتقد ذلك وافهمه على وجهه، ولا تفهمه كما يفهمه الجاهلون الذين قصر علمهم عن فهم معنى حقائق الأشياء على وجهها، فيرون أن لغير الله مدخلاً في هذه الأمور، وتصرفاً معه في ملكه، فذلك خطأ، إذ نسبة أفعال الله لغير الله كفر، وليس الأمر كما يفهمون، وإنما المعنى الصواب: أن ذلك مجرد فعل الله لا مدخل فيه لأحد سواه؛ ولكن لما كان للنبي أو الولي تلك المنزلةُ الجليلة عند الله، فالله سبحانه يفعل تلك المعجزات للأنبياء، وتلك الكرامات للأولياء، وليس الأولياء كالأنبياء؛ بل الأولياء قاصرون عن الأنبياء، وإنما حصل لهم ذلك لحسن متابعتهم للأنبياء، ويفعل الله سبحانه ذلك لمن التجأ إليهم لكرامتهم عليه أن يحصل للملتجئ إليهم تفريج كربه، ودفع نكبته، أو جر مصلحةٍ أو دفع مضرة، ونحو ذلك، وذلك من الله سبحانه لمن التجأ إليهم بالعقيدة والمحبة، ووضعوا عليه نظرهم: نُفِعَ في الدنيا، ولَنَفْعُ الآخرة أكبر.

واعلم أن نسبة الكرامات للأولياء إذا أجراها الله لهم كنسبة المنافع إلى الأسباب[١] التي جعلها الله لها يتوصل بها إليها، والأسباب بأيدي الخلق، والمقصود منها من المنافع بإرادة الله لا مطلقاً، فإذا وقعت الأسباب وأراد الله تعالى إجراء المنافع، وقعت معها لا بها، والفرق بيِّن، ذلك أن معنى «بها» أي: مِن لازِم وقوع الأسباب وقوع المسببات، وهذا لا يجوز وغير مراد بالكلام، ومعنى «معها»: أن الله أوقعها مع الأسباب لما أراد ذلك، ولو لم يرده لما وقعت وإن وقعت الأسباب، فافهم المعنى المقصود، وميز بينه وبين الآخر الباطل، فإن الله سبحانه إذا أراد إجراء المنافع مع الأسباب حصلت، وإلا فلا. فالناس يفعلون الأسباب على رجاء أن يوافق إرادةَ الله حصولُ النفع عند وقوع الأسباب لا قطعاً بحصوله بها، فالقاطع بذلك إذا حصل السبب جاهل أحمق لا يعرف الحق من الباطل، ولهذا تعلَّقَ الحمقاء والجهال بالأسباب، ونسوا مسبب الأسباب، فما أفلحوا ولا نجحُوا.

ومثال الأسباب في حصول المنافع بها كحصول نفع السمع بالأذن، وحصول النظر بالعين، وحصول النطق باللسان، فإذا أراد الله تعالى إجراء هذه المنافع بهذه الأعضاء أجراها معها، وإلا فتوجد هذه الأعضاء بدون هذه المنافع،

---

(١) قوله: «كنسبة المنافع إلى الأسباب».. إلخ، يعني: أنها تكون بالأسباب، بشرط أن يريد الله ذلك وقد حضر وقتها الذي وقّتها به، فهذه ثلاثة شروط لا بد منها، أعظمها الإرادة منه سبحانه، ثم حصول الوقت المؤقت، ثم حصول السبب فيه، أي: في الوقت المؤقت، والدليل في كون وقوع كل المسببات بقدرة الله وإرادته وأنه لا مدخل للخلق فيها قوله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ [الأنعام: ٣٥]، أي: لا يستطيع ذلك ولا يستطيعه أحد إلا الله سبحانه وأنه مجرد فعله. انتهى. من الأصل للشيخ أحمد الشجار رحمه الله تعالى (مؤلف).

وترى هذه الأعضاء موجودة في فاقد منافعها كما هي تراها في واجدها، ولا فرق بينهما إلا أن الله سبحانه نزع منافعها منها وتركها كما هي، فلا ترى فرقاً بين أذن الأصم وعين المسروق النظر ولسان الأعجم، وبين أذن السامع وعين الناظر ولسان المتكلم إلا فقْدَ منافعها لا غير. فكذلك جميع أسباب الدين والدنيا والآخرة هكذا موقوفة على مشيئة الله، فقد توجد دون منافعها، قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى: فما كل من صلى وصام وعمل الطاعات غُفِرَ له، فكذلك الأولياء قد لا يكون لأحد منهم كرامة مدة عمره وهو قد يكون عند الله أفضل ممن كثرت له الكرامات؛ ولكن حيث لم يشأ الله له حصول كرامة ولا شاء شيئاً من منافع تلك الأعضاء ولا تلك الأسباب، لم يكن شيء من ذلك، وإنما كل شيء يتوقف على شيء، وكل شيء متوقف وجوده على مشيئة الله وإن حصل سببه، فافهم ولا تغتر.

[تعريف الإسلام، والإيمان، والإحسان]

وقال رَضيَ اللهُ عنه: «الإسلام: مجرد عمل فقط، والإيمان: مجرد إيمان وتصديق، والإحسان مشترك بينهما، والأول: في الجوارح، والثاني: في القلب، والثالث: فيهما، والأول ظاهر، والثاني باطن، والثالث خالصُهما، والإحسان هو الغاية من الإسلام والإيمان، إذا اجتمعا صارا إحساناً».

[الأمور مبنيّة على الصدق]

وقال رَضيَ اللهُ عنه: «الأمور مبنية كلها على الصدق، وأما من تعوَّد على الكذب فبناؤه على الماء، ومن الناس من يُعَرِّفُهُ الله حالَه قبل الموت، فيتوب منه، ومنهم من يُعَرِّفُهُ إياه عند الموت، فيندم حيث لا ينفعه الندم».

قال الناقل رحمه الله تعالى: قوله: «فبناؤه على الماء» أي: مبنَى أمر دينه، معناه أنه في أمر دينه ليس على أصل صحيح؛ لأنه كما قال: الأمور كلها مبنية على الصدق، يعني أمور الدين والدنيا في معاملته بينه وبين ربه، وفي معاملته بينه وبين الخلق، فإذا أكثر الكذب، والكذاب ملعون، فعلام استقام أمر دينه ودنياه؟! إنما بناؤه في الأمرين على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم؛ لكنْ من أراد الله به خيراً وفقه للتوبة منه، ومن جميع الذنوب حيث تدركه التوبة وتحصل له، وإلا قدِم على ربه على أسوأ حال، نعوذ بالله من أحوال أهل الضلال.

[حق اليقين، وعلم اليقين]

وقال رَضيَ اللهُ عنه: «وحق اليقين هو علم اليقين، إلا أنه إذا شاهد الشيء حصل له زيادة علم»[1].

[الإخلاص وعِزُّه]

وتكلم في الإخلاص؛ فقال: «لا أحد يدعي الإخلاص، بل يلزم حدَّه، ولا يتعدَّى طوره، ويعتقد في نفسه الرياء، فإنه إن كان كذلك، فقد وقف عند حَدِّه، وعرف قدره، ولم يتعد طوره، وإن لم يكن كذلك، لم يزده ذلك إلا رفعةً وقدراً عند الله تعالى، وأين الإخلاص اليوم؟

ومما يدلك على أنه عزيز لا يكاد يوجد قولُ الإمام الشافعي رحمه الله: «وددت أن لو انتفع الناس بهذا العلم ـ يعني علمه ـ ولا ينسب إليَّ منه حرف.

---

(١) وهذه الزيادة التي تسمى بحق اليقين، وهي عين الأولى لا شيء غيره. انتهى.

فكمْ أعجبنا كلامه هذا، ولو قلت لمصنف كتاب: امحُ اسمك منه، أو اكتب عليه اسمَ آخر، أو لا تكتب عليه اسم أحد، لأنَّ الأجر حاصل لك، فلا حاجة إلى نسبته إليك: لأبَى، وهذا يدل على عدم إخلاصه».

[أعمال أهل هذا الزمن وأحوالهم]

وقال رَضِيَ اللهُ عنه: «لا تسأل عن أعمال أهل الزمان، والزمان زمان مسايرة ومداراة وتغافل، فمن فعل ذلك معهم تمت له أموره، فإذا كان الإنسان منهم، لا يحتمل التقصيَ من والده، فما بالك من غيره؛ لكن ينبغي أن يبذل الإنسان وسعه في الطاعة وإن قلَّ، كالضفدعة أتت في فمها بماء لإطفاء نار النمرود عن إبراهيم عليه السلام، وقالت: هذا جهدي، فشكر الله لها ذلك، وإذا رأيت الإنسان ما همه إلا الدُّنيا، فانفض يديك منه».

قال الناقل رحمه الله تعالى: أقول: معنى ذلك أن لا تطمع منه في حصول خير ولا ميل إلى خير، هذا بادي الرأي وظاهرُ الحال، فإن كان له في علم الله نصيب في الخير فسيصير إليه، وإنما هذا بالنسبة إلى تأثير الأسباب وعلامات الأحوال.

أسبابُ حرمان الرزق

[جهات الرزق]

وذكر حديث «إنّ الرجل ليُحرَم الرزقَ بالذنب يصيبه»[1] فقال: «للرزق

---

(١) أخرجه أحمد (٥: ٢٧٧) وابن ماجَهْ (٤٠٢٢) والحاكم (١: ٤٩٣) وصحّحه ووافقه الذهبي، ورواه ابن حبان في صحيحه (٨٦٩)، وهو في كنز العمال برقم (١٦٦١١).

جهات متعددة، وكذلك الذنوب، فقد يكون الذنب في جهة الرزق، فإذا حصل ذنب في جهة رزق ـ كأن كان رزقه في البيع والشراء فأذنب ببخس وتطفيف ونحو ذلك ـ حُرِمَ ذلك الرزق، بأن ذهبَتْ بركتُه وتلاشى عليه فيفتقر، أو حصل له آفة أذهبته من يده كما هو مشاهَد في أهل الربا ومانعي الزكاة وغيرهم.

ويُحْرَمُ الرزقَ المقابلَ لذنبه خاصةً دون غيره، فإن كان له رزق في الحِراثة أو غيرها، ولم يذنب في جهته، فلا يُحْرَمُ الرزقَ منه بذنبه في جهة البيع والشراء ونحو ذلك. وإن كان ذنبه فيما هو عام لجميع الأرزاق أو أكثرها كالنقد، حُرم الرزقَ بذلك المعنى من جميع الجهات التي يأتيه رزقه به منها، لأن عليه مدارها. وإن أحسن في الكل حصلت له البركة والنمو في الجميع، أو أحسن في البعض ففيه دون غيره، ويجبر خلل كل واحد بالإحسان فيه دون الآخر، كما يجبر خلل العبادة بعضها ببعض، كذلك كما تجبر الصلاة بالصلاة، والصوم بالصوم ولا عكس. وإن كان الذنب بأمر خارج عن أسباب الرزق، كزنا وترك صلاة وغير ذلك، عَمَّ الضررُ العمر والرزق، فإن توالت عليه أرزاقه مع عصيانه فذلك استدراج له».

قال الناقل رحمه الله تعالى: أقول: انتهى كلامه. وهذا التفصيل العجيب والتقييد البديع من سيدنا ـ نفع الله به ـ من تَقَرُّبِ فهمه وحِدَّةِ خاطره، وهو يدل على تَبَحُّرِ علمه واطلاعه على معاني علوم الشريعة، ويدل على غزارة علمه اطلاعُه على وِزَانِ العادات من العبادات، بإطلاع الله له على ذلك، وعلى غيره بالإلهام والعلم اللدني.

[من أسرَّ سريرةً ألبسه الله رداءها]

وذكر رَضِيَ اللهُ عنه حديث: «من أسرَّ سريرةً ألبسه الله رداءها»[١] ثم قال: «أي: حسنة كانت أو سيئة، ويُلْبسه ذلك بالجملة لا بالتفصيل، وهو أنه إذا أسر حسناً حصل له القبول عند الناس، وأثنوا عليه خيراً، وإن أسرّ سيئاً لم تقبله قلوبهم، وأثنوا عليه شرًّا، وربما برز منه قليل ـ أي: مما أسرّ ـ فاستُدِلَّ به على الباقي من الأمرين، وعُرف به».

قال الناقل رحمه الله تعالى: أقول: قد جاء ما يحقق ذلك ويشهد له في حديث وفي قصة؛ أما الحديث فهو أنه ورد: «أن لله ملائكة تنطق على ألسنة بني آدم بما في المرء من الخير والشر»[٢]، وأما القصة فحُكي أن رجلاً في وقت الحسن البصري قال: لأعبدن الله عبادة يَذكُرُني بها الناس، فكان يصوم النهار، ويقوم

---

(١) ذكره القرطبي في تفسيره (٣: ٣٢٦). ورواه ابن أبي الدنيا في «الإخلاص» عن عثمان بلفظ: «ما من عبد يُسِرُّ سريرةً إلا ردَّاه الله رداءَها علانية: إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشرٌّ»، ورواه أحمد وابن أبي الدنيا والطبراني وأبو نعيم عن أبي سعيد الخدري بلفظ: «لو أن أحدكم عمل في صخرة صماء لا باب لها ولا كوَّة لأخرج الله عمله كائناً ما كان». قال النجم: وسنده حسن. (كشف الخفا ٢: ٢٩٦).

(٢) ذكره العجلوني في كشف الخفا (١: ٢٩٥) رقم (٧٧٩) وقال: رواه المحاملي في أماليه الأصبهانية، ومن طريقه الديلمي عن أنس قال: مَرَّتْ جنازة فأثنوا عليها خيراً، فقال رسول الله ﷺ: «وَجَبَتْ»، ثم مُرَّ بأخرى فأثنوا عليها شرّاً، فقال: «وَجَبَتْ»، فسئل عن ذلك، فذكره. وأخرجه الحاكم أيضًا وقال: إنه على شرط مسلم.

الليل، وأولَ داخل للمسجد وآخر خارج منه، فكان الناس إذا رأوه شتموه وسبوه وأثنوا عليه شراً ولعنوه، وقالوا: لعن الله هذا المرائي الكذاب، ثم إن الله بعد ذلك ألهمه رشده، فقال في نفسه: أراني أعمل في غير معمل، فماذا ينفعني به الناس؟ والله لأُخْلِصَنَّ عملي لله، فأخلص نيته لله، ولم يزد على ما كان يعمل من عبادته تلك شيئاً، فصار النَّاس بعد ذلك إذا رأوه قاموا له وقبّلوا يديه وتمسحوا به واعتقدوه وأثنوا عليه خيراً، فانظر الفرق بين الحالتين ولم يختلف منه إلا نيته؛ لما كانت سيئةً أبغضوه ولعنوه وأثنوا عليه شراً، فلما حسنت وصلحت أحبوه واعتقدوه وأثنوا عليه خيراً، وهذا مصدِّق لقوله.

[الأسباب التي أفسدت على الناس دينهم]

وقال رَضِيَ اللهُ عنه: «ما أفسد على الناس دينهم إلا العلماء، ولكن بعد فساد دينهم[1]، وما أفسد على الناس دنياهم إلا الأمراء، ولكن بعد فساد دنياهم، فبفساد العلماء يفسد الدين، وبفساد الأمراء تفسد الدنيا، لأن قِوام الأمر إنما هو بالرؤوس، أهل الدين لأهل الدين، وأهل الدنيا لأهل الدنيا، فإذا تغيرت الرؤوس تغير المرؤوس، وقد يتعدى ضرر ذلك إلى الأحكام والعقود؛ لأنها تصير حينئذٍ أحكام بغاةٍ فتنفذ للضرورة. والناس قد نزلوا ـ أي: نقصوا ـ في جميع الأشياء، وإذا أردت أن تعرف ذلك فَعِدَّ منازع، أو قال: منازل العلوم، كيف تراها، يفتون بأمور وإقرارات لا تصح، يتحيَّلون بها، وينبغي للمفتي أن يعرف قرائن الأحوال».

---

(١) أي: العلماء.

[الفقر المحمود والفقر المذموم]

وذكر رَضيَ اللهُ عنه حديث: «إن الفقر على المؤمن أحسن من العذار الحسن على خدّ الفرس»[1]، فقال: «ليعرف الإنسان أحكام الفقر والغنى من العلماء بالله، فإن الفقر المحمود: ما كان مع الصبر والرضا، ولا يغبط الأغنياء، وأما الذي يتمناها ويده منها خالية، ويضجر ويتبرَّم فهو أخس من الأغنياء، فليعرف أحكام الفقر والغنى، والدنيا كلها لهو ولعب، فخذ من اللهو واللعب ما ينفعك في الآخرة».

قال الناقل رحمه الله تعالى: أقول: الإنسان خلق في الدنيا تاجراً يسعى فيها لطلب كل ما يربحه، ويتجنب فيها كل ما يخسره، وصار الإنسان فيها غارقاً في كثرة أمور الخسران، وقليل ما يربحه. وربحه: ما يرضي الله ويفوز به يوم لقائه، وينفعه في الآخرة. وخسرانه: ما يغضب الله، ويضره في الآخرة، فالمُوفَّقُ يأخذ الدنيا بلاغاً وزادًا للآخرة، واستعانةً على الطاعة على الوجه الشرعي، ولا يعرِّج على ما وراء ما يتزود به لآخرته، والفاجر يتخذ الدنيا متاعاً، يعني: يمتع بها نفسه بتمكينها من شهواتها، ولا ينوي بها الاستعانة على الطاعة، وربما كان حراماً ولا يبالي، فإذا صلح قلبه، وتجرد عن الدنيا بقلبه وبدنه، فهو غاية الكمال، وهو الفقر

---

(١) رواه الطبراني عن شداد بن أوس (الفتح الكبير ٢: ٢٨١) وقال: ولا يصح سنده، والمعروف أنه من كلام عبد الرحمن بن زياد بن أنعم كما رواه ابن عدي في الكامل: «الفقر أزين بالعبد المؤمن من العذار الجيد على خد الفرس».

الصادق الحقيقي المطلوب، الذي هو على المؤمن كالعذار الحسن على خد الفرس. وإن تعلق قلبه وبدنه بها لها: فهو الفقر المذموم المستعاذ منه الذي قال فيه: حاله أخس من أحوال الأغنياء الراغبين فيها، وقولنا: «بها» أعني: تَعَلَّقَ بها، وسعى في تحصيلها لنفعها بأن قصد بها نفعها الدنيوي، الذي في الدنيا خاصة، دون ما ينفع في الآخرة وعند الله، فإن قصد بها الاستعانة على ما عند الله، فذلك لله لا للدنيا.

[حسن الظن بالمسلمين]

وقال رَضِيَ اللهُ عنه: «حسن الظن بالمسلمين عموماً، هو الأمر الواجب، إلا من رأيته على باطل صريح، فيكون ذلك سوء ظن، لأنه قادح في الشريعة، وأنت ساير أهل زمانك ما لم يغلبك الجواز، فإذا لم تجز المسايرة فلا تساير».

قال الناقل رحمه الله تعالى: أقول: هذا في مراعاتك لغيرك ومسايرتك له فعلى ما شرط: إذا لم يمكنك أن تقيمه على الوجه الأكمل فسايره، أي: سر معه على ما هو عليه، إذا لم يرتكب منهياً ولا ترك واجباً، لقوله: «فإذا لم تجز المسايرة فلا تساير»، وقوله: «ما لم يغلبك الجواز» أي: يعوزك فلا تجده عند من أردت مسايرته، فلا تسايره حينئذ، فساير على هذا الشرط بما يناسب في كل زمان ومكان، فهكذا أمرك في سيرتك مع غيرك، وأما في خاصة نفسك فلا تقنع منها إلا بأكمل الوجوه، وجاهدها على ذلك إن أمكن في كل الأمور، وإلا في البعض الذي يمكن، وكذلك في من يساعدك على ذلك إن أمكن، ولا تغتر إذا سمعت هذا الكلام ونحوه في كلام المشايخ كالشعراوي وغيره من الأكابر أن تتخذه رخصةً لنفسك، فتأكل الحرام وأموال السلاطين الظلمة، سيما من أهل هذا الوقت الظلمة الغشمة

المفسدين، الذين لا يجدون درهماً حلالاً، وتقول: فعل الأراذل من عدم التقوى والورع والاحتياط للدين، وتقول: قال الشيخ فلان: كذا، فتحتج لنفسك على ربك في اتباع هواها وما يلذ لها من بلوغ مناها.

فافهم أن المراد من كلام سيدنا هذا مراعاة الناس فيما هم فيه ما لم يكن إثماً، لا مراعاة نفسك فيما تهوى، وإن لم يكن إثماً إن كان نقصاً فلا يجوز أن تتبع هوى نفسك في التقصير، وتحتج بأقوال المشايخ، فهذا لا يجوز، ولا قال به أحد من أهل الحق، إلا من لا خير فيه ممن لا يرى الحرام إلا ما حُرِمَه، ولا الحلال إلا ما حَلَّ بيده.

[حال الإنسان في تقصيره]

وقال رَضيَ اللهُ عنه لبعض الفقراء: «لو تلوت القرآن حق تلاوته، لزهدت في الدنيا بين يديك، والإنسان في حالة تقصير، ويرى أنه على الحال الأكمل، ويعذر نفسه، ويستدل لها بأشياء باطلة؛ والإنسان لا يَعْذُرُ نفسه، إنَّما يعذره غيره، لأنه لا يطلع على عيب نفسه، وإنما يطلع على عيب غيره، ألا ترى كيف يستقذر نخامة غيره، ويتحاشى أن تصيب ثوبه، ولا يستقذر ذلك من نفسه! فكذلك العيوب لا يعلمها من نفسه، وإنما يعلم عيوبه غيرُه، فينبغي أن يجتنب كل ما رآه من عيب في غيره، وهو معنى حديث: «المؤمن مرآة أخيه»[1] في تأويل بعضهم».

قال الناقل رحمه الله تعالى: أقول: مِن طبع الإنسان أن لا يرى عيوبه، بسبب

---

(١) أخرجه أبو داود رقم (٤٩١٨) بلفظ: «المؤمن مرآة المؤمن»، وأخرجه البيهقي (٣: ٣٧٥)، وهو في مجمع الزوائد (٧: ٢٦٤)، وذكره الهندي في كنز العمال برقم (٧٦٨).

محبته لنفسه، فحبك الشيء يعمي ويصمي، يعني: يعمي عن رؤية العيوب ويصمي عن سماعها؛ بل ربما رآها محاسن ممن أحبه، ورأى محاسن من يبغضه مساوي. (شعراً):

وعينُ الرضا عن كل عيبٍ كليلـةٌ ولكنّ عينَ السُّخطِ تُبدي المَسَاوِيا

فلا يرى نفسه وكلَّ ما ينسب إليها إلا بعين الرضا والإجلال، فلذلك يرى عقله كاملاً وإن كان ناقصاً، ويرى سوء عمله حسنًا، ويرى ما يستقذر منه كالنخامة غير مستقذر، ويرى محاسنه ولا يرى عيوبه؛ بل ربما رأى عيبه مليحاً، وفاسده صحيحاً، كل ذلك من محبته لنفسه، حتى إنه ليرى عقله الناقص أكمل من عقل غيره الكامل بجهله بذلك المعنى، فقد يستحسن ـ بمقتضى عقله القاصر ـ ما يستقبحه غيره بمقتضى عقله الكامل، وفي الحديث إخبارٌ عن الطبع الجِبِلِّي العام: «يبصر أحدكم القذى في عين أخيه، ولا يرى الجِذْعَ في عينه»[1]، والقذى كناية عن العيب الصغير يراه ويدركه من غيره، والجذع كناية عن العيب الكبير يخفى عليه من نفسه ولا يدركه منها لعدم إنصافه، ولو أنصف لعكس فرأى كل ما منه سيئاً وتقصيراً، وما من غيره إذا لم يحرُمْ حسناً واحتياطاً؛ لكن إذا قام الهوى يضمحل الحق وبالعكس، وبقيام الهوى يظهر الردى، وباضمحلاله يظهر الهدى، وكان الأولى والأوجب والمطلوب اتباع الهدى والحق والإنصاف، سواءٌ كان لك ومنك أو عليك ومن غيرك، لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥].

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (٥٧٣١)، (والجذع): جذع النخلة ساقها وأصلها.

[أرحَمُ ما يكون الربُّ بعبده إذا وُضِع في قبره]

وذُكر له رَضيَ اللهُ عنه بعض الأموات، فقال: «أرحم ما يكون الرب بعبده، إذا وضع في قبره».

قال الناقل رحمه الله تعالى: أقول: في ذلك ترجية عظيمة في فضل الله سبحانه وتعالى، فإذا مات انقطع عمله، فانقطع لذلك أمله، مما يرجوه من صالح عمله الذي يرجو أن ينفعه في قبره، فإذا قابله إذ ذاك زيادةُ رحمةِ ربه، فذلك أفضل له وأنفع من عمله الذي يرجو نفعه، ويشهد لذلك حديث: «إذا مات العبد وقد علم الله منه شراً فشهد له اثنان من المسلمين أنه من أهل الخير عامله الله سبحانه بما شهدا له، وترك ما علم منه»[(١)]، أي: ترك مجازاته بالشر الذي علمه منه، وجازاه بما شهد به المسلمان من الخير لما ورد «أنتم شهداء الله في أرضه»[(٢)]، وورد: «ألسنة الخلق أقلام الحق»[(٣)]، وتحقيقاً لحكم الشرع بثبوت الحق بشهادة

---

(١) رواه أبو حنيفة في مسنده ص ٧٣ وله شواهد، انظر مجمع الزوائد (٣: ٤، ٥).

(٢) رواه البخاري (١٣٦٧) ومسلم (٩٤٩) والترمذي (١٠٥٨) والنسائي (٤: ٤٩، ٥٠) وابن ماجَهْ (١٤٩١) وأحمد (٣: ١٨٦ و٢٤٥) وابن حبان (٣٠٢٣).

(٣) قال السخاوي في المقاصد (١٥٢): لا أصل له، نعم، هو من كلام بعض الصوفية، ويمكن أن يكون معناه: الفأل الموكل بالمنطق: وقد مضى: في أخذنا فألك من فيك. وقال العجلوني في كشف الخفا رقم (٥٣٢): قال النجم: قلت: رواه الطبراني عن أشعث بن أبي الشعثاء عن أبيه قال: ذُكِرَ الدجال عند عبد الله بن مسعود، فقال: لا تكثروا ذكره، فإن الأمر إذا قضي في السماء كان أسرعَ من نزوله إلى الأرض أن تطير على ألسنة الناس.

العدلَيْن، وفي ذلك قصة، أن بعض العُصَاةِ لما حضره الموت دعا برجلَيْن ودفع لكل منهما ديناراً وقال: أريدكما تشهدان لي شهادة زور، فامتنعا، فقال: ما مرادي تشهدان لي عند قاضي أو حاكم، إنما أريدكما أني إذا مت وحُمِلَتْ جنازتي يقف أحدكما عن يمينها والآخر عن يسارها ويقول كل واحد منكما: كان من أهل الخير، رحمة الله عليه. فلما مات وحملت جنازته، وقفا عن يمينها وشمالها وقالا: كان من أهل الخير، رحمة الله عليه، فسمعوا في الهواء صوتَ قائل يقول: قبلنا الشهادة ولو كانت زوراً.

[الجمع بين الدين والدنيا]

وقال رَضيَ اللهُ عنه: «من أراد من الدنيا حاجته، وما لا بد له منها، لا يقطعه ذلك عن أمور دينه؛ بل أمور الدين تيسره وتزيده، فمن جعل الدنيا حذاءً منعته النجاسة والشوك والأذى ونفعته، وهو عزيز، ومن جعلها على رأسه، قذرته، ووضعت من قدره، وهو ذليل؛ بل لو جلس وهي في رجله ينبغي له أن ينزعها، فكيف إن جعلها على رأسه؟ وقد قال بعضهم: ماذا تريد بأمٍّ أُمُومتُها يُتْم، وفائدتها غُرْم؟»

[كثرة الذكر توسِّع الرزق]

وقال لبعضهم: «أوصيك بلا إله إلا الله كل وقت، وخصوصاً عند الهموم والشواغل وضيق المعيشة، فإنها توسع الرزق، ومن طبعها الرطوبة، حتى قد يحصل منها النوم».

[التعلق بعلم الظاهر من غير تطهير الباطن لا يفيد]

وقال لرجلٍ من المتعلقين بعلم الظاهر: «اِحْيَ في قلبك، ولا تمت في نفسك، فإن القلب له صفات كالزهد، والتواضع، والنفس لها صفات، كالرغبة ـ أي: في الدنيا ـ والرياء، وحب الجاه، فإذا اتصف القلب بصفات النفس، اندرج فيها، وإذا اتصفت النفس بصفات القلب اندرجت فيه، فاترك عنك الوسواس، فإنه في الظاهر مذموم، فكيف به في الباطن؟ ألا ترى من يوسوس في صلاته، نويتُ نويت، ماذا حصل له من ذلك؟ فوسواس الباطن أشد، والمتعلق بالفقه ـ أي: فقط ـ لا يفتح عليه بشيء، فطالع «في الأربعين الأصل»[1]، وخذ بما في كتب الإمام الغزالي، ولا تطلب التدقيق، فإن هذه الأشياء في هذا الزمان إلى الطي أقرب».

قال الناقل رحمه الله تعالى: قوله: «لا يفتح عليه بشيء»، يعني من أحوال الأولياء، لأن شرط ذلك أن يكون القلب متجرداً بالكلية عن جميع الدواعي، سواءٌ ما ذُكِرَ أو غيره، سيما دواعي النفس، فإذا أراد الله سبحانه أن يختص عبداً من عباده ويهب له شيئاً من ذلك، سلبه جميع ذلك وجرد قلبه له.

[الخلق مُكلَّفون لما خلقوا له]

وقال رَضِيَ اللهُ عنه: «الخلقُ مُكَلَّفُونَ على ما خلقوا له، فإنَّ الحق أراد بهم

---

(١) كتاب «الأربعين الأصل» للإمام الغزالي، وهو كتابٌ قيمٌ في معالجة كثير من أمراض القلوب.

وأراد منهم، فالسعيد من وافق ما أراد به الحق وأراد منه، والشقي من اختلفت به الأمور».

قال الناقل رحمه الله تعالى: قال لي: احفظ هذه الحكمة إن كنت حافظاً، ولعَمْري! إنَّ مقالته هذه لَـمِن أبدع الكلام، فإنها اشتملت على أحوال الفريقَيْن: الخواصِّ والعوام، وأحكام السعداء والأشقياء، ومجامع أمور الخلق في معاملاتهم لربهم، وفيما بينهم في العبادات والعادات، فمن المعلوم أن الله سبحانه جعل الإيمان والطاعة سبباً لرضاه، ومجازاته بالخير لمن سبقت إرادته تعالى له ذلك، وجعل الكفر والمعصية سبباً لغضبه، ومجازاته بالشر لمن سبقت إرادته سبحانه له ذلك، فإذا أراد سبحانه بعبد أيَّ الأمرَيْن أجرى عليه سببه، ثم أجرى عليه جزاءه، أعني بذلك الشرط وهو إرادته الجزاء، وإرادته قديمة سبقت بما سبقت به قبل وجود العامل وعمله وجزائه، فالعامِّي يرى ما ظهر من العمل وتعلق الجزاء به، والمحقِّق يرى ما بطن من سبق الإرادة وتعلق العمل والجزاء به، فإنَّ الباطن كالشاخص والظاهر كالظلال وهو تابع له، لولاه ما حصل ولا وُجِد.

[الناس مقهورون في عين اختيارهم]

وقد قال في بعض مكـاتباته: «والناس مقهورون في عين اختيارهم لـما يريده الله تعالى منهم، فريق في الجنة وفريق في السعير، والدليل على هذا قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ إلى أن قال سبحانه: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٦]، يعني لَمَّا أراد أن لا يجعل لهم حظاً في الآخرة، يعني جزاءً بالخير، وإنما أراد لهم في الآخرة الجزاء بالشر، فأوقعهم في الكفر والمعصية التي هي جزاء الشر، ومنعهم الإسلام والطاعة الذي

هو جزاء الخير، هذا في الشر، وأما في الخير فقال تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [التوبة: ١١٨]، يعني: أراد توبتهم فتابوا، فالإرادة قد سبقت الفعل، والجزاء في الخير والشر، وكذا قوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، أي: أرادهم لها قبل خلقهم ثم خلقهم لها، وجعل مصيرهم إليها، والآيات والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

فهذا إيمان العارفين بسر القدر، ويعلمون ذلك ذوقاً، والعوام يعلمونه إيماناً أنه إذا سبقت الإرادة حتماً بالخير فلا تردها معصية ولو وقعت، فلا بدّ ما تعقبها طاعة تمحوها كتوبة ولا يموت إلا على الخير، فلا تضره تلك المعصية كما لم تضر طليحة ردته عن الإسلام حتى مات على الشهادة شهيداً، فإذا سبقت إرادته تعالى حتماً لعبد بالشقاوة فلا تنفعه طاعة، ولا بد ما تعقبها معصية يختم له بها، فلا نفع إبليس عبادته ثمانين ألف سنة حتى أعقبتها معصية إبائه السجود لآدم فبقيت هي خاتمته، وأعني بقولي: «سبقت»، أي: سبقت السبب فتقدمته فلا يؤثر السبب في تبدلها كما مثلنا، فقد يُلْبِسُ أولياءَه ملابس أعدائه، وقد يلبس أعداءه ملابس أوليائه، ثم علم الخاتمة بعكس الأمر فيجري عليه سبب ما سبق له من إرادته به وله فيعمله، ويموت عليه، فإن كان الخير فهو السعادة وحسن الخاتمة، ودليله قوله ﷺ: «إذا أحب الله عبداً غسله» ـ وفي رواية: «عسله» بالمعجمة والمهملة ـ فقالوا: يا رسول الله، ما معنى ذلك؟ قال: «يوفقه لعمل صالح قبل الموت فيموت عليه»[1]. فهذا لمن أحبه، ومن أحبه أسعده، وما يسعد إلا من

---

(١) رواه ابن حبان (٣٤٢)، والحاكم (١: ٣٤٠)، وصححه، والبيهقي في الزهد (٨١٨)، وأحمد (٥: ٢٢٤)، والبزار (٢١٥٥)، وانظر مجمع الزوائد (٧: ٢١٤). «عَسَلَه» بفتح العين والسين المهملتَيْن: من العسل، وهو طيب الثناء، وقال بعضهم: هذا مثل، أي: وفقه الله لعمل صالح يتحفه به كما يتحف الرجل أخاه إذا أطعمه العسل.

يحب، ولا يُشقي إلا من يبغض، وهذا دال على سبق الإرادة للاثنين، وإن كان الآخر فهو الشقاوة وسوء الخاتمة، ولا بد من اتفاق الأمرَيْن: السابقة والخاتمة، ولا عبرة بما بينهما، ولا يحقق الدلالة عليهما؛ لكن الغالب أن عمل الخير يدل على حسن الأمرين معاً السابقة والخاتمة، وعكسه أقل دلالة، وهو من معاني: «سبقت رحمته تعالى غضبه»[1]، ومن معانيه: أن الأعمال الحسنة لا بدّ ما يجازى عليها، ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠]، ولا كذلك الأعمالُ السيئة، فالغالب فيها العفو، وقد يجري في هذا المعنى دلائل كثيرة، ويشهد له التمثيل بمن ذكر، لا بأن الولاية منه سبحانه والعداوة قد سبقت منه تعالى قبل وجود الولي والعدو وعملهما المقتضي للولاية والعداوة فافهم.

ثم إن الخاتمة مجهولة لا يعلم بها إلا الله تعالى، ولا تكون إلا وفق السابقة، ولا عبرةَ بالعمل بينهما إذا خالفهما، وهنا انقطعت ظهور الأكابر من خوف الخاتمة لأنها لا تتعلق بحسن عمل ولا بسيئه.

وفائدة هذا المعنى أن يعتدل الأمران في قلب المؤمن: خوفُه ورجاؤه دائماً، ويترجح الخوف فيه وقت صحته ونشاطه لئلا ينجر بالدعة إلى المخالفة، ويترجح الرجاء حال ضعفه ومرضه سيما عند موته ليلقى ربه وهو حسن الظن به طامعاً في فضله، فإنه سبحانه عند ظنّ عبده به، فإذا ثبت أن العمدة على الإرادة منه سبحانه، فلا تختص فضيلة أو مزية بفلان دون فلان أو أنَّ فلاناً أولى من فلان، فإنَّ هذا تشَهٍّ وتحكمٌ بالعقل، فافهم معنى الإرادة البالغة منه سبحانه.

ويكفيك في ذلك شاهداً كفر امرأتَيْ نوح ولوط وما نفَعَهما كونُهما نساءَ

---

(١) رواه الحميدي في المنتخب رقم (١١٢٦)، وابن أبي عاصم (١: ٢٧٠).

الأنبياء لما أراد الله شقاوتهما حتماً، وما ضرّ امرأة فرعون لمّا أراد الله سعادتها حتماً سابقاً، ومثل ذلك إيمان الأنصار على بعد دارهم ونسبهم، وكفر أكثر قريش على قرب دارهم ونسبهم، فسبقت إرادته تعالى أن يدخل الجنة عبد حبشي، ويدخل النار شيخ قرشي».

[أفعال العباد خيرُها وشرها فرعُ مشيئتهم، وهي فرع مشيئة الله]

واعلم أنّ أفعال العباد خيرَها وشرها فرع مشيئتهم وعنها نتجت، ومشيئتهم فرع مشيئة الله، وإنما نشأت عنها لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، ومشيئتهم وأفعالهم خلق لله، لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، فلما شاء لقوم جزاء الخير شاؤوا فعله ففعلوه، وهو سببهم وسيجزيهم بما أراد لهم من الخير، وشاء لقوم آخرين جزاء الشر فشاؤوا سببه وفعلوه، ليوقع بكل ما أراده لهم.

وإذا فهمت أن إرادته تعالى هي الأصل وأن الأسباب وجزاءها بحسبها وتابعة لها، وأن ذلك جارٍ في كل شيء من أسباب الدين وأسباب الدنيا كما عرَّفتُك، فعلِّق قلبك بالإرادة الإلهية منه تعالى، واعتمد عليها بقلبك، واجتهد في اتباع أسباب الخير، وترك أسباب الشر، وذلك هو الشريعة، واتباع الحكمة، التي هي الشريعة، هو دليل السعادة، وفيه الخير كله في الدنيا والآخرة، ومع ذلك كن معلِّقاً قلبك بربك وما أراده بك ولك، ومسلماً الأمر لولي الأمر، واتباع الحكمة والشريعة التي هي الأسباب، وامتثال الأوامر التي هي الأصل الذي يلزمك مع التعلق بالإرادة والقدرة، وهو الحقيقة، وهو روح وذلك جسم، ولابد منهما جميعاً، كل واحد في محله؛ الأعمال الجسمانية وهي الأفعال الشرعية على الجسم الظاهر لا

بدّ منها، والأمور الباطنة هي للروح من الإيمان المحقق والتعلق بالله لا بدّ منها في الباطن، إذ لا يستقيم روح إلا في جسم، ولا جسم إلا بروح، كذلك لا تستقيم شريعة إلا بحقيقة، ولا حقيقة إلا في شريعة.

[الحقائق لا بدّ أن تتبعها طرائق]

قال رَضيَ اللهُ عنه: «الحقائق إذا تبعتها طرائق سلَّمْنا لصاحبها، وإن لم تتبعها طرائق فهي أخت الزندقة».

ومراده بالطرائق هي الشريعة. وهذا المعنى هو مشهد الخواص دون العوام، وكل ذلك جارٍ في أسباب الدين والدنيا كما تقدم.

[لكل داءٍ دواء]

ومن أسباب الدنيا: التداوي لكل داء بما يخصه من الدواء، أعني: الذي جعله الله سبباً للشفاء، أي: عينه لذلك، ولو له غيره ألف دواء، فالذي خصصه الله سبحانه بحصول العافية من جملتها هو دواؤه، ولا يقدح ذلك في الباقي، فقد يريده الله للشفاء في وقت آخر أو على يد رجل آخر لقوله ﷺ: «تداوَوا عبادَ الله، فإن الله ما جعل من داء إلا جعل له دواء، عَلِمه مَن علِمه وجهِلَه مَن جهِله»[1]،

---

(١) رواه أحمد (٤: ٢٧٨)، والترمذي (٢٠٣٨)، وأبو داود (٣٨٥٥)، وابن ماجَهْ (٣٤٣٦)، وابن حبان (٣١٩٥) والنسائي والحاكم وغيرهم من حديث زياد بن علاقة عن أسامة بن شريك، وهو في صحيح البخاري عن عطاء عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أنزل الله من داء إلا أنزل له الشفاء».

أي: علمه أنه دواء لتلك العلة فاستعمله، ووافق الذي عينه الله لشفائها وإلا لم ينفعها، وإن كان من طبيعته شفاؤها ونافعاً فيها.

وبالنظر إلى ما ذكرنا من أن العبرة بالإرادة في كل شيء دون السبب أخَذَ بترك التداوي بعض السلف، إذ لا عبرة إلا بما أراده الله سبحانه لا غير، ولا عبرة بالأسباب ولا نظر إليها؛ لكن حكم الشرع العام لكل الخلق الأمر بالتداوي، نظراً إلى اتباع الحكمة وسنة الله التي قد خلت في عباده التي لا يسع أحوالَ الناس وعقولهم إلا هي، فيجب مراعاة الأسباب واتباع امتثال أمر الله بفعلها في ظاهره مع الاعتماد على إرادة الله واعتقاد توقّف حصول المقصود عليها في باطنه، فهذا هو المذهب الحق، فإنّ الظاهر هو أمر الله وحكمه بالإرادة الشرعية، والباطن هو أمره وحكمه بالإرادة الأزلية، ولا بدّ منهما في كل أمر، ويجب اتباعهما في كل ما وردَ وصدَر، وهو الكمال المحقَّق، وتجرد أحدهما عن الآخر تفسق وتزندق، فافهم.

وعلى طلب اتباع الأمرَيْن المذكورَيْن كل في محله وعلى وجهه في العبادات والعادات جاءت الشريعة المطهرة، فإنها ما جاءت إلا على ما هو الغالب العام من أحوال الناس كما تقرر، وعلى حسب إرادته تعالى يكون القضاء والقدر الحاكم على كل مخلوق بما أراده الله منه من خير أو شر، لتنفيذ حكمه، وليتم وعده للدارَيْن بما وعد كلًّا منهما به من مَلْئِها[1].

---

(١) يقصد المؤلف قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ سورة هود: الآية (١٩)، وسورة السجدة: الآية (١٣).

[تعريف القضاء والقدَر وأنواعه]

فالقضاء: هو حكم الله تعالى في سابق أزله بوجود كل ما أراد إيجاده من ذواتِ آدميين وغيرهم، وأفعال، وكل شيء يكون من خير أو شر، أو مليح أو قبيح، أو نفع أو ضر. والقدر: هو إرادته تعالى إيجادها في وقت معلوم وعلى صفة معلومة، عينهما سبحانه لكل موجود يوجد لا يكون إلا كذلك لا يتخلَّف شيء قط عما عينه له من وقته ووصفه فلا يتقدم على وقته ولا يتأخر عنه.

[أنواع القضاء والقدَر]

والقضاء والقدَر على نوعَين:

النوع الأول: المحتوم، ويقال له: المبرَم الذي لا يتغير ولا حيلة في دفعه، ولا يدخله محو ولا إثبات، ولا يؤثر فيه سبب يحيله عما أراده الله به. ومن هذا النوع: الأجل، والرزق، والسعادة والشقاوة، وغير ذلك، كالصلوات الخمس.

والنوع الثاني: المعلَّق، وهو: ما يدخله المحو والإثبات، وتفيد فيه الأسباب، كالتداوي، ومنه فرض الصلاة خمسين، فأثَّر في ذلك سؤالُ التخفيف وجعله الله سبباً لرفعها دون الخمس لأنها من المحتوم، فالرقى والتداوي ودرس الأوراد ونحو ذلك تفيد في المعلق دون المحتوم. وحاصل ذلك أنه سبقت إرادته تعالى لقوم أحبهم بالسعادة حتماً فسيئاتهم محمولة، وسبقت إرادته حتماً لقوم بالشقاوة فحسناتهم غير مقبولة، وذلك بمحض اختيار منه سبحانه بلا وسيلة سابقة ممن

أحب ولا جريمة سابقة ممن أبغض كما قال سيدنا في التائية، (شعراً):

فسَبْقُ سعاداتٍ وسَبْقُ شقاوةٍ بمحضِ اختيارٍ دون سعي وحِيلةِ

فالعبرة إذًا بما سبق للعبد من ربه لا بعمله لأنه تابع لذلك، والغالب أنّ السعادة يتبعها العمل الصالح، والشقاوة يتبعها العمل الطالح.

[شرط حصول مقام المقربين]

وقال رَضيَ اللهُ عنه: «ينبغي لأهل الزمان أن يجتهدوا أن يكونوا من أصحاب اليمين، بأن تغلب حسناتهم على سيئاتهم، فيكونوا إلى داخل، لا إلى خارج، ويَسْلَموا من الكبائر، ويعتقدوا في أنفسهم أنهم لم يقوموا بشيء، فمن أحكم ذلك صار من المقربين، وأهل الزمان يطلبون أن يكونوا صالحين مع جمع الدنيا، ولا يصح من هذا شيء».

قال الناقل رحمه الله تعالى: أقول: شرَطَ في هذه المقالة في حصول مقام المقربين في هذا الزمان المتعذر حصول ذلك فيه، إلا لمن أراد الله بلوغه فوفقه لاستعمال أسبابه، ومقتضياته ثلاثة شروط، وقوله هو القول الفصل في ذلك، ولا تلقى لأحد غيره في ذلك قولاً فصلاً قط.

أوّل تلك الشروط: تحصيل مقام أصحاب اليمين قبل ذلك، فإنه مسلم إليه، ولا يمكن بلوغ ذلك المقام قبل إحكام هذا كما قال، ولا يبلغ مقام المقربين قبل إحكام مقام العامة ولو عاش عمر نوح، ومن لم يحكم صلاته وزكاته كيف يبلغ مقام الخصوص! وذلك كما بيّنه ـ هنا وفي غيره ـ بأن تغلب حسناتهم ـ من الواجبات والمندوبات ـ على سيئاتهم من الصغائر، بدليل قوله:

والثاني: أن يَسْلَموا من الكبائر فلا يلُمُّوا منها بشيء جلَّ أو دق.

والثالث: أن يعتقدوا مع ذلك في أنفسهم أنهم لم يقوموا لله بحق، وأنهم مقصرون في أداء حقوق الله عليهم كما يجب له عليهم، لما يعلم من الحقوق اللازمة لله على عبده؛ بل لو قام الإنسان بكل حقوق الله عليه مثلاً واعتدّ بذلك ورأى في نفسه أنه قام بذلك: كان مقصراً ومعجباً، والمعجب عمله باطل، فكيف يعتد به ويلتفت بقلبه إليه! بل كل ما جرى في الخاطر فعليه الخطر، كما قال بعضهم: كل ما خطر من أعمالي في خاطري لا أعتد به. وقد اجتمع بعضهم بالخضر فقال: ادع لي، قال: وفقك الله لطاعته، قال: زدني، قال: وسترها عنك. وبعدها ما استزاده وقنع بها. ولو قصر ورأى أنه مقصر لا ينفعه ذلك؛ بل ذلك أشد لمقته وخذلانه عند الله تعالى كما قال سيدنا في «حِكَمِه»: «ليس الشأن رؤية التقصير في التقصير، إنما الشأن رؤية التقصير في التشمير»، أي: ليس الفخر والرجولية بالأول إنما ذلك بالآخر، ومن شمّر واجتهد ورأى أنه مقصر فهو من المقربين، وهذا عزيز اليوم إلا لمن أراده الله له فوفقه له وأعانه على أسبابه ومقتضياته.

[بيان مقام أصحاب اليمين]

وأما ما دون مقام المقربين فذكر مرةً في معناه: أنه من غلبت حسناتُه سيئاتِه فهو من أصحاب اليمين، ومن غلبت سيئاته حسناتِه فهو من أصحاب الشمال، ومن استوت حسناته وسيئاته فهو من أصحاب الأعراف يوقف فيها إلى حينٍ ثم يؤمر به إلى الجنة. ومراده بحسناته يعني: من الواجبات والمندوبات، وسيئاته، أي: الصغائر، بدليل نصه على الكبائر بالخصوص ـ بقوله: «ويَسْلَمون من الكبائر»

فإذا نص على علامتهم منها فما بقي سيئات إلا من الصغائر. ومراده (بداخل) القرب و(بخارج) البعد، يعني: إذا فعلوا ذلك كانوا قريبين من طريق الخاصة، فهو دهليز لذلك وسُلَّمٌ إليه، كما أن الذي دخل الدهليز فقد دخل أول الدار ويوشك أن يدخل إلى داخلها، ومن ارتقى السُّلَّم فيوشك أن يعلو السطح، فهما أقرب من الذي لم يدخل الدهليز ولم يرتقِ السلم، ومن لم يفعل ذلك فهو بَعْدُ في بُعْدِهِ لم يقرب إلى الدنو.

وذُكِرَ أنه محال اجتماع الصلاح مع محبة الدنيا وجمعها، وهذا في الحلال فكيف بالحرام؟! فيدل هذا على كذب مدعي الصلاح مع الرغبة في الحرام، فما يرغب فيه من له حظ عند الله تعالى، فكيف يدعي الصلاح مع ذلك؟! لكن يخيل له الشيطان وهوى النفس أن تحليل ذلك له خاصة دون سائر الأمة، وأحكام الله عامة للخاص والعام، ولا يرتقي رتبة الخصوص حتى يُحكِمَ رتبة العموم كما تقدم من قول سيدنا، فأنى لهذا المدعي صحة ما ادعى؟ فدل على كذبه، فإنّ الشرط الأكبر الذي لا بد منه في حصول مقام الخواص: عزوف النفس عن الدنيا وأموالها الحلال، وأما الحرام فلا يخطر لهم في البال، بحيث يستوي عنده وجودها وعدمها، ولو تَلِفَتْ من يده لا يتكدر خاطره من تلفها وذهابها، فإن صدق فيما بينه وبين الله، وذلك ما يكون إلا بإرادة الله، فعند ذلك يُمِدُّهُ سبحانه بالصلاح بصدقه، ثم بعد ذلك إن قُسِمَ له ثروة من المال فوق ما قُسِمَ له من الرزق كان ذلك في يده دون قلبه، ويكون ما مقصوده من تركه إلا ترصد ذوي الحاجات والضرورات، ولا يرى أن نفسه أحق بذلك منهم؛ بل يراها وهم فيه سواء؛ بل يؤْثر المضطر على نفسه، ويتبين ذلك عليه ظاهراً من أفعاله وأحواله لا دعوى بلا فعل.

فيا حبذا هذه الحالة إذا كملت وتـمَّت على هذا الوصف، فإن هذا شأن ووصف أفضل الخلق وأكملهم من الأنبياء والمرسلين والصحابة والتابعين وكُمَّل الأولياء والصالحين، وهو أيضاً وصف سيدنا. وأما من قلبه متعلق بمحبة الدنيا ومالها وجاهها فلا تعده شيئاً أصلاً، وإن ادعى شيئاً فدعواه باطلة يكذبها حاله ويتضح ذلك من أفعاله وأقواله.

[أحوال المتعلِّقين بالدنيا]

وقال رَضيَ اللهُ عنه: «من تأمل أحوال أهل الزمان، لم يرَ معهم آخرة ولا دنيا، لأن الآخرة إنما هي بالعمل الصالح وفعل الخير، وهم لا يفعلون ذلك، والدنيا التي بأيديهم إنما هي مجرد وساوس، وشغل في أبدانهم وقلوبهم، ويزدادون بسببها تلهفاً وشحاً، ومن كان معه شيء من أسباب الدنيا، كعقار وتجارة، وكان قلبه متعلقاً بذلك، فقد وقع في شبكة الشيطان، فهو متمكّن منه كما يطلب، فلا يهتم به كثيراً، وإنما يهتم كثيراً باقتناص المتجردين عنها، وطلبهم ليوسوس لهم، ويشغل بواطنهم وجوارحهم بالاهتمام بأمر الرزق والوسوسة فيه، لأن هذا هو مراد الشيطان، وقد حصل له في الأولين وطلبه من الآخرين».

[التصديق بالأمور الغيبية]

وقال رَضيَ اللهُ عنه: «الأمور الغيبية الاعتقادية، كسؤال الملكين، حظ القلب منه التصديق والتسليم، ولا يطلع عليه إلا بواسطة النبوة فقط، ولا يسأل عن كيفية ذلك، وكيف تكون صفته، فلا بلغنا عن أحد من الصحابة رَضيَ اللهُ عنهم أنه سأل عنه النبي ﷺ».

قال الناقل رحمه الله تعالى: أقول: مراده أن الصحابة رَضِيَ اللهُ عنهم سمعوا ذلك من النبي ﷺ فقبلوه منه وآمنوا به ونقلوه عنه وبلَّغُوه إلى من نقله عنهم لمن بعدهم، ولا يعلم حقيقة ذلك أحد غير النبي ﷺ، وكان يمكنهم أن يسألوه، وما يسأل عن مثل ذلك إلا المتعنت غير سليم القلب، فلمّا لم يسألوه عنه فيلزم غيرهم أن يقبلوا ذلك وأمثاله كما قبلوه، ويؤمنوا به مثلهم ولا يسألوا عنه ولا يبحثوا عن كيفيته، وقد ورد أنه تُرَدُّ إليه روحه، ويقعد جالساً سوياً، ويُسأل ويجيب، وأنه يسمع وقع نعالهم إذا رجعوا بعد دفنه[1]، وكل هذا واقع لا شك فيه، ويجب الإيمان به، ولكن لا يُعْلَم كيفية ذلك في هذا العالم، وإنما أخبر النبي ﷺ بذلك عما هو كذلك في عالم الغيب من عالم البرزخ وغيره.

والأقرب في تقريبه إلى الفهم أن يقال: عالم البرزخ عالم تجرّدت فيه الأرواح عن الأجسام، وبقي هناك. إنما الخطاب للروح روحاً مجرداً، والروح من أمر ربي لا يطلع الخلق على حقيقته، وأحوال الروح لا يُطَّلَعُ عليها في عالم الأجسام وهو العالم الدنيوي، ومن كان في ذلك العالم يعلم ما يقع به، والإخبار عنه على ما هو صورة الواقع فيه وإن لم يطلع عليه في هذا العالم بحيث لو بحثت عليه ساعةَ يُسْأل لا تراه إلا ميتاً كما وُضِع.

وكذلك إذا تجرد الروح في الدنيا عن مطالب الأجسام بمرة، وغلب عليه عمل الأرواح ككُمَّلِ الأولياء، فقد يطلع على أحوال الميت في قبره، ويسمع سؤاله وكلامه، كرؤية سيدنا عبد الله للشيخ عبد الله بن أبي بكر العيدروس نفع الله بهم،

---

(١) رواه البخاري (١٣٣٨)، (١٣٧٠)، ومسلم ٢٨٧٠ (٧١، ٧٢)، والنسائي (٤: ٩٧)، وأبو داود (٣٢٣١، ٤٧٥٢)، وأحمد (٣: ٢٣٣).

ومحادثته معه، وإعطائه الطريقة، وهو أكبر شيوخه من أهل البرزخ، وإعطائه الأمانة التي كان كثيراً ما يشير إليها ويقول: عندنا أمانة من الشيخ عبد الله بن أبي بكر لا يحملها إلا المهدي، وغير ذلك. ويفهم ذلك كل أهل البرزخ، ولا يفهمه أحد من أهل الدنيا إلا بعض الخواص، لأمر يريده الله في الوقت الذي يريده، والذي يسمع وقعَ النعال الروح، وهو الذي يُسأل؛ ولكن يُرَدُّ إلى الجسم، ويُقْعَدُ ويُسأل على صورة من هو في الدنيا ـ دار التكليف ـ، ولو أنه لا يطلع عليه في الدنيا، ويطلع عليه أهل البرزخ، معروفاً ذلك في حالهم التي هم عليها، يعرف بعضهم شأن بعض، حتى يسألون القادم عن الأحياء من أقاربهم جرياً معهم على صورة ما كانوا عليه في الدنيا التي جرى عليهم فيها التكليف حكمةً بالغة، وقد مثل الإمام الغزالي لمعرفة سؤال القبر مثالاً ليفهم العقل المعنى، وليس المثال كالمِثلِ، المثل: ما يشبه من كل الوجوه، والمثال: ما يشبه من بعض الوجوه فيقاس عليه الكل.

قال: لو كان في جنبك رجل نائم وهو يرى في رؤياه أنه يتقاتل مع آخر وبينهما نزاع كثير وأنت بجنبه لا ترى من ذلك شيئاً، فكذلك الميت في قبره، يسأل ويحاسب وأنت بجنبه لا تطلع من أمره على شيء، فيجب الإيمان به ولا يبحث.

وإذا مات الإنسان انقطعت علاقة جسمه عمَّا كان يعتاده في حياته من كلام وعمل وغير ذلك، وإن سمع منه كلام يقظة فهو كلام روحه مجرداً دون جسمه، وإنْ رآه بجسمه يتكلم فهو أن روحه تتصور بصورة جسمه، وتتكلم كذلك، كما رأى كثيرٌ من الصالحين كثيراً من الصالحين يقظة، وكذلك ثبت أن كثيراً من الصالحين رأوا النبي ﷺ في اليقظة بجسمه. ومنه رؤيته ﷺ للأنبياء بصورهم ليلة المعراج، وخطابه معهم، في اجتماعه معهم، فدل على أن تلك أرواحهم تصورت بصور أجسامهم.

والروح من عالم الملائكة يتصور بعد مفارقته للجسم لا قبله، لاشتغاله بتعلقه بالجسم، كما تصور جبريل للنبي ﷺ بصورة الرجل الشديد بياض الثياب، وأغلب ما يأتي على صورة دحية الكلبي، والملائكة خلقوا من نور، والجن خلقوا من نار، ويتصورون أيضاً، ويتمثلون بصور آدميين وحيوانات، فكذلك الأرواح.

وسمعت سيدنا يقول: ما دام الجسم موجوداً قبل أن يبلى فروحه تتعهده في بعض الأوقات، تكون عنده، فإذا بَلِيَ الجسم وفَنِيَ صارت الروح تتعهد موضعه وتأتيه في القبر في أوقاتٍ. كذا ورد في الحديث[1].

[الإعراض عن الخَلْق في هذا الزمان]

وقال رَضِيَ اللهُ عنه: «لا تُكلِّمْ من سكت عنك، ولا توقظ من غفل عنك، فربَّما ذلك يحركه بإيذائك، كما يحكى أن رجلاً مَرَّ على جماعة من اللصوص ناموا حتى طلعت عليهم الشمس وتبدد على وجوههم التراب، فرحمهم وقال: مساكين!

---

(١) قال أبو عمر بن عبد البر: أرواح الشهداء في الجنة وأرواح عامة المؤمنين على أفنية قبورهم. وقال في شرح حديث ابن عمر: «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي؛ إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، يقال له: هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة». في البخاري مع شرح القسطلّاني في باب بدء الخلق (٥: ١٥١)، ومسلم (٨: ١٦٠) وغيرهم.

قال: وقد استدل به من ذهب إلى أن الأرواح على أفنية القبور، وهو أصح ما ذُهب إليه في ذلك والله أعلم؛ لأن الأحاديث بذلك أحسن مجيئاً وأثبت نقلاً من غيرها. قال: والمعنى عندي أنها قد تكون على أفنية قبورها لا على أنها تلزم ولا تفارق أفنية القبور، كما قال مالك رحمه الله: إنه بلغنا أن الأرواح تسرح حيث شاءت، قال: وعن مجاهد أنه قال: الأرواح على أفنية القبور سبعة أيام من يوم دفن الميت لا تفارق ذلك. والله أعلم (الروح لابن القيم ١: ٣٧٧، ٣٧٨).

راح بهم النوم، فمسح التراب عن وجوههم، وأيقظهم، فعَدَوْا عليه، وأخذوا ثيابه، ثم أنشد حينئذ هذا البيت:

يا موقداً ناراً لغـيرِك ضَـوْؤها يا حاطباً في غيرِ حبلِكَ تَحْطُبُ

قال الناقل رحمه الله تعالى: يشير بذلك إلى أن الصواب عدم التعرض لأحد من أهل هذا الزمان بنصيحة، أو أمر، أو نهي، ولا بوجه من الوجوه إلا إن لزمك شرعاً، فإنهم ليسوا محلًّا لِشَوْرٍ بخير ولا نصيحة في مستحسن، كما قال: لا يصلحون للاستعانة على فعل خير ولا على ترك شر، فإنك ربما نصحت الرجل منهم، وأريته الحق والصواب، وأشفقت عليه من الوقوع في المحذور، فظن بك ظن السوء، وعاد لك عدواً وخصماً وأبغضك، وربما استفاد منك علماً، وصار لك عدواً، وقد جربنا ذلك، ووقع لنا من ناس سادة وأخيار، فما بالك بغيرهم؟ وهذا مثل مشهور شائع في جهة حضرموت في هذا المعنى، يقولون: لا تكن كمُنَبِّهِ اللصَّان.

وقد سمعت سيِّدنا يقول: إنَّ هذا الزمان هو المراد في الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾[المائدة: ١٠٥]، وهو ظاهرٌ من قول سيِّدنا أبي بكر في خطبته: يا أيها الناس، إنكم تحتجون بهذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ ﴾ فلا تأمرون بالمعروف ولا تنهون عن المنكر، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لتأمرن بالمعروف ولتنهَوُنَّ عن المنكر، أو ليوشِكَنَّ الله أن يأخذكم بعقابه»[1].

---

(١) رواه الترمذي في الفتن (٢١٦٨)، وفي التفسير (٣٠٥٧ و٣٠٥٨)، وأحمد (١: ٢)، وأبو داود في الملاحم (٤٣٣٨)، وابن ماجَهْ في الفتن (٤٠٠٥)، والنسائي في «الكبرى» في التفسير، وابن حبان في صحيحه (٣٠٤ و٣٠٥).

وقال سيِّدنا: قوله تعالى: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾، ومن الهداية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلى أن قال في آخر الحديث: «فإذا رأيتم هوى متبعاً وشحاً مطاعاً[٢]، فحينئذٍ فعلى الإنسان «بِخُوَيِّصَةِ نفسه»[٣]، وكل ذلك ظاهر في هذا الوقت، والبيت المذكور يشير إلى هذا المعنى، فقوله: (يا موقداً ناراً) أي: يا باذلاً علمه، وسَمَّاهُ ناراً؛ لأنه لَمَّا بذله لمن لا يعمل به فصار عليه ناراً، فلو عمل به لصار له نوراً، وقوله: (لغيرك ضوؤها) سماه هنا ضوءاً، يعني صار لمن قصده وسمعه ولم يعمل به ناراً، وصار لغيرك الذي سمعه ولم يقصده وعمل به ضوءاً ونوراً، فهذا خطاب للسامع، وأما المتكلم بالعلم فآخر البيت خطاب له من قوله: (يا حاطباً) أي: باذلاً للعلم، مجتهداً في الإصلاح وطلب الثواب من الله (في غير حبلك تحطب) أي: انتفع بعلمك من لم تقصده به، وخاب من قصدته به لتعلم وتوقن أنه ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧].

[مقام الجمع بين الشريعة والحقيقة]

وقال رَضِيَ اللهُ عنه: «صاحبُ الحقيقة مستغرِق فيها، وجميع عمله ومشهوده فيها، وأكمل منه الجامع يضع الحقيقة موضعها باعتبارٍ، ويضع الشريعة موضعها باعتبارٍ آخر».

---

(٢) شحّاً مطاعاً: أي بخلاً مطاعاً، بأن أطاعته نفسك وطاوعه غيرك، وهو أشد البخل.

(٣) رواه الترمذي (٣٠٥٨) في التفسير، وأبو داود في الملاحم باب الأمر والنهي، وابن ماجَهْ في الفتن باب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾.

قال الناقل رحمه الله تعالى: يعني أن صاحب الحقيقة متعلق قلبه بالله ولا التفات له إلى ما سواه، لا يرى نافعاً ولا ضاراً إلا الله، ولغلبة هذا الحال عليه لا يحزنه ما يحزن الناس عادة، ولا يفرحه ما يفرح الناس، وهذا حال صاحب مقام الفناء. وأكملُ منه صاحب مقام البقاء المشار إليه بقوله: الجامع... إلخ، أي: الجامع بين الشريعة والحقيقة، فالشريعة في ظاهره والحقيقة في باطنه لا يُخِلُّ بشيء من أحدهما في محله، فلا يعمل بالحقيقة في ظاهره، وهو معنى قول سيدنا المتقدم: «الحقائق إذا تبعتها طرائق سلَّمنا لصاحبها، وإذا لم تتبعها طرائق فإنما هي أخت الزندقة».

[مذهب القدَرية والجَبْرية بِدعة]

وقال رَضيَ اللهُ عنه: «الاعتماد على المقادير بدعة، والاعتماد على الأسباب بدعة، بل لابد منهما».

قال الناقل رحمه الله تعالى: أقول: الاعتماد على أحدهما دون الآخر بدعة، فمن اعتمد على المقادير دون الأسباب بأنْ تـرَكَ الأسبابَ: فهو جَبْري، تارك لأمر الله، ومبطل لحكمة الله في خلقه، أو اعتمد على الأسباب: بأن لا يرى نفعاً إلا من جهتها، وغفل عن تدبير الله وتصرفه في خلقه، بأن وفق أقواماً لطاعته، وخذل آخرين لمعصيته، فهو قَـدَري مبتدع، وسمى النبي ﷺ: «القدَرية مجوسَ هذه الأمة»[1].

---

(١) رواه أبو داود (٤٦٩١) عن أبي حازم عن ابن عمر، ولفظه: «القدرية مجوس هذه الأمة: إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم»، ورواه الحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخَيْن إن صح سماع أبي حازم عن ابن عمر ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي (١: ٨٥).

والصواب والحق أن يجمع بينهما، فيعتني بفعل الأسباب ولا يعتمد عليها؛ بل يعتمد بقلبه على المقادير، فالأسباب تجري على ظاهره، والمقادير يتعلق بها بقلبه، فإن الله سبحانه قد تعبد خلقه بالأعمال على ظواهرهم، وبالاعتقاد الحق، والاعتماد على المقادير في قلوبهم في كل أمر، فما لنا من نَفَسٍ نُـمْضِيهِ إلا وله سبحانه فيه قَدَرٌ يُبْدِيهِ لا يبتديه، فيجمع بين فعل الأسباب بظاهره، والاعتماد على المقادير بباطنه، والجامع بينهما هو السُّنِّيُّ الذي على الحق.

والمذهبان: مذهب القدَرية ومذهب الجبرية، باطلان، وهما من مذاهب البدع القبيحة، فثبت أنَّ الصواب فعل الأسباب الظاهرة، ومحلها ظاهر البدن، وهو الشريعة التي شرعها الله لعباده، وحكمة الله في خلقه، ويعتمد بقلبه على إرادة الله وقدرته كما تقدم تقريره، وهو الحقيقة. والجمع بينهما واجب كُلٌّ في محله المتقدم ذكره، وعلى وجهه، أعني: على صوابه الشرعي، هذا هو المذهب الحق مذهب أهل السنة والجماعة.

فالناس في الأسباب على ثلاثة مذاهب كما ترى، مذهب حق وهو مذهب أهل السنة، ومذهبان باطلان: مذهب القدرية، وهو: الاعتماد على الأسباب مع نسيان المسبب، ومذهب الجبرية: وهو الاعتماد على المقادير مع ترك الأسباب، فيُبْطِلُون شرع الله وحكمته في خلقه فيما شرع لهم من العبادات، والأحكام، وامتثال الأوامر، واجتناب النواهي، فيقولون: العبادات لا تنفع، والمعاصي لا تضر، ويحتجون لأنفسهم بالمقادير، كما حكى الله عن قول الكفار: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وما نفعهم احتجاجهم حتى صار حجةً عليهم، فرد الله عليهم بقوله: ﴿هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، فتحتجون بما

يخالف عملكم، فما لكم به حجة؛ بل حجتكم داحضة، فكل حجة بما يخالف العمل حجة على صاحبها، لا حجة له.

وقد ذكر العلماء أنّ مَن فعل حراماً أو ترك واجباً فقيل له في ذلك، فقال: هذا مقدر علي، أنَّ قوله ذلك معصية أشد من الأولى؛ لأنه احتج بذلك على ربه، فلن يفلح فاعل ذلك، وقد جاء في الحديث أن الله سبحانه قال لإبليس: «لِـمَ عصيتَني إذ أمرتك بالسجود؟ فقال: يا رب، أنتَ قَدَّرت عليَّ المعصية. قال سبحانه: متى علمت أني قدّرتها عليك قبل فعلها أو بعد فعلها؟ قال: بعد فعلها، قال الله سبحانه: بهذا آخذتك». كذا سمعت سيدنا غير مرة يذكر ذلك، أي: حيث احتجيت بالقضاء والقدر، وهو علم غيب من غيوب علم الله، وما كلف الله خلقه بالعمل بعلوم الغيب، إنما كلفهم بالعمل بعلوم الشريعة، وعلم الغيب إلى الله، فيجب أن يؤمن به، ولا يحتج به، ويصير محتجاً لنفسه على ربه، وهو من أكبر الذنوب.

ولذلك كانت مسألة القضاء والقدر صعبةً، حتى أني سمعت سيدنا عبد الله يقول: إنها لا تعرف في الدنيا، ولا يتضح معناها إلا يوم القيامة.

ومثال الأسباب كالسحاب سبب للمطر، وكذلك المرض سبب للموت، إذا أراد الله ذلك، وقِسْ عليه ما في معناه من أسباب الدنيا.

وأما أسباب الدين والآخرة فمثاله: أنَّ الله سبحانه جعل الإيمان والطاعة سبباً لرضاه ودخول جنته، وجعل الكفر والمعصية سبباً لغضبه ودخول ناره، فإن كان قد حكم وقضى حين أمر القلم أن يكتب في اللوح المحفوظ، فكتب أنَّ هذا الإنسان من السعداء، وأنه يرضى بطاعته، ويدخله جنته، كان كذلك ولا بد، وفي الآخرة أنه قضى وحكم عليه بغضبه، وبالشقاوة، ودخول النار، كان ذلك

أيضاً، وإن قضى على كليهما بكلا الأمرين من دخول الجنة مع المعصية، ودخول النار: مع الطاعة، محيت عن الآخر إساءته بتوبة، أو عفو، أو عقوبة بقدرها، كالحد فإنه تمحيص عن الذنوب، أو الاثنين بدخول النار: أبطلت حسنات الآخر بسبب يريده الله من أسباب ذلك، كما أبطلت عبادة إبليس ثمانين ألف سنة بمعصية واحدة وهي امتناعه من السجود لآدم لَّما أمر الله الملائكة وهو معهم، وقس على ذلك جميع الأسباب الدينية والدنيوية.

فينبغي الاعتناء بالأسباب التي جعلها الله تعالى سلماً للخير وموصلةً إليه، ويقدم أسباب خير الآخرة من الإيمان، وتقويته، وأعمال الطاعة المقربة إلى الله، ويرجو مع ذلك إن سبقت إرادة الله تعالى له بالسعادة، فيختم له بالحسنى، ويبلغه منازل الصالحين، ويترك أسباب شرها من الكفر، والشرك الأكبر والأصغر، والمعاصي المبعدة عن الله والمخشي بسببها عذاب الله، ويخاف مع ذلك إن سبقت إرادة الله له بالشقاوة كما تقتضيه الأعمال السيئة التي هي أسباب الشر، وهذا هو الذي يلزم في حق العبد، وهو موضع الاختيار الذي هو محل التكليف، ولا عليه مما وراء ذلك. وإذا خالفه القضاء والقدر فلا ملامَ عليه، ولا جريمة منه، ولا وسيلة له في الأمرين، فإن القضاء والقدر قد جرى عليه قبل وجوده وقبل وقوع التكليف عليه.

[مداراة الناس في هذا الزمان]

وقال رَضيَ اللهُ عنه: «إنَّا نتحفظ جهدنا من أهل الزمان، لأنَّا غرباء معهم، ونحن معهم مثل الذي قيل له: أتشهد بكذا وكذا؟ قال: نعم، ثم قيل له: أتشهد بكذا وكذا؟ قال: ما أسمع».

قال الناقل رحمه الله تعالى: معناه أنه يعرف حقاً وباطلاً، فأقر بما يعرف من الحق، وتوقف عن الإقرار بما يعرف من الباطل خوفاً من انشقاق العصا، أو خوفاً على نفسه من جبارٍ عنيد، ولعله أشار بذلك تمثيلاً بقصة أبي مسلم الخولاني لـمّا قبضه العنسي المدعي النبوة الكذاب، بصنعاء، فقال له: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم، قال: أتشهد أني رسول الله؟ قال: ما أسمع. وهذه الكلمة وَرَّى بها ظاهراً عن عدم سماع الأذنَيْن، وباطناً عن الإذعان، أي: لا أذعن لما قلتَ من دعواك النبوة، وقالها له بلسانه، وذلك أسلم له من شره من التصريح بما هو في قلبه من تكذيبه، والإنكار عليه، مع كونها مؤدية لمعنى ما في قلبه له من الإنكار والإباء، ولو صرح له بما أراده منه لكان معذوراً بقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦].

وهذا على مقتضى الحكم الشرعي العامِّ المخاطبِ به كلُّ أحد، وهو مقام العامة أصحاب اليمين؛ ولكنه غلب عليه حال أهل مقام الخاصة من المقربين، وفيه خطر الشهادة، أو الكرامة وخرق العادة، فحصلت له الأخرى حيث صرح له بعد بما في قلبه فأجج له ناراً عظيمة، وألقاه فيها فنجاه الله منها، ولم تضره، وكان في وقت النبي ﷺ، فعوقه الخبيث عن الاجتماع به، فلما أهلك الله الكذاب مضى إلى المدينة في خلافة أبي بكر رَضيَ اللهُ عنه، فالتقاه عمر رَضيَ اللهُ عنه، فقال له: من أنت؟ قال: أنا عبد الله بن توب، فقال له: أنت أخونا الذي ألقاه الكذاب في النار فلم تضره، قال: نعم، فقبَّل عمر بين عينيه، وقبض بيده، وأدخله على أبي بكر، وقال له: هذا أخونا الذي ألقاه العنسي في النار، ولم تضره، فقال له سيدنا أبو بكر رَضيَ اللهُ عنه وأكرمه وأعظمه: الحمد لله الذي لم يمتني حتى أراني في هذه الأمة من أشبه إبراهيم الخليل حيث ألقي في النار ولم تضره، وأكرمه وعظمه.

ومعنى ما أراد سيدنا: يعني أنَّا نرى في زماننا هذا أشياء من الحق، فنحن نقر بها ونشهد بها لو استُشْهِدْنا، كما شهد أبو مسلم برسالة رسول الله ﷺ، ونرى فيه أشياء من الباطل، ننكرها في القلب بيننا وبين الله، ولو استُشهدنا عليها سكتنا مع إنكارنا لها، خوفاً من انشقاق العصا بيننا وبينهم، ولو أنَّ عمل الناس على اتباعها، والعمل بها، وهي خلاف الحق والصواب، ولا يرون بذلك بأساً لتداول العصور والأعمال عليها، ويرونها صواباً وحقاً، ولو أنكرها عليهم أحد انقلبوا عليه باللوم والإنكار والإيذاء، ورأوا أنه هو المخطئ، وأنه مخالف للحق والصواب، لمخالفته ما اعتادوه، وما خالف العادة مستنكر في العادة.

[حكم بيع العُهْدة]

ومن جملة هذه الأمور التي ينكرها بقلبه بينه وبين الله وعمل الناس عليها ويرون أنها صواباً: «بيع العهدة»، وتسمى «الصبرة»، ولها أسماء كثيرة، وهو مما أدخله علماء السوء في شرع الله واشتهر أمره وليس من دين الله، وما حدث إلا بعد الأئمة الأربعة، وكل من نسب جوازه إلى أحد منهم فإنه كذَبَ عليه، وهو خصمه عند الله إذا وقفوا بين يدي الله، فإنهم ما سمعوه، ولا أحد منهم أفتىٰ فيه بشيء؛ بل هو مما أدخله في الدين المقلِّدون الذين يطلبون الدنيا بالدين، وكذبوا بها على الأئمة، فقالوا: تجوز في مذهب أبي حنيفة، وقد باحثنا فيه علماء من الحنفية وقلنا لهم: أرونا ذلك من كلام أبي حنيفة، فما وجدوا من كلامه ما يدل على جوازها.

وقد سمعته يقول: إن الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بافضل، صاحب

«مختصر بافضل»، سُئل عن بيع العهدة، قال: هي مسألة مظلمة أرجو أن الله يقيض لها من يزيلها. وقد أشار رسول الله ﷺ إلى المقامَيْن: مقام الخصوص الذين أحدهم يصدع بالحق عند من يخاف شره، ولا يبالي إن حصلت له الشهادة بالقتل أو الكرامة كأبي مسلم، ومقام العموم الذين يُوَرُّون أو يقولون ما طُلب منهم عند الخوف وهم معذورون في ذلك، فقال في مقام الخصوص: «اعبدِ اللهَ على الرضا»، وقال في مقام العموم: «فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خيرٌ كثير».

[الجمعُ بينَ حديث «لا عدوىٰ» وحديث «فِرَّ من المجذوم»]

وقال النبي ﷺ لأهل الخصوص الذين لا يرون فاعلاً أمراً من خير أو شر قط إلا الله: «لا عدوى» كما يظن ضعفاء الإيمان، «ولا طيرة»[1]، كما يفعل السفهاء من التطير عند سماع كلمة ردية، ويرجع بسببها عن المسير لمقصده، فإنّ هذا أمر جاهلي، وفاعله جاهل ضعيف العقل. وقال لأهل مقام العموم الذين تجنح قلوبهم إلى العدوى، وتضطرب من ذلك: «فِرَّ من المجذوم فِرارَكَ من الأسد»[2].

وأمَّا من سكن قلبه، واطمأن خاطره، وتيقن أنه لا يصيبه إلا ما أراده الله له من خير أو شر، وأنه لا مدخل لمخلوق في ذلك من جليل، أو حقير، أو مُشَعْوذ ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢]، فحينئذ يطمئنُّ قلبه، ولا يضطرب، ويتحقق أنه لا يرد ذلك عنه فوت سبب، ولا يجره إليه

---

(١) رواه البخاري (٥٧٧٢، ٥٧٥٣، ٥٧٥٧، ٥٧٧٦، ٥٧٥٦)، ومسلم (١٧٤٧، ١٧٤٣، ١٧٤٤، ١٧٤٦)، وغيرهما.

(٢) رواه البخاري (٧: ١٦٤)، وأحمد (٢: ٤٤٣)، والبيهقي (٧: ١٣٥، ٢١٨).

حصول سبب، فإن غُلِبَ في هذه الحالة، وأُخِذَ عن شعوره، فهو معذور في كل أموره، وإن بقي معه اختيار، وجب عليه اختيار الأحسن شرعاً وعرفاً، واجتناب الأسوأ فيهما، وذلك مراد الله منه بإبقاء الشعور والاختيار معه، ولولا أنه مراده منه لسلبه الشعور عنه فصار مراد الله منه ما حصل منه، أعني الإرادة الشرعية بموافقة الإرادة الأزلية، وهو معنى قول سيدنا الذي قدمناه.

فالسعيد من وافق ما أراد به الحق ـ وهو: الإرادة الأزلية ـ وأراد منه، وهو: الإرادة الشرعية، يعني: وافق الإرادتين في الخير، والكلام في مقام الخصوص. وأما من فعل الأسوأ مع الاختيار فهو من علامة الخذلان، وهو معنى قوله: «والشقي من اختلفت به الأمور»، يعني: اختلف اتّباعه، فاتبع الإرادة الأزلية لكونه من أهل الشقاوة، ولم يتبع الإرادة الشرعية التي فيها إقامة حقوق الله من امتثال أوامره، واجتناب نواهيه، لكونه من أهل الخذلان شقاوةً وحرماناً، وهذا الكلام في مقام العموم، فما فعل الأسوأ مع الاختيار إلا لما أراد الله له من جزاء ذلك العمل.

[خذ من الطاعات ما يَقِيكَ النارَ]

وقال رَضيَ اللهُ عنه: «خذ من الطاعات ما يقيك النار، ومنها ما يطرق لك إلى الجنة، والورَع مما يقيك النار، فاستكثر منه ما استطعت، واستقلل الكثير منه، ولا تستكثر القليل، والورع هو: التقوى».

قال الناقل رحمه الله تعالى: معنى التقوى: التوقي من كل ما يضرك من ترك واجب، أو ارتكاب حرام، أو ما ينقصك ويحط قدرك من ترك ما يستحب، أو فعل ما يكره.

[صفة الجنة]

ثم ذكر الجنة فقال: هي في اعتدالها، ونورها، وصفائها، كما بعدَ صلاة الصبح إلى طلوع الشمس في وقت شدة الصيف إذا هبت الرياح اللطيفة الباردة التي تسمى العليا[1]، وهذا الوقت خلي من الظلمة، ومن الحر، والبرد، ويوضح نور الشمس والقمر فيه، ويلقيان في النَّار لأنهما عُبِدَا من دون الله، وفيها من النور ما لا يبلغه الوصف، حتى أنَّ نُور الرجل الواحد لو برز في الدنيا لغطى نوره نور الشمس.

وأهلُ الجنة لا ينامون بسبب النعيم الذي هم فيه، وأهل النار لا ينامون بسبب العذاب الذي هم فيه، فانظر كيف اشتركوا في عدم النوم، واختلفوا في المادة!

قال الناقل رحمه الله تعالى: إلى مدة الصيف المذكورة بعد صلاة الصبح إلى الطلوع، في هذا الوقت غاية اعتدال الهوى والمزاج، وفيه غاية الروح، والراحة من شدة الحر، والبرد، وطيب الخاطر، ولذلك شبه به أوقات الجنة. ولو لم يكن في الجنة من النعيم إلا كونها على هذا الحال دائماً: سالمة من الحر والقر، وفي غاية الاعتدال دواماً، لكان كافياً من نعيمها، كيف وفيها من النعيم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر! ويعني بالمادة: السبب الداعي لأهل الدارَيْن إلى عدم النوم من النعيم والعذاب.

---

(١) وتسمي العرب هذه الريح النَّعَامة؛ لأنها أول ما تهب في نجم النعايم.

[الناس مع الله في مقام الشكر]

وقال رَضِيَ اللهُ عنه: إنَّ الناس كلهم مع الله في مقام الشكر، ويظنون أنهم في مقام الصبر، فإنَّ لله في كل عرق نعمتَيْن، ومن العروق المتحركة لا يسكن، والساكنة لا يتحرك، فلو تحرك السَّاكن أو سكن المتحرك لتألم لذلك، ففي كل عرق نعمة وجوده، ونعمة سكون السَّاكن وحركة المتحرك، وفي كل شعرة نعمتان، إذ أسفلها مجوف، وآخرها مصمت، فلو انعكس ذلك لتألم الشخص، فلله الحمد.

وعن بعضهم: أنه كان عشاؤه قرصاً يابساً، يصب عليه من الماء البارد، ويفته به ويأكله ويحمد الله، ويقول:

خُبزٌ وماءٌ وظِلٌّ ... هذا النَّعيمُ الأجلُّ
جَحَدْتُ نِعمةَ رَبِّي ... إنْ قُلْتُ: إنِّي مُقِلُّ

قال الناقل رحمه الله تعالى: أقول: يُقال: في كل إنسان من العروق أو المفاصل بعدد أيام السنة، فإذا أصابته الحمى عمتها كلها، فكل واحد يُكفِّرُ يوماً، فلذلك ورد: «حمى يوم كفارة سنة»[1]. وقيل: لأنها في يوم واحد تهدم قوة سنة، وفي

(١) قال العراقي: رواه القضاعي في مسند الشهاب من حديث ابن مسعود بسند ضعيف، وقال: ليلة، بدل يوم. انتهى. ورواه من طريق الحسن بن صالح، عن الحسن بن عمرو، عن إبراهيم النخعي، عن الأسود، عن ابن مسعود رفعه، ولفظه: «الحمَّى حظُّ كُلِّ مؤمن من النَّار، وحمى ليلة تكفر خطايا سنة مُجَرَّمَة»، رواه القضاعي في مسند الشهاب (٦٢). قال الزبيدي: وكذلك =

أسفل كل شعرة تحت طرفها المجوف ثقب يخرج منه العرق، وفي أيام الحر إذا شرب الإنسان ففي لحظة يخرج العرق منها، وهذا من عجائب القدرة. وذكروا: أن في الرأس والدماغ وباءً يحصل منه أمراض الرأس، وفي سائر البدن وباءٌ يحصل منه أمراض البدن، وأن وباءَ البدن يخرج مع العرق، ووباء الرأس والدماغ يخرج مع المخاط.

[أقسام العلاج]

قال بقراط: المعالجة خمسة أضرب: يعالج ما في الرأس بالغرغرة، وما في المعدة بالقيء، وما في أسفل الجوف بالإسهال، وما بين الجلدين بالعرق، وما في داخل العروق بالدم، أي: بإخراجه. فاعجب لسرعة ما انبذَّ من الماء لمَّا وقع في

= رواه الديلمي في مسند الفردوس، وأعله ابن طاهر بالحسن بن صالح وقال: تركه يحيى القطان وابن مهدي. وله شاهد عن أبي الدرداء موقوفاً بلفظ: «حمى ليلة كفارة سنة». رواه ابن أبي الدنيا في المرضى والكفارات، له، من طريق عبد الملك بن عمير عنه به، وأما لفظ المصنف: فرواه تمام في فوائده من طريق أبي هاشم الرماني، عن سعيد بن جبير، عن أبي هريرة رفعه: «حمى يوم كفارة سنة»، ولكن بزيادة «وحمى يومين كفارة سنتين، وحمى ثلاثة أيام كفارة ثلاث سنين». وروى ابن أبي الدنيا من طريق حوشب عن الحسن مرسلاً مرفوعاً: «إنّ الله ليكفر عن المؤمن خطاياه كلها بحمى ليلة»، وقال ابن المبارك عقب روايته له: إنه من جيد الحديث. ومن طريق هشام عن الحسن، قال: كانوا يرجون في حمى ليلة كفارة لما مضى من الذنوب، وشواهده كثيرة يؤكد بعضها بعضاً. «وسنة مجرَّمَة» كمعظَّمة، أي: تامة، كذا فسّره الديلمي. وقال صاحب القوت: ومن الفضائل أن الأمراض مكفرة للسيئات، فإذا كره الأمراض بقيت ذنوبه عليه موفرة، ثم ساق الخبر المذكور. انتهى. قال في تأويله صاحب الإحياء: «فقيل: لأنها تهد قوَّة سنة». قال صاحب القوت: هذا أحسن ما سمعت في تأويله. انتهى.

المعدة إلى كل شعرة بقسط يخرج به الوباء غير ما بقي لنفع البدن مما يذهب العطش، ويرطب العروق والمفاصل.

[كثرةُ الروايات عن النبي ﷺ سببٌ لاتساع العلم واختلاف الأقوال]

وقال رَضيَ اللهُ عنه: «إن الصحابة رَضيَ اللهُ عنهم حَدَّثَ كلٌّ منهم على حسب علمه وما بلغه عن النبي ﷺ، ولهذا كثرت الروايات عنه ﷺ: عن الصحابة المأمونين، وعن التابعين المقتدين، فاتسع العلم، واختلفت الأقوال، ومن لم يَسِرْ على الجادة والتقوى لم يكن له إمام إلا منافق أو فاسق، لأن الطريق قد تخفى وقد تظهر».

قال الناقل رحمه الله تعالى: قوله: «حدَّثَ كلٌّ بحسب علمه، وما بلغه»، فإذا كانوا مئة ألف وأربعةً وعشرين ألفاً، وكل واحد حدّثَ بحديث واحد سمعه، لَكثُرَتِ الروايات، واتسع العلم، فكيف وكل واحد حدّث بأحاديث كثيرة؟ قالوا: والأحاديث المنقولة عن النبي ﷺ ألفا ألف وأربعمئة ألف وثلاثة وثمانون ألفاً ـ مع اختلاف فيها ـ من يوم قيل له: «اقرأ» إلى أن قال: «الرفيق الأعلى»، وبينهما ثلاث وعشرون سنة، وهي مدة كلامه لتلك الأحاديث.

وقوله: «واختلفت الأقوال»، يعني: فمن أراد الاحتياط وجد في العلم ما يناسبه، ومن ضعف عن العزيمة احتمله العلم.

وقوله: «المأمونين»، هذا وصف لازم للصحابة رَضيَ اللهُ عنهم لا مفهومَ له من لفظه؛ بل كلهم مأمونون، وما خصهم الله بصحبة نبيه إلا لعلمه بأمانتهم،

وصحة ديانتهم رَضيَ اللهُ عنهم ونفعنا بهم، فإن الله سبحانه حافظ لدينه لا يولِّي عليه خائناً قط، فهم يتحفظون في سماعه من النبي ﷺ، فيحفظونه منه بلفظه ومعناه، وعلى الوجه الذي أراد، ومعناه الذي قصد. يحفِّظُهُم الله إياه بواسطة نور النبوة صيانةً لدينه عن التغيير، وحفظاً له عن التبديل، فإنهم واسطة بين رسول الله ﷺ وبين أمته، كما أنه ﷺ واسطة بين الله وبين خليقته، فلا يظن أحد، ولا يفهم من مفهوم هذا، أن منهم من ليس بمأمون؛ بل المعنى أن كلًّا منهم مأمون، كما قال ﷺ: «أصحابي كالنجوم، بأيِّهم اقتديتم اهتديتم»[1]، فخص بهذا كل فرد منهم.

وقد سألت سيدنا عن كلمته هذه وما أوهمت، فأجاب بما حاصله المعنى المذكور.

[أسبابُ ما يَحُلُّ بالناس]

وقال رَضيَ اللهُ عنه: «لا تُحِلْ هذه الأمور على المقادير؛ بل حِلْها على هذه القلوب المنصرفة والوجوه المدبِرة، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]».

قال الناقل رحمه الله تعالى: أقول: يعني بهذه الأمور ما بالناس من التعب والقحط، وتسليط الظلمة بالظلم الفاحش عليهم، يريد أن ذلك إنما وقع عليهم

---

(١) رواه البيهقي، وأسنده الديلمي عن ابن عباس بلفظ: «أصحابي بمنزلة النجوم في السماء، بأيهم اقتديتم اهتديتم». (كشف الخفا ١: ١٤٧)، وانظر الميزان (١٥١١، ٢٢٩٩)، ولسان الميزان (٢: ٤٨٨، ٥٩٤)، وإتحاف السادة المتقين (٢٠: ٢٢٣)، والتلخيص الحبير (٤: ١٩٠).

بشؤم ذنوبهم ومخالفتهم، سِيَّما ما يتعاطونه من الربا من بيع العهدة وغيره، وما يقترضونه من العسكر بزيادة في كل شهر، حتى لا تمضي السنة إلا وقد رَبَا على رأس المال مثله أو أكثر، فما أصابهم ذلك البلاء إلا بسبب منهم، لا أنَّه حصل عليهم من غير سبب منهم.

وفي الحقيقة إن الله سبحانه أراد بهم ذلك البلاء، فأجرى عليهم أسبابه المقتضية له في الدنيا والآخرة، والكل موقوف على الإرادة منه سبحانه، فانسُبْ ذلك إلى الأسباب، وذلك قوله: «بل حلها على هذه القلوب المنصرفة والوجوه المدبرة»، وهذه أفعال العباد، وهي الشريعة، ولا تنسبه إلى المقادير من الله، وهي الحقيقة، وفي نسبته إلى العباد ـ ردعاً لهم، وتخويفاً أن يقع بهم ذلك ـ الجزاءُ عليه في الدنيا، وجزاؤه الآخر في الآخرة أعظم، كما قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١]، والأدنى: عذاب الدنيا، والأكبر: عذاب الآخرة، فانسب أفعال العباد إليهم ليكون ردعاً لهم، ولا تنسبه إلى الحقيقة فيكون عذراً لهم.

وهذه عادة الدعاة إلى الله، إنما يخاطبون الناس بالشريعة، ومن خوطب بالشريعة فأجاب بالحقيقة فإنه مجرد جِدال، ولا عذر له به كما في «صحيح البخاري»، أن النبي ﷺ دخل على علي وفاطمة وهما نائمان في الليل، فقال لهما: «هلَّا تقومان تصليان وتذكران الله تعالى»، فقال عليٌّ رَضيَ اللهُ عنه: يا رسول الله، إنما نفوسنا بيد الله، فإذا أراد الله أن يبعثها بعثها. فانصرف رسول الله ﷺ وهو يضرب يده على ركبته ويقول: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾[1].

---

(١) البخاري في التهجد (١١٢٧).

قال ابن أبي جمرة: لأنه ﷺ خاطبهما بالشريعة بطلبه أن يقوما يصليان، فأجابه [عليٌّ] بالحقيقة بنسبة الأمر إلى الله ـ والشريعة: أفعال العباد ما به أمر الله، والحقيقة: فعل الله ذلك ـ وهو جوابه بقوله: إنما نفوسنا بيد الله، فلما أجابه بذلك علم أنه حق فما راجعهما، ورجع عنهما؛ ولكنه ما عذرهما بذلك، حيث فيه تفويت ما أمر الله، ولم يقبله عذراً يعذر به، وبيَّن أنه مجرد جدال بقوله: «وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً»، حيث لم يحصل للشريعة منهم سهم، وبين أن ذلك جدال لا ينبغي مراجعة الكلام فيه، فإن خوطبت بالشريعة أجب بالشريعة، وإن خوطبت بالحقيقة أجب بالحقيقة، ولا تعكس، فتكونَ مجادلاً، ولا خير في الجدال، فإنه من طبع الأشرار.

فأراد سيدنا أن تنسب أفعال العباد إليهم التي هي الشريعة، ترغيباً وترهيباً، كما فعل النبي ﷺ مع علي وفاطمة، وأنت إذا نسبت أفعال العباد إلى الحقيقة يحتجون بها لأنفسهم، ويرونها[٢] عذراً لهم من جهلهم وقلة تحققهم بحقيقة علم الدين، كما حكى الله سبحانه عن من قال: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]، ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ [النحل: ٣٥]، فأدحض حجتهم، وأبطلها حُجَّةً للشرع، وعاقبهم بما فعلوا وقالوا.

وأشبهُ شيء بهذا المعنى: كون الله سبحانه بعث الرسل إلى الخلق يعرِّفونهم بالله تعالى، ويرشدونهم إليه، وذلك في كافة الخلق دون تخصيص منهم بأحد، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨]، فإذا أسمعوهم أمر الله، وبلغوهم رسالة الله، ثم بعد ذلك فإن الله سبحانه هو المخصِّص من شاء من

---

(٢) في الأصل و ب: (ويرونه).

كافة الخلق بالهداية إلى ما دعتهم إليه الرسل بأمره، فيصير إسماعهم ذلك حجةً لمن اتبع بإدخالهم الجنة، وحجةً على من امتنع بإدخالهم النار؛ لأن الله سبحانه لا يأخذ إلا بحجة. فافهم من جميع ما تقرر أن سعادتك باتباع الشريعة، وشقاوتك بمخالفتها. فالحقيقة حجتها قائمة، ولا حجة لمخلوق بها؛ بل لله الحجة البالغة كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢].

[العُمدة في الأسباب على الإرادة الإلهية]

وهذه قاعدةٌ كليةٌ في جميع الأسباب الدينية والدنيوية: أن العمدة والعهدة على الإرادة منه سبحانه، وعلى مقتضاها يكون كل شيء، وجعلتَ لكل شيء سبباً يتوصل به إليه، وعيَّنتَ لكل شيء وقتاً يكون فيه سببه؛ ولكنها قائمة، حاكمة على الأسباب ومسبباتها، وما أطلقت حصول المسببات بمجرد حصول الأسباب حتى تقتضيه الإرادة، وكل ما أراد سبحانه كتبه في اللوح المحفوظ، حتى أن كل ما اقتضته يسمى مكتوباً؛ لكن بسببه، وفي وقته، ووصفِهِ الذي عينته، وما لم يكتب فهو الذي لا تقتضيه الإرادة ولو وجد سببه، قال الله تعالى: ﴿وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾[البقرة: ١٨٧]، يعني: ما أراده الله بسببه، وانتظروه في وقته. والابتغاء: هو التسبب. و﴿مَا كَتَبَ ٱللَّهُ﴾ أي: الذي أراده، فإن أراد شيئاً كان، وإن لم يرد لم يكن، فبان لك أن الأمور كلها عاقبتها ترجع إلى ما اقتضته الإرادة، وإن اقتضت الأسبابُ خلافها؛ ولكن إن كان السبب سببَ خير فكن منه على رجوى حصول الخير من غير قطع وجزم بحصوله، وإن كان السبب سبب شر فابعد منه وكن على حذر وخوف من وقوع مقتضاه من غير قطع وجزم بذلك.

[فوائد النظر إلى ما سبقت به الإرادة]

ومن فوائد ذلك: أن لا يعجب عامل بكثرة عمله، إذ هو على هذا الخطر، ويبقى معه على أشد الخوف، وهذا سجية الكُمَّل، كالعشرة من الصحابة رَضيَ اللهُ عنهم، لمّا بشرهم النبي ﷺ بكونهم من أهل الجنة ازداد خوفهم من الله، حتى قال سيدنا عمر: ليت عمر لم تلده أمه! ولكل منهم كلام يدل على شدة خوفهم من الله.

ومن فوائد هذا المعنى أيضاً: أن لا يقنط العاصي من روح الله، فربما كان من السعداء، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل صالح ويختم له بالخير.

ومن فوائده: أن يبقى بين الخوف والرجاء، ويستوي خوفه ورجاؤه، فانظر قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾[التوبة: ١٧-١٨]، فأتى بلفظ «عسى» التي للترجي بعد هذه الأفعال المحمودة من غير قطع. ومن الآيات في هذا المعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨]، يعني: مَن فَعَل هذه الأفعال الحميدة فهو في رجاء رحمة الله لا قطعاً له بذلك، فربما خالفت الإرادة الإلهية ظاهر هذه الأسباب الجليلة فاقْتُطِعَ به دونها، كما صح في حديث: «والذي نفسي بيده، إنَّ أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع

فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها»[١]، والذراع في الحالتين: كناية عن قرب الموت بعد عمله الأخير بسرعة، وسبق الكتاب: كناية عن أن يعقب عمله المتقدم قبل موته بمدة، حيث إنه بخلاف ما أريد به من سعادة وشقاوة، عَمِل بمقتضى ما أريد به من أحدهما عند موته فيموت عليه، وهو خاتمته، ولا تكون إلا على وفق ما سبق له من أحد الأمرين، وإن خالفه عمله فيما بينهما، وحكمة عدم القطع بأحدهما مع وجود سببه أن يبقى العبد معلِّقاً قلبه بربه دون عمل وسبب من الأسباب، ويخافه ويرجوه ولا يغفل عنه ولا يرجو حصول نفع ولا دفع ضرر إلا منه، ويكون في جميع أموره متعلقاً بمشيئة الله لا يغفل عن ذلك قط، ولو قطع بوقوع مقتضى ما تلبس به من الأسباب لاقتضى ذلك الأمنَ من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، وهذا لا يجوز قط في حق الربوبية على العبودية: لا في مقام الخواص، ولا في مقام العامة، كيف وقد ذكر الإمام الغزالي في «الإحياء» في كتاب الخوف، قال: «إن النبي ﷺ قعد مع جبريل عليه السلام يبكيان، فأوحى الله إليهما: ما يبكيكما وقد أمنتكما؟ فقالا: يا ربنا، لا نأمن مكرك، قال سبحانه: هكذا فكونا، لا تأمنا مكري»[٢]، هذا وجبريل سيد الملائكة، والنبي ﷺ سيد ولد آدم، وخير الخلق أجمعين، ومَن مثلهما وقد أمر الله سبحانه أن لا يأمنا مكره؟

---

(١) رواه البخاري (٩: ١٦٥) ومسلم في القدر (١)، وأبو داود في السنة باب (١٦)، وأحمد (١: ٣٨٢، ٤٣٠)، والبيهقي (٧: ٤٢١، ١٠: ٢٦٦)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤: ٣٤٩)، والطبراني في الكبير (١٠: ٢٤١)، وغيرهم.

(٢) قال العراقي: رواه الطبراني في الأوسط وابن شاهين في شرح السنة من حديث عمر، ورويناه في مجلس من أمالي أبي سعيد النقاش بسند ضعيف. (إتحاف السادة المتقين، في كتاب الخوف والرجاء ١١: ٤٤٤).

وكثيراً ما يجري هذا المعنى من تعلق الأسباب بالإرادة الإلهية في كلام سيدنا؛ لأن هذا هو الجمع بين الشريعة والحقيقة، كل منهما في محله وعلى وجهه، وهو الكمال في العبودية ومراده كما يعلمه ويعمله في خاصة نفسه، كذلك يُعَلِّمُهُ، ويدعو إلى العمل به، وإنما تكرر منه ذلك مراراً تقريراً له في الأسماع، وتثبيتاً له في القلوب، كما هو في الكتاب والسنة.

[استحالةُ الجهة في حقِّه سبحانه وتعالى]

وقال رَضِيَ اللهُ عنه: مَنْ يقرأ القرآن لا يمكنه أن يقول بالجهة، فيفرّق بين معراج النبي ﷺ وتكليم الله سبحانه لموسى عليه السلام من الشجرة؛ لأنّ الأمور الإلهيَّة لا يدركها أحد. وإذا أردت أن تنفي الجهة في حقه سبحانه وتعالى، وتعلم أنه غير محتاج إليها، فأثبت حدوث العالم، فإذا ثبتَ فلا خفاءَ في ذلك، فأين كان قبل وجود الموجودات؟ وأين يكون عند قيام الساعة؟ وعندما يطوي السماوات والأرض بيمينه فيعدمها، فيعلم غِناه عن الجهة، فأين كان قبل ذلك وبعده؟

وقد يغلط في لفظ الشمال في حق الله سبحانه، من يقول: له شمال، وإن كان قد جاء في بعض الأحاديث: «وإنما كلتا يدَي ربنا يمين»[1]، اليمين الكبرى بها فضله، واليمين الأخرى بها عدله، فلا يوصف بشمال، وكذا يقال: فوق الفوق، وفوق التحت، ولا يجوز أن يقال: تحت التحت؛ لأنه سبحانه فوق كل شيء، والأمور التي لا تدركها العقول كثيرة، منها: ما هو في الوجود، ومنها ما هو في القدرة، لم يبرزه الله سبحانه، ولا يعرف الإنسان منها إلا ما يألفه، فيقيس

(١) رواه مسلم في صحيحه (٦: ٧) كتاب الإمارة، باب كراهية الإمارة بغير ضرورة.

عليه ما يقرب منه، وأما ما لا يعرفه ولا يألفه طبعه فلا يعرفه أصلاً، ويرى ما خالَفه محالاً، وما لم يرَه أو يعلَمْه لا يمكنه أن يتَعَقَّله.

فخلِّ الخوض في الحق سبحانه، وانظر إلى الملائكة، إنما غذاؤهم الذكر. لو قيل: حيٌّ لا يأكل ولا يشرب ولا ينام، يقال: ما هذه الحياة؟! وكيف تكون هذه الحياة؟! ويستبعده، وكذلك الجنة حيث يقال: طولها كذا، أو عرضها كذا، فإذا استبعد يقال له: نعم، لو كان ذلك في هذا العالم الضيق. وهنالك عوالم شتى، منها ما هو في الوجود، ومنها ما هو في القدرة، وأمور الآخرة لا يسع الإنسان فيها إلا التصديق والإجمال، وعدم التأويل، ورأينا كثيراً من العقائد، ولم نَرَ لأهل الزمان أنفع من عقيدة الإمام الغزالي للمبتدي منهم والمنتهي؛ ولكن منتهيهم مبتدٍ.

وقال مرة: لما أراد الله سبحانه أن يُطلع نبيه على عجائب المخلوقات، كلَّمه من قاب قوسين، وكلم موسى عليه السلام من الشجرة، فانظر الفرق بين المقامين، ولا تنظر الفرق بين النبيَّين، وإن كان كل منهما في درجة عالية، وليس منزلة الكليم كمنزلة الحبيب.

قال الناقل رحمه الله: أقول: معناه أن كلا الكلامين كلام الله تحقيقاً، فدل على أن كل الجهات في حقه تعالى سواء، ولا يختص بجهة، ولا مكان ولا زمان، فقد كان قبل وجود الزمان والمكان، وهو الآن على ما عليه كان، فالجهات كلها في حقه سبحانه بمثابة واحدة، لا تختص جهة بالقرب منه سبحانه دون أخرى، وإنما جهة العلو والفوق تدل على الأفضلية، فهي أفضل من السفل، فيشار إلى الحق من جهة العلو كما قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦، ١٧]،

وغير ذلك. وكذلك في تكليم الله تعالى للنبي ﷺ من قاب قوسين أو أدنى، وتكليمه لموسى عليه السلام من الشجرة كما قال: «فانظر الفرق بين المقامين»، أي: مما يدل على كل من المقامين الفرق بين موضع التكليمين.

والحديث الوارد في اليد الشمال موضوع لا أصل له، وإنما الصحيح الثابت حديث اليمين، ولما كان المراد باليدَيْن: الفضل، والعدل، فالأمر كله راجع إلى القدرة والإرادة، فما أراده وقع كما أراده، وإنما ورد الشرع باليدَيْن تنزلاً للخلق على مقتضى عقولهم، لـمّا كانوا لا يعرفون العطاء والمنع إلا باليدَيْن ذكرهما مراداً بهما الفضل والعدل؛ لكن نفى توهـمهم الشمال في حقه سبحانه بأنه لا شمال له؛ لأنّ عادة الشمال للأمور الردية، وأموره سبحانه كلها جليلة، من منع، وعطاء، وعافية، وابتلاء، وغير ذلك.

وأما ما أوَّلوا به اليدَيْن، والاستواء، والنزول، وغير ذلك من الصفات، فكما أن الناس في القرون الثلاثة ـ التي هي خير القرون ـ ما احتاجوا إلى التأويل، فكل أحد منهم سمع ما قال الله، وقال رسوله، فآمنوا به، وانطوت عليه قلوبهم، وركدت عن الهواجس في معانيه وتأويله، فلم يحتاجوا إلى التأويل حيث القلوب حينئذ صافية عن الأغيار، والأجسام نقية طاهرة، والأعمـال صالحة خالصة، لخلوص طعمتهم من الشبه فضلاً عن الحرام، وكانت طعمتهم حلالاً طيـباً، ونبتت عليها أجسامهم، فكان مذهبهم التسليم، وترك التأويل في كل ما ورد في الكتاب والسنة، فكان مذهبهم: اعتقاد كل ما ورد في الكتاب والسنة من الصفات، وقَبِلَتْهُ قلوبهم، بلا تعقل وتطلب لمعانيها؛ بل أمَرُّوها كما جاءت، ولا تعرضوا لتأويلها ومعانيها، حتى أن الإمام مالكاً لما سأله ذلك السائل عن الاستواء اقشعر شعره، وسال منه العرق، فقال له: الاستواء معلوم، ومعناه غير معقول،

والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا مبتدعاً[1]، أبعِدوه عني، ونُفي عن المدينة، وكان هذا الرجل أول من تعرض لهذا المعنى، فأنكره عليه الإمام مالك، وأغلظ عليه القول، وأنكره أيضاً أهل زمانه الزمانِ الصالح.

ثم بعد ذلك لما فَسدت الأزمنة، وكثر أكل الحرام، ونبتت عليه أجسامهم، فلم تقبل التسليم حتى تشبثت بالمعاني، كما قال ذلك السائل، وأنَّى للحم نبت على السحت أن يقبل قلبه العقائد الحقّة ويطمئن عليها؟ كيف وفي الحديث: «كل

---

(١) ذكره الحافظ في الفتح (١٣: ٤٠٦ - ٤٠٧) وقال: أخرجه البيهقي بإسناد جيد عن عبد الله بن وهب. وذكره الإمام البيهقي في الاعتقاد ص١١٦ وقال بعده: وعلى مثل هذا درج أكثر علمائنا في مسألة الاستواء وفي مسألة المجيء والإتيان والنزول. قال الله عز وجل: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ سورة الفجر آية (٢٢)، وقال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ سورة البقرة آية (٢١٠)، وعن أبي هريرة رَضيَ اللهُ عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل الله عزّ وجلّ كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له؟»، رواه البخاري، ولم يتكلم أحد من الصحابة والتابعين في تأويله. فمنهم: من قبله وآمن به ولم يؤوله، ووكل علمه إلى الله، ونفى الكيفية والتشبيه عنه، ومنهم: من قبله وآمن به، وحمله على وجه يصح استعماله في اللغة ولا يناقض التوحيد. وفي الجملة: يجب أن يُعلم أن استواء الله سبحانه وتعالى ليس باستواء اعتدال عن اعوجاج، ولا استقرار في مكان، ولا مماسة لشيء من خلقه؛ لكنه استوى على عرشه كما أخبر، بلا كيف، بلا أين، بائن من جميع خلقه، وأن إتيانه ليس بإتيان من مكان إلى مكان، وأن مجيئه ليس بحركة، وأن نزوله ليس بنقلة، وأن نَفْسَهُ ليست بجسم، وأن وجهه ليس بصورة، وأن يده ليست بجارحة، وأن عينه ليست بحدقة، وإنما هذه أوصاف جاء بها التوقيف، فقلنا بها ونفينا عنها التكييف، فقد قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ سورة الشورى آية (١١)، وقال: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ﴾ سورة الإخلاص آية (٤) وقال: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ سورة مريم آية (٦٥).

لحم نبت من سحت فالنار أولى به»[1]؟ كثر المتعرضون لذلك، وتداولت عليه العصور، ثم لم ينكر بعد ذلك.

ثم إن العلماء بالله المشفقين على عباد الله أوَّلوا لذلك تأويلات تليق، لا يضرهم إذا انطوت قلوبهم عليها، خوفاً عليهم أن تنطوي قلوبهم على معانٍ فيها لا تليق، وعلى هذا فكان الإيمان بهذه الصفات والتسليم من غير تأويل، هو مذهبَ السلف في الأزمنة الصالحة في القرون الثلاثة التي هي خير القرون، ومن هو على مذهبهم وطريقهم بعد ذلك ممن وفقه الله لذلك.

واليوم وقبل اليوم، بل بعد القرون الثلاثة، لما كثر الحرام والشبه، وانتشر في العموم، فأكلوه ونبتت عليه لحومهم، فما قبلت قلوبهم أن تؤمن بهذه الصفات، وتطمئن به بلا اضطراب وتقلقل، حتى جعلت تتطلب لها معاني، وما وقعت إلا على معانٍ باطلة؛ لأن عقول الخلق لا تدرك صفات الحق، وما عرفوا إلا ما أدركته عقولهم، وعقولهم حادثة لا تدرك إلا حادثاً مثلها، كما أشار إلى ذلك بقوله: «ولا يعرف الإنسان منها إلا ما يألف»، وكقوله: «فخل الخوض في الحق وانظر إلى الملائكة» إلى آخره، ولذلك قال المحققون في صفات الله سبحانه وتعالى: إنه حيٌّ بحياة، عالمٌ بعلم، قادرٌ بقدرة، سميعٌ بسمع، بصيرٌ ببصر، مريدٌ بإرادة، متكلمٌ بكلام، يعني أن هذه التي يعرفها الإنسان من نفسه تسمى بهذه الأسماء، وهي غاية ما أدرك بعقله أن صفات الحق المسماة بهذه الأسماء ليست على الوجه الذي

---

(١) رواه البيهقي في الشعب برقم (٥٧٦٢) من حديث كعب بن عجُرة، وأخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث أبي بكر وعائشة وجابر، والطبراني في الكبير (١٩: ١٣٦) والصغير (١: ٢٢٥) من حديث ابن عباس، والقرطبي في تفسيره (٦: ١٨٣)، وابن جرير الطبري (٦: ١٥٦)، وابن عدي (٥: ١٩٣٦)، وغيرهم.

يعرفه من نفسه، وإن شاركت في الاسم، فالصفات القديمة غير الصفات الحادثة، كما إذا عرفت من نفسك أنك حي مثلاً، فإن الحق حي بحياة غير حياتك، حياتك تقدمها العدم وآخرها إلى العدم، وحياة الحق قديمة أزلية، وباقية أبدية، ما تقدمها عدم، ولا يلحقها عدم، فأين حياة الحق من حياة الخلق؟ وكذلك باقي الصفات قديمة بقدم الذات، باقية ببقائها لا تفارقها.

فلا تظن بعقلك القاصر أن صفات الحق مثل صفات الخلق وإن شاركت في لفظ الاسم، فأما الصفات القديمة فلا يعلم حقيقتها إلا المتصف بها سبحانه، فلأجل ذلك جعل علماء الدين المشفقون على عباد الله يتطلبون لها معاني لو تشبثت بها عقولهم لا تضرهم في دينهم، كما أوَّلوا الاستواء بالاستيلاء مع أنه من تأويل المعتزلة؛ لكن رأوا أنه أسلم من تأويل غيره خوفاً من اعتقادهم أن معناه الاستقرار، وهذا لا يجوز في حق الله؛ لأن الاستقرار من صفات الخلق التي تدركها عقولهم، ولا يقولون ـ أعني المتأولين من أهل العقيدة الحق ـ: إن تلك التأويلات هي حقيقةُ معنى تلك الصفات قطعاً، إلا إن كان شيء منها ثبت فيه معين من قول رسول الله ﷺ كما في الحديث القدسي عن الله سبحانه أنه قال: «ابن آدم، استطعمتك فلم تطعمني، قال: كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟! قال: استطعمك عبدي فلان، فلم تطعمه، أما إنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي...»[1] إلى آخر الحديث، وفيه: استسقيتك، واستكسوتك بذلك، وبذلك المعنى فأوِّلْهُ بهذا التأويل العجيب. ومثله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥]، وكل ما جاء في القرض في الكتاب والسنة، من هذا المعنى.

قال السُّهْرَوَرْدِي: فلا تبعد عن الله بالتشبيه، وقد قرب منك، ولا تفر منه

---

(١) بعض حديث رواه مسلم عن أبي هريرة برقم (٢٥٦٩).

بالتعطيل، وقد دنا إليك. أطلق الاستواء وأعرض عن الكيفية، وهكذا سائر الصفات، فهو سبحانه بما يحكي لعباده بهذه الأخبار ظاهر، وبما قصرت العقول عن إدراك كنهها وكيفيتها باطل، فلا تتكشف من عظيم شأنه ما بطل، ولا تنتشق من علو سلطانه ما كمل.

[مذهب السَّلَف في المتشابه]

وقال رَضِيَ اللهُ عنه: «خذ في كل ما يشكل عليك في حق الله ويوهمك فيه شيئاً بالتسليم، وتركه على ما هو عليه مع التنزيه له سبحانه عن صفات الحدث، وقد جاء في القرآن والسنة كثير مما يوهم ذلك؛ ولكنْ للسلف فيه طريقان: التسليم، والتأويل مع التنزيه، وأين صفات الرب سبحانه من صفات خلقه؟ ففي وصف أحد الملائكة من الأمور ما تعجِز العقول عن إدراكها، فكيف بالباري سبحانه؟».

قال الناقل رحمه الله تعالى: وكلامه هذا هو الكلام الفصل في العقيدة، فمن تعقل صفات الله وظنّ أنه اطلع على حقيقتها واعتقد في وصف الله أنه هو ذلك فهو مخطئ، فإنه لم يطلع إلا على صفات نفسه، فأين هو من الصواب؟ كما قال سيدنا في هذه المقالة: «فأين صفات الرب سبحانه من صفات خلقه؟ ففي وصف أحد الملائكة من الأمور ما تعجِز العقول عن إدراكه، فكيف بالباري سبحانه؟!».

[القرآن الكريم وجليلُ منزلته]

وقال رَضِيَ اللهُ عنه: «القرآن كلام الله، سماه عزيزاً لعزة قدره، لأنه عزيز نزل من عزيز على عزيز، ولا يستلذ قراءته إلا أهل البصيرة، ومن في قلبه نور،

ويستثقل منه الشياطين، فمن يَمَلُّ من قراءته فذلك في قلبه شياطين، لولاهم ما كان منه ذلك، إلا إن كان مع كثرة القراءة، فإن البشر من طبعه الملل، وقد قال الفضيل: لو كنت عرفت من القرآن أولاً ما عرفته منه الآن ما نقلت حديثاً». ثم قال سيدنا: «يعني لأن جميع العلوم تتفجر من القرآن، فإذا أعطاه الله الفهم فيه فلا يحتاج إلى تحصيلها من غيره، وقد أجملها فيه، والعمدة على نور القلب». قال: «وقد ذكر الإمام الغزالي أن شروط العزة ثلاثة: أن تشتد الحاجة إليه، وأن يعسر التوصل إليه، وأن يقل وجوده».

قال الناقل رحمه الله تعالى: ومراد سيدنا بقوله: «القرآن كلام الله سماه عزيزاً لعزة قدره»: يعني: أنه مشتمل من العزة على مثل ما ذكره الإمام الغزالي من العزة في حق الله تعالى؛ لأنه صفة من صفاته سبحانه، وقد قال رسول الله ﷺ: «القرآن كلام الله، وهو حبله الممدود بين الله سبحانه وبين خلقه، طرفه بيد الله، وطرفه الآخر بيد الخلق»[1]، يعني: فالطرف الذي بيد الخلق هو على ما فهموه وعرفوه، ولذا نزل بلغتهم ليفهموا معناه، ويقوموا بأحكامه، وهو ميسر لهم بذلك، أي: أن القرآن كلام الله ميسر باللغة العربية، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ [مريم: ٩٧]، ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: ١٧]، ويجري فيه قول النبي ﷺ: «من قرأ القرآن فله بكل حرف عشر حسنات»[1] الحديث. وهو قول الحنابلة، أن

---

(١) هذا جزء من حديث ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٩: ١٦٣- ١٦٤) باب: في فضل أهل البيت، عن زيد بن أرقم رَضِيَ اللهُ عنه.

(١) رواه الترمذي رقم (٢٩١٢) في ثواب القرآن، باب: ما جاء فيمن قرأ حرفاً من القرآن ما له من الأجر، عن عبد الله بن مسعود، ولفظه: «من قرأ حرفاً من كتاب الله عز وجل فله به حسنة، والحسنة بعشرة أمثالها، ولا أقول: ألم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»، وهو حديث صحيح.

الكلام مطلقاً لا يكون إلا بالحروف والأصوات، وأنها في كلام الله قديمة فهو بحرف وصوت، واستدلوا بهذا الحديث، وكذلك سائر الرسل إنما بعثوا بلسان أقوامهم، ونزلت كتبهم بلغاتهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، وهذا الكلام كله وأمثاله، هو الطرف الذي بيد الخلق من كلام الله.

وأما الطرف الآخر الذي بيد الله تعالى فأمره إلى الله لا يعلم حقيقته إلا هو، ويجب علينا فيه الإيمان به والتسليم، كسائر صفاته تعالى، ولا يَطلُبُ التطلعَ إلى معناه أو يدعي معرفته إلا المشبهة المجسمة الذين حد فهمهم ومدركهم من معاني صفات الله ما يفهمونه ويدركونه من معاني صفات الخلق، فدعواهم كاذبة، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فإن صفات الحق لا تدركها عقول الخلق، فكل ما أدركته عقول الخلق فليست هي معاني كلام الله، إذ ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾، فنفى المثلية، وأثبت الصفات، فلا تفهم من سمعه وبصره تعالى ما تفهمه من سمع الخلق وبصرهم، لأنها بأصمخة، وآذان، وعيون، وحدقة حِسِّيَّات، وصفات الحق بخلاف ذلك، وما عمل بمقتضى هذه الآية من تطلع إلى معرفة ذلك، فإنَّ **الإدراك عدم الإدراك**، كما قاله سيدنا أبو بكر الصديق رَضيَ اللهُ عنه، وما **خطر ببالك فهو هالك، والله بخلاف ذلك**، كما قاله سيدنا الإمام جعفر الصادق رَضيَ اللهُ عنه، ولا نقول فيه: حروف، ولا أصوات، لأنها حادثة بحدوث اللغات، وهو قول الأشاعرة القائلين: إن كلام الله ليس بحرف، ولا صوت، ومع ذلك لا يجوز أن يقال: حروف القرآن حادثة، خوفاً من القول بخلق القرآن. وقد سئل الإمام الحافظ محمد بن إسماعيل البخاري: ما تقول في حروف القرآن، هل هي حادثة أم لا؟ فقال: اللغة حادثة، فسعي عليه عند الحاكم

أنه يقول بخلق القرآن، فحبس وعذب على ذلك، فقال: إني لم أقل بخلق القرآن، وإنما قلت: اللغة حادثة، فأطلق من الحبس.

قال الناقل رحمه الله تعالى في موضع آخر، بعد أن نقل اعتقاد الجهة في حقه تعالى، والحرف والصوت في كلامه سبحانه عن الحنابلة: ثم إني أقول في تقريب اللفظ في ذلك: إن الناس فيه فرقتان:

إحداهما: من يقول بذلك القول من الجهة، والحرف، والصوت، وأكثرهم من الحنابلة، ومعهم فيه قليل من الشوافع، وقليل من الموالك، سمعوا الأحاديث المذكورة، وما يومي إلى معناها، فأخذوا بظواهرها، وحكموا بأنه صوت وحرف، وأنه لا يمكن كلام مطلقاً إلا بهما، سواءٌ كان قديماً أو حادثاً؛ لكن قالوا: الحرف والصوت حادثان في الحادث قديمان في القديم، وأطلقوا هذا القول مطلقاً، وممن اشتهر بذلك من الشافعية: صاحب «البيان» من أهل اليمن ومن تبعه، والصواب تقييده في القديم على ما سنبينه أن لهذا موطناً يخصه لا يتعداه إلى غيره.

والفرقة الأخرى: الأشاعرة ومَن تبعهم من جميع المذاهب، ومثلهم الماتريدية الحنفية، وهذه الفرقة هي الأكثر من هذه الأمة، وهم السواد الأعظم، قالوا: الحروف والأصوات حادثة مطلقاً فلا تدخل في الكلام القديم قط؛ بل كلام الله ليس بحرفٍ ولا صوت، وهو منزّه عنهما وعن كل حادث، كسائر صفاته سبحانه، فصفاته تعالى منزّهة عن دخول الحوادث فيها، وعروضها لها، وهذا أيضاً له موطن يخصه لا يتعداه.

وكلٌّ من الفرقتين تخطِّئ الأخرى وتعترض عليها؛ بل تكفّرها.

وهنا قولٌ ثالثٌ جمع بين القولين، وهو الحق الذي لا يعترض عليه أحدٌ

من الفرقتين، وهو: الجمع بين القولين بتقرير دلائلهما؛ لأنه هو قول الله وقول رسوله، وذلك هو الحق المتبع وخلافه هو الباطل، وأما معانيهما التي أخذوها من تلك الدلائل من الحرف والصوت، ومعاني الأشعرية التي أخذوها من دلائل أخرى استدلوا بها على عدمهما، فكل واحد من القولَيْن له محل وموطن يخصه كما سيأتي بيانه، والذي أجمعوا عليه أن كلام الله صفة قديمة أزلية قائمة بذاته كسائر صفاته، ولا يدرك صفاته الخلق، ولا يشبه كلامه كلام الخلق، وقد نزه سبحانه ذاته وصفاته عن مشابهة الخلق بقوله سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، وذلك ردٌّ على المشبّهة، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وهو ردٌّ على المعطّلة، يعني: أن التنزيه لا ينافي الصفات، فأثبت الصفتين رداً عليهم، وبيَّن بذلك أن إثبات الصفات لا ينافي التنزيه، وأن التنزيه لا ينافي إثبات الصفات، وبيَّن أنه ليس ذاتٌ كذاته، ولا صفات كصفاته؛ ولكن أراد الله سبحانه أن يبلغ كلامُهُ القديم الذي لا يدركه الخلق إلى خلقه على وجه يريده، ويفهمونه، وهو على كل شيء قدير.

فإذا أراد أن يبلغ كلامه إلى خلقه على أي وجه أراد سبحانه فَعَلَ، فبَلَّغَهُ إليهم على وجه يفهمونه، وعلى لسان رجل يعرفونه، ولا ينكرونه، وقد جربوه بالصدق بحيث لم يقفوا له على كذبة واحدة قط، وذلك لإقامة شريعته، وتبيين أحكامه، وتوجيه خطابه إلى خلقه بأوامره ونواهيه؛ ليقوموا له بالحقوق اللازمة على العبودية لحق الربوبية بحسب أحوالهم، ومبلغ طاقاتهم، على وجه يرضاه منهم بمقتضى ما كلفهم به، ويسمى هذا التنزُّل، وهو خطاب الأعلى للأدنى، كما قال سيدنا: وتنزل لموسى فأسمعه كلامه من الشجرة، وتسهيله لهم حتى فهموه، وأطاقوا تلقيَه من النبي ﷺ، ومن سائر المرسلين يسمى التيسير، لقوله

تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان: ٥٨]، ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: ٢٢]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]، ففي هذا الموطن بعد التيسير، وتبليغه، وإبلاغه إلى الخلق، يجري فيه قوله ﷺ: «من قرأ القرآن فله بكل حرف عشر حسنات، لا أقول: ألم حرف؛ بل ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»[1]، وإياه عنى ﷺ بقوله ذلك.

وكذا تكليم الله لأهل موقف القيامة بذلك الكلام؛ لأنه خطاب للخلق على وجه يفهمونه ولا ينكرونه، يسمعه كل منهم، مَن بَعُدَ ومَن قَرُبَ. وأمور الآخرة كلها تجري على ظاهرها من غير تأويل، وتبديل حرف بحرف لبيان المعنى؛ بل معناه هو ما ظهر من لفظه.

وإذا ثبت أن حروف ما نطق به العرب من لغتهم حادث، ومع ذلك لا يجوز أن يقال: حروف القرآن حادثة؛ خوفاً من القول بخلق القرآن الذي امتحن الإمام أحمد على أن يقوله، وعولج وعذب على أن ينطق به فأبى وحفظه الله منه، وصبر على المحن والبلايا خوفاً أن يتبع عليه؛ لأنه إمام متبع، فخشي إن قاله ـ ولو مُوَرِّياً كما وَرَّى غيره ـ أن يقول به سائر الأمة، فحماه الله من ذلك، ولم يقله فضرب، وعري من ثيابه، ولم يبقَ عليه سوى سروال، وضرب عرياناً، ورأى الخضر يقول له: اثبت على ما أنت عليه، ولا تقل بخلق القرآن، فأيده الله، وصبر على ما لقي منهم، ولم يقله.

فقيل: تيسير الله القرآن، وتبليغه إلى الخلق، وإنزاله لهم على لسان رسوله ليس بحرفٍ ولا صوت، ولا يجري عليه ذكرهما، ولا ينسبان إليه، ولا ينسب

---

(١) تقدم معناه في حديث الترمذي.

إليهما، وهذا قول الأشاعرة، وأطلقوه في الحالتين: قبل التبليغ، وبعده؛ ولكن بعده أيضاً لا يجوز أن يقال بهما، لما تقدم من خوفِ جَرْيِ ذلك القول الاعتزالي فيه؛ لكن يجري قول النبي ﷺ: «من قرأ القرآن فله بكل حرف عشر حسنات».. إلى آخره، اقتداءً به عليه الصلاة والسلام في هذه المادة مع التسليم، ولا يطرأ عليه ذلك في مادة غيرها، وكذا قول سيدنا علي فيما روي عنه قال: من قرأ القرآن وهو في الصلاة قائماً فله بكل حرف مئة حسنة، ومن قرأه في الصلاة قاعداً فله بكل حرف خمسون حسنة، ومن قرأه خارج الصلاة وهو على وضوء فله بكل حرف خمس وعشرون حسنة، ومن قرأه وهو على غير وضوء فله بكل حرف عشر حسنات.

وقيل: تيسير الله له، وإبلاغه إلى الخلق، لا يقدر الحادث على إدراك معرفة القديم، فإذا كانوا يعجِزون عن إدراك الملائكة على صورهم التي خلقهم الله عليها مع أنهم خلق محدَثون مثلهم، فكيف يقدرون على إدراك كلامه تعالى؟! لولا أن ييسره لهم، فإذا يسره بالعربية فهو القرآن، وإن يسره بغيرها بلغات مَن أرسل إليهم فهو التوراة والإنجيل، وغيرهما، وفي بعض الأخبار أن جبريل عليه السلام إنما يتلقى كلام الله إذا أرسله به إلى أي نبي بالعربية؛ ولكن يخاطب به كل نبي بلغته، وهو معنى قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾ [إبراهيم: ٤].

وفي حديث، أن رسول الله ﷺ قال: «كتاب الله حبل ممدود بين الله وبين خلقه، طرفه بيد الله، وطرفه الآخر بيد الخلق»[1]، يعني: فالذي بأيديهم هو على

(١) مجمع الزوائد (١٠: ٦٣ - ٦٤).

وجه يفهمونه، ويعرفونه على حسب ما خاطبهم الله به وفهمهم له، وبيّن لهم فيه من أحكامه، وأمور دينه، وهذا هو المقروء بالألسنة، المحفوظ في القلوب، المكتوب في المصاحف، وهو قول عبد الله بن عمر: ما بين دفتي المصحف كلام الله، وهذا الموطن هو الذي ورد فيه من «قرأ القرآن» الحديث المتقدم، فهذا كلامه تعالى الميسر لكافة الخلق قراءةً وسماعاً وحفظاً وكتابةً، المرسل إليهم، وهو كلام الله سبحانه بالنسبة إليهم: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]، ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧].

فنقول: القرآن هو كلام الله حقيقةً ميسر باللغة العربية، كذا قاله ابن أبي جمرة. قال: ويحقق ذلك قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، فتأكيده بالمصدر دليل على أن القرآن كلام الله تعالى حقيقةً؛ لأنّ العرب لا تؤكد بالمصدر إلا ما هو حقيقةٌ، ولا تؤكد بالمصدر ما هو مجاز. انتهى كلام ابن أبي جمرة. وبه تم الكلام في كلام الله في هذا الطرف الذي بيد الخلق.

وأما طرفه الآخر الذي بيد الله فلا لنا فيه كلام، وعلمه موكول إلى الله سبحانه، لا يعلم علمه وحقيقته إلا هو، ويجب علينا فيه التسليم، وعدم التعرض فيه لمعنىً من المعاني، وفي هذا الموطن لا تذكر الحروف، والأصوات، ولا يجري فيه «من قرأ القرآن».. إلى آخر الحديث؛ لأن ذلك ترغيب للخلق، وليس لهم هناك ترغيب ولا ترهيب فيه، فهو في هذا الموطن ليس بحرف ولا صوت، ومن قال بذلك فيه فلا حجة له ولا دليل، وهو قول الأشاعرة بِعَدَمِهما فيه، فافهم هذَيْن الموطنَيْن، وما يختص بكل واحد منهما من وصف الكلام القديم المنزه عن مشابهة

كلام الخلق، ولا تطلق القول بإثباتٍ مطلقاً، أو نفيٍ مطلقاً؛ بل خصص كلًّا منهما بما اختص به في موطنه؛ لأن لفظ حديث: «من قرأ القرآن» خاص بالأول، وجارٍ فيه فقط، وهذا هو القول الثالث الجامع للقولَيْن: قول الأشاعرة، والحنابلة، لما احتج كل منهما من الحجة القوية الصحيحة.

وما فهمنا هذا المعنى وأمثاله إلا من بركة مجالستنا لسيدنا عبد الله الحداد، وسماع كلامه، نفعنا الله ببركاته، وأسراره في الدنيا والآخرة. انتهى ملخَّصاً.

[أقسام التنزيه]

وقال رَضِيَ اللهُ عنه: «التنزيه على قسمين: قسمٌ أضافه الحق إلى من لا إيمان له من المشركين والملحدين، وقسمٌ نزَّه نفسه عنه، من غير أن يقع، فربما يقع في خاطرٍ شيءٌ فنفى ذلك».

قال الناقل رحمه الله تعالى: أقول: أي: نزَّه نفسه عن قول من لا إيمان له، كقولهم: اتخذ الله ولداً، تعالى الله عمّا يقولون علواً كبيراً. والقسم الآخر: أنه سبحانه نزّه نفسه عن كل ما يخطر في البال؛ لأنّ البال حادث، وما خطر في الحادث فهو حادث كما قال الإمام جعفر الصادق رَضِيَ اللهُ عنه، كما ذكرنا عنه أنه قال: ما خطر ببالك فهو هالك، والله بخلاف ذلك، فلهذا نزّه الله سبحانه نفسه عن ذلك، وبَيَّنَ للعبد ما يلزمه اعتقاده في حق الله، بأن يؤمن ويصدق بكل ما جاء عن الله وعن رسول الله من أوصاف الله، ويَكِلَ حقيقة معناها إلى الله، وينزهها عن كل ما خطر في باله من معناها، وكل ما يدركه عقله، ويعتقد أن صفات الحق لا تدركها عقول الخلق، وهو معنى قول سيدنا أبي بكر المتقدم: العجز عن درك الإدراك

إدراك، وقول سيدنا جعفر المذكور، وكل ذلك هو معنى قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

[الرزق المضمون، والرزق المقسوم]

وقال رَضِيَ اللهُ عنه: «الرزق المضمون هو: الكَفاف، وهو ما لا يمكن العبادة وإقامة حقوق الله إلا به، وما فوق ذلك فمقسوم، والشك في المضمون كفر، ولا يجوز فيه قصد تجربة، بأن يقول: أجلس وأنظر إن كان جاءني شيء، فإنه إن كان بقي لي حياة، فلا بد وأن يجيبه، وإلا فالميت لا يطعم قوتاً؛ بل يصرف إلى الحي، ولو جلس واشتد به الجوع». ومرةً قال: «ومن جلس في داره مجرِّباً واشتد به الجوع، يجب عليه تحصيل حاجته بما أمكنه[1]، وإن لم يمكنه إلا بالسؤال سأل بقدر الحاجة، وهو فيه معذور، فإن لم يفعل حتى مات جوعاً، مات عاصياً؛ لأنه قتل نفسه، إلا إذا لم يمكنه بحال».

[سؤال الغير من الفواحش إذا كان بغير ضرورة]

وسمعته يقول: «إن السؤال من الفواحش كالزنىٰ والسرقة، وما أبيح من الفواحش إلا هو عند الضرورة».

قال الناقل رحمه الله تعالى: أقول: والقاعدة في علم الأصول كما ذكره الإمام السيوطي في الأشباه والنظائر: أن ما حرم في الشرع، ثم أبيح لعذر، صار استعماله واجباً، كما حرم أكل الميتة، فإذا أبيح للضرورة وجب استعماله لسد الرمق، فكذلك

(١) أي: من أنواع الكسب المباح على مقتضى الشرع.

السؤال إذا حرم لكونه من الفواحش، ثم أبيح للعذر والضرورة وجب استعماله للضرورة، ولعل معناه أن من مات جوعاً فموته دليل على انقطاع رزقه بانقطاع حياته، إذ لو كان له حياة لكان له رزق كذلك، فلما انقطع ما له من العمر انقطع ما له من الرزق، أما عصيانه في المضمون فمتعلِّقُه الاختيار، فلما ترك باختياره أمراً لازماً وهو: طلب الحلال، أي: ما يحل له في تلك الحالة، أثم بذلك، إذ في الحديث: «طلب الحلال فريضة بعد الفريضة»[1]، ولعل ضمان رزقه موقوف على صبر قوي منه، أو على سعي وسبب.

ومعنى الضمان: حصوله لا محالة على أي وجه كان ولو حراماً، خلافاً للمعتزلة؛ لكنه يجب عليه تحصيله على قانون الشرع عزيمةً أو رخصة، أعني بمعاملة صحيحة، أو بمرخص له فيه عند الضرورة شرعاً، كما تباح الميتة والسؤال عند الضرورة، ولو حصله فمات قبل تناوله لم يكن عاصياً؛ لأنه بذل مجهوده ومختاره، فلا إثم عليه، فبهذا علم أنه إنما أثم بسبب تقصيره، لا لكونه مات جوعاً.

وأيضاً: إذا حصَّلهُ بسبب وسَعْيٍ فإنما هو بحول الله وقوته وإرادته، فقد أدى إليه ما ضمنه له، ولو لم يُرِدْ له ذلك لما قَدِرَ عليه بوجه، فلا يغتر أحد بأن يقول: ما ضُمِنَ لي يأتيني بغير سَعْي وتَسَبُّب، وإذا لم يأت إلا بالحركة والسعي، فلا وجه للضمان، فقد يكون ذلك من بعض الجُهّال، فإنه ما ضمن لك أن ينزل عليك الخبز من السماء، وإنما ضمن لك أن يأتيك رزقك فقط، سواء كان بسعي

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠: ٩٠)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠: ٢٩١): رواه الطبراني، وفيه عباد بن كثير وهو متروك، وعن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال: «طلب الحلال واجب على كل مسلم»، رواه الطبراني في الأوسط، وإسناده حسن.

وسبب، أو بلا سعي و(لا)[1] سبب، فإنَّ الرزق المضمون الذي هو الكفاف، وإن كان مكتوباً محتوماً، فإن المحتوم جعل الله له أسباباً وحتَّمها أيضاً كهو، ولو لم يكن محتوماً لما وقع بسبب، فلا يقع بالسبب إلا ما حتم به وفي وقته، كما قال تعالى: ﴿وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧]، أي: اطلبوا المكتوب المحتوم بالسبب، فلا يحصل إلا ما كُتِبَ وحُتِّم، لا غير، فافهم.

وما جاء عن كثير من الأكابر من السياحة في المفاوز والفلوات بلا زاد، أو سكون في جبل أو موضع خالٍ، الأيام المتعددة والأوقات المتطاولة، ونحو ذلك، فهؤلاء يسلم لهم أحوالهم، ولا يجوز للقاصر عن أحوالهم أن يتبعهم عليها ويقتدي بهم فيها حتى يبلغ ما بلغوا، ويغترف مما منه اغترفوا، فمن تبعهم في الظاهر، وليس هو كذلك، فهو مُدَّعٍ كذاب، فهؤلاء الخواص قد غلب عليهم طبع الروح ودواعيه، وهو التغذي بالذكر والعبادة، كطبع الملائكة، فإن غذاءهم بالذكر، وأولئك العوام قد غلب عليهم طبع الجسم ودواعيه، والروح من جنس الملائكة، وطبعه طبعهم من التغذي بمعرفة الله وذكره بخلاف الجسم إنما تغذيه بالأكل والشرب، والشرع إنَّما ورد على مقتضى أحوال هؤلاء العوام، يدعوهم إلى الترقي إلى مقام أولئك الخواص.

[حسنُ النية]

قال رَضِيَ اللهُ عنه: «إن انتفع أهل الزمان بشيء فبنياتهم ـ أي: إن سَلِمَت ـ وإلا فجميع أعمالهم مدخولة، فإن لم يُقِرُّوا بهذا فعليهم البيان، ومثال أهل الزمان

---

(١) في ب.

كمثل من جاء إلى سلطان، يحمل حطباً ـ أي: هو عمله السيئ ـ فماذا يستحق من السلطان؟ ما هو إلا أن يشب في حطبه النار، قال بعضهم:

النارُ فيك وبـالأعمالِ تَحرِقُهـا والعلمُ ماءٌ لتلك النارِ يَطفيهـا

[صيانة الإنسان نفسَه عن الحاجة]

وقال رَضيَ اللهُ عنه: «وينبغي أن لا يُخْلِيَ الإنسان يده في هذا الزمان من شيء يعيش به، إذ لا راغب في الخير ولا مبال بمحتاج، ولعدم الشكر فيه من الغني والصبر من الفقير، فينبغي أن يحفظ ماله، ويحصنه بإخراج الزكاة».

[فضل صلاة الجماعة]

وتكلم رَضيَ اللهُ عنه في حديث: «لو يعلمُ الناسُ ما في الأذان والصفِّ، الأول ثم لم يجدوا إلا أن يَستَهِموا عليه لاستَهَموا»[1] فقال: «قال هذا عليه الصلاة والسلام ترغيباً لأقوام معذورين، يتخلف أحدهم عن الجماعة للعذر».

قال الناقل رحمه الله تعالى: أقول: قال الحبشي في كتاب «البركة في السعي والحركة»: يقال: من داوم على الصلاة جماعةً أعطاه الله خمس خصال: يرفع عنه ضيق المعيشة، ويرفع عنه عذاب القبر، ويعطيه كتابه بيمينه، ويمر على الصراط كالبرق الخاطف، ويدخل الجنة بغير حساب. انتهى.

---

(١) رواه البخاري (١: ١٥٩، ١٦٧، ٣: ٢٣٨)، ومسلم في الصلاة باب (٢٨) رقم (١٢٩)، وأحمد (٢: ٢٣٦، ٢٧٨، ٣٠٣)، والنسائي (١: ٢٦٩، ٢: ٢٣)، والبيهقي (١: ٢٤٨، ١٠: ٢٨٨)، وابن خزيمة رقم (١٥٥٤).

[كيفية إزالة المنكر]

وقال رَضيَ اللهُ عنه: «لا يُـزال الـمنكر بمنكر آخر، هل تُغسَلُ النجاسة بالبول؟!».

قال الناقل رحمه الله تعالى: أقول: يعني إذا أمر ونهى ومع ذلك تكبر، ورأى نفسه بعين الكمال؛ لأنّ الكبر والعجب والتعنيف وإظهار الشماتة ونحو ذلك من المنكرات القلبية، وهي أفحش من المنكرات الجسمية التي نُهي عنها، فلا تزول تلك مع وجود هذه.

[عادة أهل العلم إذا ذَكرَ أحدهم عن أحد كلاماً]

وقال رَضيَ اللهُ عنه: «جرت عادة أهل العلم إذا ذكر أحدهم عن أحد كلاماً يحكيه عن نفسه مما يكره لا يحكيه عنه بصيغة لفظه عن نفسه، بأن يكون فيه ضمير المتكلم؛ بل يذكره بصيغة الإخبار عن غيره، فيأتي فيه بضمير الغائب، كما لو حَكَى عن أحدٍ الطلاق، فيقول: قال فلان: امرأته طالق، ولا يقول: قال: امرأتي طالق، وكقال فلان: هو يهودي إن فعل كذا، ولا يقول: قال أنا، وكل ما يجري هذا المجرى».

[من تمكّن في العلم اللدُنِّي لا يلائمُه إلا العلوم اللدنية]

وقال رَضيَ اللهُ عنه: «قد تعلّق الإمام الغزالي في آخر عمره بعلم الحديث،

حتى قال بعضهم: لو طال عمره لأرخص تلك البضاعة، وإنما تعلّق به لأنَّ من تمكن في العلم اللَّدنِّي، وتبحّر فيه، لا يلائمه ويطابعه، إلا العلوم اللدنية، كعلوم الحديث، لأنها من عند الله على لسان رسوله».

وسمعته غيرَ مرةٍ يقول: «كان أكثر تعلُّق الإمام الغزالي من كتب الحديث بجامع الترمذي، حتى روي عنه أنه قال: من عنده جامع الترمذي فكأنما عنده نبيٌّ يتكلم».

[وصف الزمان]

وقال رَضيَ اللهُ عنه: «كأن هذا الوقت مقدمة للحشر، ثم قال: أعني غير الحشر المنتظر؛ لأن كلًّا يقول: نفسي نفسي فقط».

قال الناقل رحمه الله تعالى: يعني لسان حال الناس في هذا الوقت، حيث إن كلاً مشغول بما تهوى نفسه من شهواتها في الدنيا، معَ غفلتهم عما ينفعهم في الآخرة، ولا يلتفت إلى سوى ذلك، فكأنه يقول: نفسي نفسي، كما يقوله الشفعاء من الرسل في المحشر إذا طلب منهم الشفاعة، فما بالك بغيرهم؟ فهذا شغلهم، كما اشتغل أهل موقف القيامة بأحوالهم، لا يلتفت أحد إلى أحد، فكذلك الناس اليوم في شَبَهِهم بهم، فلا يبالي أحد بحق أخيه أو يرحمه، أو يؤوي له من محنة هو فيها، أو ضرورة يكابدها، أو يرجو ثواباً في الآخرة بقضاء حاجة مسلم، إنما همهم مقصور على نفع أنفسهم في الدنيا فقط، لا نظر لهم إلى نفع الآخرة، ولا أحد يهتم لأخيه أو يهمه ما يهمه إذا حصل له ما يهواه، لا يبالي بأمر غيره كما هو شأن أهل المحشر.

وقد قال في بعض مكاتباته لبعض تلامذته في وصف أهل الزمان، فقال: «وهذا زمان قد رفعت فيه الأمانة، ورَقَّت فيه الديانة، وكَثُرَتْ في أهله الخيانة، وأصبح الناس في أمر مريج، مقصورات هممهم على البطون والفروج، سيانِ عندهم الهبوط والعروج، لا يبالي أحدهم إذا نال مشتهاه من دنياه كيف منزلته من مولاه، فالله المستعان، ما هذه ـ والله ـ أخلاق المؤمنين، ولا سجايا الموقنين؛ بل هي شيم الجاحدين، وشمائل الشياطين، ففرّ يا أخي من أهل هذا الزمان فرارك من الأسد، واجتهد في إصلاح المضغة التي إذا صلحت صلح سائر الجسد».

[أداء الواجبات ونوافل الطاعات]

وقال رَضِيَ اللهُ عنه: «إن الله أمر بأداء الواجبات: من صلاة، وزكاة، وصوم، وحج، وغير ذلك، والعبد يفعل، ويرجو القبول، وهو فيها أقرب من غيرها، لأنها دَيْنٌ لله، والله مُطالِبٌ بها، وقليل ما أحد يرد دَيْنَهُ إذا أوصله المديون إليه، ولو كان فيه خلل، وأما النوافل فهي تبرع، فلا تقبل إلا إن كانت على الوجه الأكمل».

[الرضا بالقضاء والقدر]

وقال رَضِيَ اللهُ عنه: «الإنسان ضعيف، ما يريد بطبعه إلا العطاء دون المنع، والعافية دون البلاء، وهذا لا يكون؛ ولكن عطاء ومنع، وعافية وبلاء، وكذلك في كل شيء؛ ولكن إذا نزل بك شيء من ألمٍ تريد دفعه، أو نفع تريد حصوله، فاسْعَ فيه بما له من الأسباب، كتداوي المرض حتى يجيك ما يغلبك، حتى لا يبقى لك قدرة على شيء، فحينئذٍ تَنَحَّ عن طريق القضاء والقدر، ولو كان للإنسان عبد

ما يريد منه إلا العطاء الدائم وكل ما يحب، ولا يحتمل من سيده ما يكره، ضاق منه سيده وباعه في الحال، وهذا سر الرياضة والانقياد، كالزئبق لو فُتِلَ حصل بفتله قلب الأعيان ذهباً وفضة، ونحن وإياكم على ما قال الله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾»[1].

قال الناقل رحمه الله تعالى: قوله: «فاسع فيه...» إلخ، أي: افعل الدواء، ونحوه على المعنى الذي قدمناه، وهو أن ترجو أن الله أبقى فيه خاصيته التي هي البرء من الداء، فإن فعلته ولا رأيته أفاد، فاعرف أن الله تعالى نزع منه تلك الخاصية، فحينئذٍ قد جاءك ما يغلبك من عدم النفع بالدواء، وعجزك عنه، فحينئذٍ تنحَّ عن طريق القضاء والقدر، أي: اصبر لحكم ربك حيث أعجزتك الحيلة في دفع مرضك، وسلِّم، فربما للبرء وقت ما حضر بعد، أو كان قد جعل الله ذلك المرض سبباً للموت، فلا يفيد فيه التداوي بحال.

قوله: «وهذا سرّ الرياضة والانقياد» يعني: الرضا والتسليم والانطراح تحت حكم قضائه وقدره، فإذا أَلِفَتِ النفس ذلك، وانقادت له صادقة، صارت كالزئبق إذا فُتِلَ صار إكسيراً عظيماً إذا وضع منه قليل على نحاسٍ انقلب ذهباً إبريزاً، أو جعل على رصاص انقلب فضة خالصاً؛ لكن قتله مشق جدّاً، وما يحسنه إلا كبار الحكماء الماهرين في علم الكيمياء، كذلك النفس ما يقدر على قتلها إلا أكابر الصديقين والأولياء، فنفوسهم قد صارت إكسيراً عالياً في الانطراح تحت حكم الله، ولسان حالهم يقول: صبرت لحكم الله، وسلّمت لأمر الله، ورضيت بقضاء الله. وتحققوا بحقيقة العبودية، كما قال رسول الله ﷺ: «اعبُدِ الله

---

(١) إتحاف السادة المتقين (٧: ٣٣٨، ٩: ١٩) وحمل الأسفار للعراقي (٣: ٥٧، ٤: ٦٧).

على الرضا، فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خيرٌ كثيرٌ»[١]. فمقام الرضا مقام الخواص خيار الأمة، وأهل مقام الصبر قاصرون عن أحوال أولئك، وهم العامة من هذه الأمة، فصار هوى نفوس الخواص تبعاً لما جاء به النبي ﷺ كما في الحديث: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»[٢]، أي: صار إيمانه إيماناً كاملاً، فهو المقصود من المعاملة من العبد لربه عكس ما تهواه نفوس العوام من كون هواها مجرد تلذذ في الدنيا، وكان ضرراً في الآخرة.

واعلم أنّ المقادير في الأسباب إذا بقيت فيها خاصيتها كالأرواح في الأجساد، فتنفع الأسباب حينئذ، فإذا نزعت منها الخاصية صارت الأسباب كالأجسام الميتة لا نفع فيها.

[كلُّ كلام يخرُجُ وعليه كسوةُ القلب الذي خرج منه]

وقال رَضيَ اللهُ عنه: «قيل: كلّ كلام يخرج وعليه كسوة القلب الذي خرج منه، فإن كان القلب منوراً خرج منه الكلام وعليه النور وإن كان الكلام مظلماً، وإن كان القلب مظلماً خرج منه الكلام وعليه الظلمة وإن كان الكلام منوَّراً».

قال الناقل رحمه الله تعالى: أقول: القلب المنوَّر قلب المتجرد عن الدنيا بقلبه وقالبه، وتجرد لعبادة الله سالماً من أشغال الدنيا وهمومها، فكلامه إن كان منوراً، بأن كان يُرَغِّبُ في خير وينهى عن شر: فذاك، وإن كان مظلماً، بأن كان في هوى

---

(١) ذكره في الإحياء بلفظ: «في الصبر على ما تكره خير كثير» قال العراقي: رواه الترمذي من حديث ابن عباس.

(٢) رواه البغوي في السنة (١: ٢١٣)، والخطيب في المشكاة (١٦٧)، وابن أبي عاصم في السنة (١: ١٢).

أو مباح بلا نية استعانة به على خير فهو مظلم من حيث مادته وعليه أثر نور القلب، والقلب المظلم قلب متعلق بالدنيا محبةً ورغبةً، فكلامه المباح مظلم، وإذا رغَّبَ في خير أو نَهَى عن شر فكلامه منوَّر وعليه ظلمة من مادة ما تعلق به قلبه من محبة الدنيا. فإذا كان القلب منوراً والكلام منوراً أثَّر في قلب السامع تأثيراً عظيماً، كما ذُكِرَ أنَّ الشيخ عبد القادر رَضيَ اللهُ عنه كان إذا تكلم على الناس يسمع لهم الصياح والبكاء والأنين، ويتوب كثير ممن كانوا مُصرِّين عليه من المعاصي، وأسلم من سماع كلامه ألفان من اليهود والنصارى، وكان في لسانه لَكْنَة؛ لأنه كان أعجمياً، وسافر بعضُ بنيه وطَـلَب العلم واللغة والنحو وغير ذلك، حتى أتقن علوم الآلات، فجاء واستأذن أباه أن يتكلم في مكانه على الناس فوق الكرسي، فأذن له، فلما خرج إليهم وصَعِد على الكرسي جعل يتكلم ويتفصح في الكلام، ويجتهد في الإعراب، ويستدل بآيات وأحاديث، ويستشهد بأشعار، فصاح منه الناس واستغاثوا بالشيخ والده، وطلبوا منه أن يأمره بالنزول، وسدُّوا آذانهم بأيديهم عن استماع كلامه عليهم، فأمره بالنزول عن الكرسي، ثم صَعِد الشيخ وتكلم، أو كما قال.

أقول: ورأيت في ترجمة الشيخ عبد القادر في القصة ما معناه: لما استأذنه في الكلام على الناس قال له: إن هذا ليس بالفصاحة والبلاغة وإنما هو سرّ، وتوقف عن الإذن له، فألحَّ وأبى إلا أن يأذن له، فأذن له فصَعِد الكرسي وتكلم عليهم فتبرموا من كلامه، ثم أمره بالنزول، فلما نزل صعد الشيخ فقال: اسمعوا أيها الناس، إنّ أمَّ الفقراء، يعني زوجته، طبخت لي دجاجة، ووضعتها في غضارة، فجاء الهرّ وأكلها، فحصل لهم عندما سمعوا قوله هذا خشوع عظيم، وصراخ وبكاء، ثم نزل وقال لابنه: ألم أقل لك: إن ذلك إنما هو سرّ، وليس بالفصاحة؟ انتهى.

[الرضا بالقضاء والقدر من أمر الشرع]

وقال رَضيَ اللهُ عنه: «القضاء والقدر هو الشرع، فمَن أمرك بالإيمان به إلا الشرع؟ فاعرف الحق واعمل به، واترك الباطل، ولا عليك، فإنّ المبتدعة ضللوا أهل السنة بالقضاء والقدر، قالوا لهم: أما رضيتم حتى كذَّبْتُم ربكم؟ والإعراض عن مثل هذا أحسن، فإنّ الغلو في مثل ذلك ما يحصل منه إلا التضليل، وفساد الدين».

قال الناقل رحمه الله تعالى: واستأذنته أن أنقل من كتاب «اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر» للإمام الشيخ عبد الوهاب الشعراني رحمه الله تعالى أبياتاً كتبها يهودي إلى الإمام القونوي، يسأله فيها عن حكم من رضي بالقضاء والقدر ـ وفيها بلاغة جَمَّة ـ فأجابه بأبيات أخرى طِبْقَها في البلاغة وعلى وزنها.

فقال رَضيَ اللهُ عنه: الحذر تنقلها! فهي في غاية الإشكال، ثم قال: هذه مسألة صعبة جداً، ولا أحد من العلماء بلغ قعر بحرها، وقالوا: لا يتضح أمرها إلا في الآخرة، وأنت تريد أن تدخل لجة البحر من غير سباحة ولا سفينة، فما لك ولهذا الأمر؟! اترك الخوض فيه رأساً، ولك شغل شاغل في العمل الصالح والأخلاق الحسنة عن هذه الأمور، فهل سمعت هذا من قول ابن عربي: «احذروا هذه الطريقة، فإن أكثر الزنادقة ما خرجوا إلا منها»؟ قلت: لا، ثم قال: فإذا كان علم الفقه، وعلم الحديث، في كل منهما فضول لا حاجة إليه، فكيف هذا؟

قال الناقل رحمه الله تعالى: وقوله: «هذه مسألة صعبة جداً...» إلخ،

فحسبك من صعوبتها أن ثلاثة من الأنبياء منهم اثنان من أولي العزم سألوا ربهم سبحانه وتعالى عنها متعجبين من أمرها، مما يرون من وقوع الأشياء على خلاف الأمر. يقول لسان الحال: يا لله العجب، كيف تكون أمور نهى الله عنها، فيكون في ملكه ما لا يريد، أفيعصى ربُّنا قهراً؟! فلما سألوا ربهم تعالى عنها أسكتهم، ولم يجبهم عنها بشيء، وقصة ذلك كما ذكر الإمام السيوطي في «الدر المنثور في التفسير بالمأثور» عند قوله تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عنهما قال: «لما بعث الله موسى عليه السلام وأنزل عليه التوراة، قال: اللهم إنك رب عظيم ولو شئت أن تطاع لأُطِعْت، ولو شئت أن لا تُعْصى ما عُصِيت، وأنت تحب أن تُطاع، وأنت في ذلك تُعصى، فكيف هذا يا رب؟ فأوحى الله إليه: إني لا أُسْأَلُ عما أفعل، ثم سأل عزيرٌ مثل ذلك فأجابه: إني لا أُسْأَلُ عما أفعل، فأبت نفسه حتى سأل أيضاً، فأوحى الله إليه إني لا أسأل عما أفعل، فقال له تعالى: أفتستطيع أن تَصُرَّ صرة من الشمس؟ قال: لا، قال: أفتستطيع أن تجيء بمكيال من ريح؟ قال: لا، قال: أفتستطيع أن تجيء بمثقال من نور؟ قال: لا، قال: بقيراط؟ قال: لا، قال: فهكذا لا تقدر على الذي سُئِلْتَ عنه، إني لا أُسأل عما أفعل، أَمَا إنيِّ لا أجعلُ عقوبتَك إلا أن أمحو اسمك من ديوان الأنبياء فلا تذكر فيهم، فمحا اسمه من الأنبياء فليس يذكر فيهم، وهو نبي!

فلما بعث الله عيسى ورأى منزلته من ربه وعَلَّمَهُ الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، ويبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى، سأل ربه عن ذلك فقال: اللهم إنك رب عظيم... إلى آخر ما تقدم من سؤال موسى، فأوحى الله إليه... إني لا أسأل عما أفعل، وأنت عبدي ورسولي وكلمتي ألقيتك إلى مريم وروح مني، خلقتك من تراب ثم قُلتُ لك: كُنْ فكنتَ، لئن لم تنته لأفعلن بك كما فعلت

بصاحبك بين يديك، إني لا أسأل عما أفعل. فجمع عيسى عليه السلام من تبعه وخطبهم خطبةً بليغةً فقال: القدر سرّ الله فلا تَكَلَّفُوه، وبحر عميق فلا تَلِجُوه[١].

قال الضحاك: لا يُسأل الخلاق عما يقضي في خلقه، والخلق مسؤولون عن أعمالهم[٢]. قال ابن عباس: ما في الأرض قوم أبغض عند الله من القدَرية، وما ذاك إلا لأنهم لا يعلمون قدرة الله تعالى[٣].

وعن جابر، عن رسول الله ﷺ قال: «إن في بعض ما أنزل الله من الكتب: إني أنا الله لا إله إلا أنا، قدرت الخير والشر، فطوبى لمن قدرت على يده الخير ويسّرته له، وويل لمن قدرت على يده الشر ويسرته له، إني أنا الله لا أُسْأَلُ عما أفعل وهم يسألون، وويل لمن قال: كيف وكيف؟»[٤].

وعن ابن عباس قال: لما خلق الله النون ـ وهي الدواة ـ وخلق الألواح فكَتَبَ فيها أمر الدنيا حتى ينقضي ما كان من خَلْقٍ مخلوقٍ أو رزقٍ حلالٍ أو حرام، أو عمل برٍّ أو فجور، ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[٥] [الأنعام: ٥٩]، ثم وكَّلَ بالكتاب حَفَظة، ووكَّلَ بخلْقه حَفَظة، فينسخ حَفَظةُ الخلق من الذكر ما كنتم تعملون في كل يوم وليلة، فيجري الخلق على ما وكل به، مقسوم على من وكل به، فلا يغادر أحداً منهم، فيجرون على ما في أيديهم مما في الكتاب، فلا يغادر منه شيء، قيل: ما كنا نراه إلا كَتْبَ أعمالنا،

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٤: ٥٦٧ - ٥٦٨) وعزاه للطبراني.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن الضحاك كما في الدر المنثور (٤: ٥٦٧).

(٣) أخرجه سعيد بن منصور وابن المنذر عن ابن عباس كما في الدر المنثور (٤: ٥٦٧).

(٤) أخرجه ابن مردويه عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عنه كما في الدر (٤: ٥٦٧).

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور في تفسير سورة الأنعام (٣: ٢٩) وعزاه لعبد بن حميد وابن أبي حاتم.

قال: ألستم بعرب؟ هل تكون نسخةٌ إلا من شيءٍ قد فرغ منه؟ ثم قرأ هذه الآية ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[الجاثية: ٢٩]. انتهى.

فانظر رحمك الله هذا الزجرَ الشديد، والتخويفَ البليغ، والتهديد العظيم منه سبحانه لخواص أكابر رسله من أولي العزم حيث تعرّضوا للسؤال عن هذه المسألة العظيمة، العظيم موقعها، ليتحقق لك كمال صدق قول سيدنا نفع الله به: إنها صعبة جداً، وشدة تقريعه لمحبه عن نقل ذلك السؤال والجواب عنها وتعرضه لها، فالسلامة في السكوت عنها أسلم، وهو قوله: «والإعراض عن مثل هذا أحسن». وقوله: «إنها لا تتضح إلا في الآخرة»، المعنى: أنه لما كانت المقادير في أفعال العباد كامنة ككمون الأرواح في الأجساد، فكما لا يطلعون على أرواحهم وهي معهم وبها صاروا أحياءً إلى أن تُنْزَعَ منهم فيندرجون في الأموات، فكذلك لا يطلعون على مقادير الله وهي مشيئته في أفعالهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢]، ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥]، وغير ذلك، فلا يطلعون عليه في الدنيا التي هي محل التشبيه والتلبيس واشتباه المعاني بالصور وخفاء الحقائق فيها، وأما في الآخرة فتظهر الحقائق على ما هي عليه، ولا يجري فيها التلبيس والتمويه، فعند ذلك تظهر معاني الأفعال والعقائد، ويظهر معنى هذه المسألة الصعبة وحقيقتها على ما هي عليه.

[حفظ الوقت في طاعة الله]

وقال رَضِيَ اللهُ عنه: «من راعى روعي، أنت تريد من الله أن يراعيك، فرَاعِ حقه أنت حتى يراعيك، ومن لم يكن في وقته الحاضر صاحب خير ويقظة، لا

تَسْتَهِنْ[١] له في باقي الوقت يقظة، واليوم ما معهم مما مع أهل الزمن المتقدم، حتى غباره؛ ولكنا أردناهم يستيقظون لأنفسهم، إذا كان الإنسان على قوةٍ يقرأ ما تيسر من القرآن ولو جزءاً، أو مثل هذا، ولا يُضَيِّعُونَ أوقاتهم بلا شيء، فإنَّا نعرف رجلاً كان بعد الفراغ من الدرس، بعد القراءة قُبيل الغروب، يأتي بألفي تهليلة، وهؤلاء ضَعُفَتْ هممهم، حتى سهل عليهم تضييع أوقاتهم، مع أنهم يسمعون العلم، ولا ينهضهم».

[الدعاء للأخ في الله بظهر الغيب من علامة المحبة والأشياء إنما تُعرَف بأصولها]

وقال له رَضيَ اللهُ عنه رجل من السَّادة: ادع لنا، فقال: «وما مع الإنسان ما يصل به أخاه إلا الدُّعاء، والدعاء علامة المحبَّة، ولم يجعل الله دعاء المؤمن لأخيه بظهر الغيب مقبولاً، إلا لما فيه من الإخلاص المقترن بالمحبة، ولهذا جاء الترغيب في ذلك. والأشياء إنما تعرف بأصولها لا بالفروع، فإذا أخذت بالفروع فَتَرَقَّ منها إلى الأصول، ولا عكس، فإذا أخذتَ بالأصول لا ترجع إلى الفروع».

ثم قال له يوصيه: «خَفِّفْ على نفسك من العلائق، ومن اتخاذ الدَّين، فليس الشأن من العاقل إذا وقع في الأمور أن يتخلص منها متى شاء، إنما الشأن منه أن لا يقع فيها أصلاً».

قال الناقل رحمه الله تعالى: الذي يظهر لي أن مراده بالأصول: أعمال القلوب، لقوله: لما فيه من الإخلاص المقترن بالمحبة، والفروع أعمال الجوارح، يعني: أن أعمال الجوارح تحتاج إلى أعمال القلوب كالنية والإخلاص، وأعمال القلوب

---

(١) أي: لا ترجُ له.

وحدها كافية، لحديث: «نية المؤمن خير من عمله»[١]. فاجعل عنايتك بها. وإن اجتمعا تم الأمر، فحصل الأصل والفرع كاجتماع الروح والجسد، والجسد بلا روح ميت كالعمل بلا نيّة فإنه فاسد، وأما الروح وحده فإنه باق بعد مفارقته للجسد، والجسد ميت بعد فراق الروح، كما جعل نية المؤمن وحدها بلا عمل خير من عمله وحده بلا نية، ولهذا جعل القلب وأعماله هي الأصل، وجعل الجسد وأفعاله هي الفروع، والفروع تحتاج إلى الأصول كما تحتاج الثمار إلى الأشجار، ولا عكس، فلا تحتاج الأشجار إلى الثمار؛ لكن الغرض من الأشجار الثمار فطلبت لأجلها، كذلك الأعمال تحتاج إلى الأجساد وشرط صحتها بأعمال القلوب وإلا فما تنفع، كما لا تنفع الأشجار بلا ثمار. وقوله: «ولا عكس»، أي: لا تهمل النية والإخلاص، وتجعل اهتمامك بالعمل مجرداً، وهو معنى قوله: «فإذا أخذت بالأصول فلا ترجع إلى الفروع».

وقوله: «والأشياء إنما تعرف بأصولها لا بالفروع»، يعني: كما أن الدِّين لا يُعرف ولا يتم إلا بأصوله التي هي مباني الإسلام فأحْكِمْها أولاً، ثم أعمِلْ فروعها التي هي نوافلها، فإنَّ في كلِّ نوافلَ من جنسه، فإذا أخذت بها قبل أن تحكم أصولها فَتَرَقَّ منها إلى إحكام الأصول، ثم ارجع إلى عملها ليكون عملها كاملاً نافعاً، وإذا لم تحكم الأصول لا تنفع الفروع، فكذلك في كل شيء من الأمور لها أصول وفروع، فخذ بالأصول منها قبل الفروع، ثم الفروع بعدها، فإن أخذت بالفروع قبلها فترَقَّ منها إلى الأصول لتَحتَكِمَ لك الفروع وتنفعك، وإلا فلا.

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (٦: ٢٢٨)، وإتحاف السادة المتقين (١٠: ١٥)، وأبو نعيم في الحلية (٣: ٢٥٥).

[التعلّق بالطاعات من أعمال الخير]

وقال رَضيَ اللهُ عنه: «من رأيتَ له أدنى تعلق بطاعة وإن قَلَّتْ، أو مَيْلاً إليها، أو بأحد من الصالحين، أو ميلاً مَّا إليه، فارجُ فيه الخير».

[لا تُعادُ الصلاة خلف كل بَـرٍّ وفاجر، وبعد صلاة الجمعة]

وقال رَضيَ اللهُ عنه: «نصلي خلف كل بَـرٍّ وفاجر كما في الحديث ولا نعيد؛ لأن هذا تعنت وغلو في الدين، وقد صلى الأئمة خلف الولاة الظلمة والمبتدعة كدول بني أمية وبني العباس وغيرهم، وإذا صلينا جمعةً لا نعيد ظهراً، والدين شبه الطريق والأئمة كالأدلاء فيه، فإن وجدتَ طريقاً سلكها أحد من الأخيار فاسلكها».

قال الناقل رحمه الله تعالى: أقول: أرى الفقهاء من الشافعية يتـنطعون فيعيدون الظهر بعد صلاة الجمعة، وتقرر عندهم أن الإمام الشافعي دخل بغداد وفيها جُمَعٌ متعددة فصلى جمعة ولا أعاد ظهراً، فما بالهم لا يقتدون به ونية الإعادة تبطل الجمعة؟ ولو نوى إمام الجمعة إعادة الظهر بطلت جمعة كل مالكي صلى خلفه الجمعة.

[مَن اعترضَ على الأكابر هلك]

وقال رَضيَ اللهُ عنه: «من اعترض على الأكابر هلك؛ لأنّ المعترَض عليهم معترِضٌ على الله، والمعترِضُ على الله هالكٌ».

قال الناقل رحمه الله تعالى في معناه: لأن الأكابر تجردت بواطنهم وظواهرهم في هممهم، وأفعالهم لله خاصة خالصة دون ميل إلى هوى وملاحظة لأمور الدنيا، فصارت أحوالهم كلها لله، فمن أنكر عليهم فقد أنكر ما هو لله، فلهذا صار بذلك معترضاً عليهم، ومعترضاً على الله لإنكاره أوامرَ الله القائمين بها، ومنكراً خصوصية الله في خلقه، فهو بذلك هالك.

والأكابر هم الكبراء في الدين البالغون منه غايته، كل منهم على قدر خصوصيته عند الله بقدر ما خصه به من ذلك وبلغه إليه منه موهبةً منه، سبحانه وفضلاً، لا بحول أحد منهم ولا قوة.

[من راقبَ الناس أتعبَ نفسه]

وقال رَضيَ اللهُ عنه: «من راقب الناس أتعب نفسه، وأتعب غيره؛ ولكنه يلزم الحق والرفق، ثم لا يبالي بعد ذلك».

[مَن عَشِقَ علّته فليسَ له طبيب]

وقال رَضيَ اللهُ عنه ـ فيمن يؤمر بالمعروف، مع علمه أنه على خلاف الصواب، ثم لم يمتثل ـ: «من عشق علته فليس له طبيب».

[الجلوس في المسجد وتلاوة القرآن]

وقال رَضيَ اللهُ عنه: «من يضيق من الجلوس في المسجد والقراءة، قل لي ذلك لأي سبب؟ ما هو إلا أنَّ في قلوبهم شياطين يُضجِرونهم من الجلوس فيه،

ومن تلاوة القرآن، مع أنَّ التالي مُجالسٌ رَبَّه، فلا تصلح قلوبهم حتى تخرج منها الشياطين، والملائكة لا تتبع الشياطين، وهذا صراط الله المستقيم، حيث حكي عنه أنه قال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ إلى قوله ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦- ١٧]، وهو يجري من ابن آدم مجرى الدم، إن لحق إلى القلب مدخلاً دخل إليه، وسببه: لقم الحرام والشُّبَه، ومن أكل طعاماً لم يعلم بحرمته فلا لوم عليه من حيث ظاهر الشرع؛ لكن يحصل منه تأثير في غير ذلك».

قال الناقل رحمه الله تعالى: أقول: تأثيره في ظلام القلب وقسوته، بحيث لم يتأثر بالموعظة، ولم يَرِقَّ ويخشع عند التخويف، ولم يتأثر بمعاني القرآن، وكل خرابٍ في أمور الدنيا والدين، وكل خللٍ في القلب والعبادة، وتخلُّفِ الخواصِّ الموعودِ بها في الأذكار والدعوات والأسماء، وعدم استجابة الدعاء، وعدم قبول العقول للعقائد الحق، وعدم اعتقاد القلوب في الصالحين، وغير ذلك من جميع أنواع الفساد، كلُّ ذلك بسبب ذلك التأثير الذي ذَكَرَ أنه يحصل من أكل الطعام الحرام من غير علم بحرمته، وقد صرَّح هنا أنّ سبب ذلك التأثر ودخول الشياطين إلى القلب لقم الحرام والشُّبَه، وإنْ لم يأثم لعدم علمه بالحرمة؛ لأنّ الشرع لم يكلّف ولم يعلّق الجزاء بالمثوبة أو العقوبة إلا بالنية، ولم تكن النية إلا مع العلم بحكم ذلك؛ لأن الشارع ﷺ قال: «إنما الأعمال بالنيات»[1]، ولا نية مع عدم العلم، ومع عدم العلم لم يكن الوسع المعلق به التكليف، قال الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، أي: طاقتها، وما خرج عن العلم خرج عن الوسع والطاقة، ومع خروجه عن

---

(١) رواه البخاري في بدء الوحي (١)، وأبو داود في الطلاق (١٨٨٢)، وابن ماجَهْ في الزهد (٤٢١٧).

عهدة التكليف لا بدّ له من ذلك التأثر المذكور، فإنه يحصل بنفس المباشرة بدون العلم، والنية كأكل الدواء النافع أو الضار، والقابض والمسهل، فيحصل منه النفع أو الضرر، والقبض أو الإسهال، وإن لم يعلم بخاصيته من حصول ذلك منه، فإن ذلك بخاصية جعلها الله فيه بحصول مجرد المباشرة فقط، كما تؤثر مباشرة الأكل والشرب في إزالة الجوع والظمأ من غير ما يتوقف على أمرٍ غيرِ ذلك، ويشمل ذلك المعنى قولَ النبي ﷺ: «كل لحم نبت من سحت فالنار أولى به»[1]، يعني: وإن لم يعلم بحرمته، وذلك على قاعدة إجراء الله العادة بحصول ما وقفه بوقوع المباشرة؛ لكن من عموم وسع رحمة الله فيما كلف به عباده أن وقف ذلك وخصصه بوقوعه مع العلم والنية، فيكون ذلك من الله سبحانه وعداً لعبده بالعفو والمغفرة إذا لم يعلم بالحرمة، ولو حصل ذلك الأثر، ويكون الحديث المذكور مُقَيِّدًا عن هذا الإطلاق بقيد «كل لحم نبت من سحت»... إلى آخره، أي: مع علم التحريم، فالنار حينئذٍ أولى به، فأطلق القول هنا ولم يقيده بالعلم؛ لأجل الترغيب والترهيب، وقد قيده في التكليف، حيث حصر الأعمال بأداة الحصر الحاصرة ما بعدها عما قبلها حيث قال: «إنَّما الأعمال بالنيات» أي: الأعمال المعتد بها شرعاً في عهدة التكليف المتوقف عليه الجزاء بالثواب أو العقاب، ودل على أنَّ ذلك الأثر إنما هو خاص بالخاصية وهو مستلزم بالمباشرة فقط، وأما ما يتعلق بالتكليف فمتوقف على العلم والنية.

ويكفيك دليلاً لما ذكره سيدنا من حصول ذلك الأثر ما تراه بالعيان من شدة بلاهة الناس كافة، وضعف رغبتهم في أمور دينهم، وقوة حذاقتهم وشدة

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (١٩: ١٣٦) وفي الصغير (١: ٢٢٥)، والبيهقي في الشعب، وذكره القرطبي في تفسيره (٦: ١٨٣).

رغبتهم في أمور دنياهم أكثر بأضعاف كثيرة، فمن أي شيء هذا؟ إلا من ذلك الأثر، أثموا في تعاطيه أو عُذِروا؛ ولكن مع العذر يترجح جانب الرجاء والطمع في عفو الله ولو مع ذلك الأثر أكثر من جانبه مع عدم العذر، فتبين بهذا قول من قال ـ وأظنه حديثاً ـ: «من أكل الحلال أطاعت جوارحه شاء أم أبى، ومن أكل الحرام عصت جوارحه شاء أم أبىٰ»[١]، لأنه إذا أبىٰ، وحصل ذلك مع إبائه، أي: بغير علمه، فقد حصل التأثر من مأكوله بالخاصية مما يقتضيه الطعام من حلٍّ أو حرمة، بطاعة أو معصية، بثواب أو عقوبة، وهكذا على الوجه المقرر.

وقد سمعت سيدنا غيرَ مرةٍ يقول: قال الإمام الغزالي: لو أكل الناس الحلال أربعين يوماً خربت الدنيا! يعني: لو أكلوا الحلال الخالص هذه المدة أثر معهم بالخاصية التي أودعها الله فيه من الخير والبركة، حتى حصلت منه الطاعة بغير قصد منه، وأثَّرَ تنويراً لقلوبهم وصلاحاً في جوارحهم، فزهدوا بسبب ذلك في الدنيا، وأقبلوا على الآخرة، وتركوا أسباب الدنيا فلم يعمروها، فلا غَرْوَ أنها بذلك تخرب وتذهب، ولو خربت لخرب الدين معها لأنها قوامه، كما في الدعاء الوارد: «اللهم أعني على ديني بدنياي، وعلى آخرتي بتقواي، اللهم وسع علي من الدنيا، وزهدني فيها، ولا تزوها عني فترغبني فيها»[٢]... إلى آخر الدعاء، ذكره السيوطي في «الجامع الكبير». وليس هذا القدر المعين على الدين من الدنيا؛ بل هو من الدين لمن استعان به عليه؛ لأنَّ ما أعان على شيء: له حكمُه، ولهذا طُلِبَ السعي فيه بأسبابه من كل أحد من الناس، حتى للمشتغل بالعبادة، وفَعَله أنبياءُ وأولياء.

---

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ حديثاً، والله أعلم.

(٢) رواه الطبراني في الدعاء برقم (١٤٤٩) عن جابر رَضيَ اللهُ عنه، وإسناده ضعيف.

[مزية التواضع]

وقال رَضيَ اللهُ عنه: «الْزَقْ بالأرض تواضعاً، فإنّ الله تعالى ما خلق الخلق إلا ليتواضعوا لعظمته، وإلا فخزائنه مملوءة من الأعمال، ولا اعتراض على المتواضع، وما يحيد المعترض، وذكَرَ هذَيْن البيتَيْن (شعراً):

تواضَعْ تكنْ كالنجم لاحَ لناظرٍ ... على صفَحاتِ الماء وهْو رفيعُ
ولا تكُ كالدخّانِ يرفَعُ نفسه ... إلى طبقاتِ الجوِّ وهْو وَضِيعُ

[ذمُّ رؤية النفس]

وقال رَضيَ اللهُ عنه: «لا تَعُدَّ شيئاً من يَعُدُّ نفسه شيئاً، وإنما الشيء من لا يَعُدُّ نفسه شيئاً، ومن قال: أنا أهل ـ وإن كان كذلك ـ قيل له: لست بأهل، ومن قال: لست أهلاً ـ وهو كما قال ـ قيل له: أنت أهل».

قال الناقل رحمه الله تعالى: أقول: المذموم الساقط عند الله وعند خلقه، من يرى لنفسه ـ ولو كان ذا فضل ـ فضلاً، فرؤية النفس هي المُخَذِّلةُ له والواضعة قدرَه عند الخالق والخلق، كما أفهمه كلامه، وكما هو معلوم أيضاً، حتى أنَّ الغافل عن رؤية النفس مع نقصه يعد كاملاً، والكامل مع رؤية النفس يعد ناقصاً كما دل على ذلك سياق هذه العبارات.

وقال رَضيَ اللهُ عنه: «إذا اعتقد الصالح في نفسه الصلاح بطل صلاحه، ثم قال: احفظوا ذلك».

[الاستقامة خير من الكرامة]

وقال رَضيَ اللهُ عنه: «الأمور الخارقة للعادة ما هي بعيدة في كرم الله وقدرته لمن أكرمه، ولا هي بعيدة من أفعال الشياطين، والعمدة على الاستقامة، وإن ذُكِرَ عن أحدٍ الطيران في الهواء، والمشي على الماء، فإنَّ الشَّيْطان يطير من المشرق إلى المغرب في لحظة، ولا يفعلها من صح له قدمُ الولايةِ إلا لضرورة، كتوبة مريد، كيف يفعلون ما في هوى النفوس وهم يجتهدون في قطع هوى نفوسهم؟!».

قال الناقل رحمه الله تعالى: قوله: «فإن الشيطان يطير...» إلخ، أي: لا عبرة بهذه الخوارق إلا مع الكرامة الحقيقية المذكورة، ودونها كذب ودعوى وتلبيس، ومن أعمال الشياطين، فافهم ذلك، ولا تغتر بدعوى من ادعى، فإنَّ ذلك يدل على الجهل وضعف الإيمان، وكيف يُصَدَّق؟

وقوله: «كتوبة مريد»، أي: إنْ كُشِفَ له عن حاله أن الله يوفقه للتوبة بسبب الكرامة، وإلا فلا يلزم من رؤية الكرامة حصول التوبة، فمعجزات الأنبياء أبلغ من كرامات الأولياء، ولا كل من رآها آمن إلا من جعلها الله سبباً له إلى ذلك.

[كل مُدّعٍ لا بد أن يقيِّض الله من يعجزه]

وقال رَضيَ اللهُ عنه: «كل مدعٍ مخذول، ولا بُدَّ أن يُقَيِّضَ الله له من يُعْجزه فيَنخَذل عند ذلك، ولو كان كثيرَ العلم، وما نرى أحسن للإنسان من الاعتراف،

وطرح نفسه في الأرض، فإنْ كان عنده فضل فما يزيده ذلك إلا رفعة، وإن كان غير ذلك فقد خُلِقَ من التراب فلا لوم عليه إذا صار فيما خلق منه».

ثم قال: «وذكر الشعراوي أَنَّ رجُلاً من العلماء قال: لا أعلم في هذه الأمة بعد أبي بكر الصديق أعلم مني، فقال له رجلٌ آخر: صدق الأستاذ، فكم في لحيتك من شَعْرة؟ فلم يجد جواباً، فاختذل بسبب دعواه، وكذا وقع لابن عربي في قصته مع دابة البحر».

قال الناقل رحمه الله تعالى: قوله: «ولا بدّ أن يقيض الله له من يعجزه»، فلقوله هذا وقائع كثيرة للأنبياء والمرسلين، والأولياء والصالحين، ولغيرهم من الأكابر، وعموم الناس شاهدة له، تدل على أنَّ المُـدَّعي لشيء من علم أو قدرة على أمر من الأمور لا بدّ أن يقيض الله له ما يبين له به عجزه عن ما ادعاه؛ لأن الله سبحانه يريد من خلقه أن ينطرحوا تحت أمره وقضائه وقدره، ويفوّضوا الأمور كلها إليه، ولا يدعوا معه شيئاً في أمرٍ ما قط، ولو في أقل قليل، فمن تلك الوقائع ما ذكر الشعراوي عن ذلك المدعي: فقيض الله الذي سأله كم شعر لحيته، فتحير وانخذل.

وكذلك سبب ما وقع لسيدنا موسىٰ معَ الخضر عليهما السلام، أنَّ موسى خطب في بني إسرائيل خطبةً بليغة، فسأله رجل: هل على وجه الأرض أحد أعلم منك؟ قال: لا. فعتب الله عليه حيث لم يردَّ العلمَ إليه، فقال الله سبحانه لموسى: بل عبدنا خَضِرٌ هو أعلم منك، قال: أين أجده؟ قال: بملتقى البحرين، يعني: البحر المالح والحلو بفَيْلَكَة، وهناك مشهد للخضر حيث التقيا، ثم أباح للخضر خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار، وذلك بخلاف علمه، فهو أفضل منه، أي: أعلم منه بإباحة ذلك فقط، حيث لم يعلمه ليتبَيَّن لموسى عليه

السلام أن هنا مَن هو أعلم منه بإباحة تلك الأمور عند الله فيعلم أنّ علم ذلك من وراء علمه، وليس في علمه إباحة ذلك، ولذلك أنكره عليه، وما المراد من كل ما وقع إلا أن يتبين له أن الأمر بخلاف ما ادعى من كونه ما على وجه الأرض أحد أعلم منه بتبيين أن هناك من هو أعلم منه ممن عَلِمَ ما لم يعلمه، وأن تضاف الأمور كلها إلى الله سبحانه، فكان أوَّلَ ما ناجاه به الخضر كما علم منه ظنُّه ذلك، ووقع له بعد ما وقع، فحينما ركبا في السفينة وقع عصفور على حرف السفينة ووضع منقاره في الماء يشرب، فقال الخضر لموسى ـ مشيراً إلى ما في نفسه مما ظن ـ: اعلم يا موسى أنَّما علمي وعلمك وعلم جميع الخلق أجمع في علم الله إلا كما نقر هذا العصفور من هذا البحر ـ إشارةً منه إلى القلة ـ لا أنَّ علم الله سبحانه يدخله النقص، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. ذكره الشعراوي.

وكذلك النبي سليمان عليه السلام لما طلب من الله تعالى أن يجعل أرزاق الخلق على يديه مدة سنة، قال الله تعالى: إنك لا تقدر على ذلك، فلا تغتر بملكك، ولو أني أعطيتك ملكاً عظيماً فإنه بالنسبة إلى ملكي لا شيء، قال: إذاً مدة شهر، قال: لا تطيق ذلك، قال: فجمعة، أي: أسبوع، قال: لا تطيق ذلك، قال: فيوم واحد، فقال الله تعالى: فاستعد بما معك من الطعام، وابدأ بدوابِّ البحر أولاً قبل دواب البر، فأخذ في جمع الطعام مدةً طويلةً، فذبح ألوفاً كثيرةً من الإبل، ومثلها من البقر، ومثل ذلك من الغنم، واستعد بألوف أحمال جمالٍ وبغالٍ وحميرٍ من الطعام، ومد سماطه على ساحل البحر فراسخ كثيرة، فأخرج الله له حوتاً واحداً من البحر فأكله كله، وبقي يتلهف من الجوع، وطلب الزيادة، فقال له سليمان: لم يَبْقَ لي شيء، ثم قال له: أنت تأكل في كل يوم مثل هذا؟ فقال: رزقي في كل يوم ثلاثة أضعاف هذا؛ ولكن الله لم يطعمني اليوم إلا ما أطعمتني، فليتك

لم تضيفني، فإني بقيت اليوم جائعاً حيث كنت ضيفك، وقال: لا واخَذَك اللهُ يا ابن داود، فما جعت قط مثل هذا اليوم حيث وُكِلْتُ إليك! فسأله سليمان: هل في البحر حوت مثلك؟ قال: إني لفي زمرة ـ أي: جماعة ـ من سبعين زمرة، كل زمرة عدد دواب البر والبحر، ما في زمرة منها أصغر مني، فتعجب النبي سليمان عليه السلام، وقال: سبحانك يا رب، ما يَكْفِي خلقَك غيرُك! فتبين له عجزه عمَّا ادعاه، وظنه في نفسه من القوة على ذلك.

وهكذا جرت عادة الله في كل من ادعى أن له معه قدرةً من أخيار أو أشرار أن يكذبه، ويبين له عجزه عما ادعى، كمثل عاد حيث قالوا: من أشد منا قوة؟ عجبوا بقوتهم لكبر جثثهم، فأكذبهم الله بما سلط عليهم فأهلكهم، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

وكذلك صاحب الأهرام بمصر، لما علم بوقوع الطوفان في وقت نوح بنى هذا البناءَ على جبل عال، وجعلها مختومة من أعلاها وأسفلها وجوانبها بهذا البناء المحكم، ونزل فيه بأهله وحاشيته، يريد أن يطفوَ على الماء، ثم إذا نضب الماء خرج بمن معه سالمين، فلما علاه الماء سلط الله عليه جرذاً من أعلاه فثقبه، فدخل عليهم الماء، فحشرهم فيه فأهلكهم، ولو علم بانيهِ عدوُّ الله بأن قدرة الله لا تغالب ما فعل، وها هو بناؤه يُرى إلى الآن محكماً من قبل طوفان نوح، وعلى هذا جرت عادة الله، فلا يزعم أحد ويغتر بأمر؛ بل الانطراح تحت أمر الله وقضائه وقدره والتواضع له أنجى وأسلم.

وكذلك ما أشار سيدنا إليه من قصة ابن عربي مع دابة البحر، وقد ذكرها ابن عربي في بعض كتبه، قال: إنه ركب البحر فعصفت عليهم الريح، ووقع عليهم الطوفان، وجاءهم الموج من كل مكان، فنظر ـ أي: ابن عربي ـ إلى البحر، وقال:

اسكن يا بحير، فإن فوقك بحراً، يعني: بحراً في العلم، يشير بذلك إلى نفسه، فأخرج الله له سمكةً من البحر فكلمته وقالت: أتزعم أنك بحر في العلم؟ قال: نعم، قالت: فأسألك عن مسألة فإن أجبتني عنها فأنت بحر في العلم كما زعمت، وإن لم تجبني فلست كما زعمت، وليس معك علم، قال: اسألي، قالت: إذا مُسخ الرجل عن زوجته من صفة الآدمي، فماذا تعتد زوجته؟ عدة طلاق أو عدة وفاة؟ قال: فتحيرت، ولم أعرف لها جواباً، فقلت: لا علم عندي في ذلك، فقالت: كيف تزعم أنك بحرٌ في العلم؟ قلت: قد عجَزت، قالت: أفأخبرك وتصير تلميذاً لي؟ قال: قلت: نعم، فقالت: إن مسخ جماداً اعتدت عدة وفاة، وإن مسخ حيواناً اعتدت عدة طلاق، فأقر لها بالتلمذة، وذكرها في جملة مشايخه في كتابه الذي ألفه فيهم وعددهم فيه، أو كما ذكروا الجماد حيث لا روح فيه كانت عدته عدة الميت حيث لا روح فيه، والحيوان حيث فيه الروح كانت عدته عدة الطلاق الواقع من الحي ذي الروح.

وكذلك ذاك الذي قال: اسألوني، فلو سألتموني عن كل ما تحت السماء لأجبتكم، فقيض الله له مجنوناً فقال له: النملة التي تكلمت للنمل في شأن سليمان: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾ [النمل: ١٨]، أذكرٌ هي أم أنثى؟ فحار، ولم يجد جواباً، وقال له: أخبرك وتترك الدعوى وتقر بالعجز؟ قال: نعم، قال: هي أنثى، لقوله تعالى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ فلو كان ذكراً لقال: قال نملة، وغير هذه الوقائع وقائع كثيرة لا تحصى في هذا المعنى.

[العمل بالعلم]

وذكر رَضِيَ اللهُ عنه العمل بالعلم، فقال: «إن لم يمكنك العمل به كله فتفعل

جميع الطاعات وتترك جميع المنهيات، فافعل من الطاعة ما تيسر مع العزم على فعل الباقي، واترك العمل ببعض المعاصي مع العزم على ترك الباقي، فَانوِ ذلك، فقد يحصل بالنية ما لا يحصل بالأعمال حتى يَقِلَّ تحسره في الآخرة إذا رأى درجات العاملين، إذ لو ترك جميع ذلك لطالت حسرته، ومعلوم أن من ترك العمل، وجلس عاطلاً باطلاً طال في الآخرة حزنه، ولا يكون فيه خير ولا بركة، ولو أنكر على أحد في صلاة أو زكاة أو غير ذلك وهو متلبس بما أنكره فماذا ينفعه علمه؟ فتكثر حسرته، سيما إن انتفع بعلمه غيره، فهذه قاعدة: أن كل ما جاء به الشرع إذا لم يعمل به كله تكثر حسرته، أو بعضه فأقل من ذلك».

قال الناقل رحمه الله تعالى: أقول: قد جمع رَضِيَ اللهُ عنه في هذه المقالة فأمر ونهى وبيَّن، وحذر وأنذر، فبيَّن أن من عمل بجميع العلم، وهو العمل بجميع الواجبات والمندوبات، وترك جميع المحرمات والمكروهات، أنه يكثر فرحه وسروره في الآخرة، فإن لم يمكنه ذلك كله فليفعل من الطاعة ما تيسّر بفعل جميع الواجبات، وما تيسر من المندوبات، وترك جميع المحرمات، وبعض المكروهات، كذا فسَّروا حديث: «إنكم في زمان؛ من ترك العمل بعُشْر ما يعلم هلك، وسيأتي زمانٌ من عمل بعشر ما يعلم نجا»[1]، أن الواجب عُشْرُ المأمورات، وأن المحرم عُشْرُ المنهيات، فمن اقتصر على ذلك في الفعل والترك في زمانهم هلك، أي: لا يقنع منهم بذلك دون فعل المندوبات وترك المكروهات، لصلاح زمانهم، وقوة الإيمان في قلوبهم إذ ذاك، وسيأتي زمانٌ يقنع منهم بذلك، وهو كثير منهم فينجون به؛ لأن الواجب فعله أو تركه، هو رأس مال المتجر والباقي فائدة، كما

(١) رواه الترمذي في الفتن (٢٢٦٧) عن أبي هريرة بلفظ: «إنكم في زمان من ترك منكم عشر ما أمر به هلك، ثم يأتي زمان من عمل منكم بعشر ما أمر به نجا».

قال: الإنسان مُتَّجرٌ لنفسه، فلا يقنع منه بذلك دون الفائدة في الزمن الصالح، ويقنع في الزمن الفاسد.

[الحذَر من الشيطان]

وقال رَضيَ اللهُ عنه: «قعد الشيطان لكل أحد على طريقه التي يصل بها إلى الله تعالى، لأنه عدو ممارس عارف بالطرق، فجاء لبعضهم في البخل ومحبة الدنيا، ولآخر في الرياء والكبر وغير ذلك، وأهل أخلاق السوء كل منهم هو متصف بها، ويعمل على مقتضاها، وإن لم يعرف تفصيلها ويعبر عنها، كالضعيف الذي يحب أن يكون أحسن من غيره، وإن فعل أمراً أحب أن يُرَى، فهذه الأشياء ونحوها هي الرياء والكبر المجبول عليها، وأما أضدادها كالإخلاص فإنها من ثمرات التوحيد، لا تهتدي العقول إليها حتى جاءت الأنبياء وعَـرَّفوا الناسَ التوحيدَ وثمراتِه، وقد يُدْرَكُ بالعقل الخالق للأكوان؛ ولكن لم يهتدوا إليه إلا بتعريف الأنبياء، فمن نظر السماوات والأرض وغيرهما ولم يعتقد أن لها خالقاً فهو مصاب في عقله، وما أجهل من يفعل صنماً بيده ويعبده! وبعضهم يجعله من سكر، فإذا جاع أكله!».

قال الناقل رحمه الله تعالى: قوله: «ممارسٌ ـ أي: مُجَـرِّبٌ ـ عارفٌ بالطرق»، أي: أنواع ما يُتَقَرَّبُ به إلى الله، فيصدهم عنها إلى أضدادها، كما ذكر من البخل ومحبة الدنيا؛ لأن المتقرَّب به إلى الله الزهدُ في الدنيا، فصدهم عنه إلى محبتها، والإخلاص والتواضع ومحاسن الأخلاق هي المتقرَّب [بها] إلى الله عزَّ وجلّ، فصدَّهم عنها إلى أضدادها المذكورة من الرياء والكبر ومساوئ الأخلاق، وغيرها.

قوله: «وإن لم يعرف تفصيلها ويعبر عنها، كالضعيف»، هو: الفلاح الذي يحترف في النخيل والزروع، مَثَّلَ به لأنه أشد الناس جهالة وعجزاً عن معرفة أحكام الله تعالى، وإذا فعل أمراً أحبَّ أن يُرَى، أي: إذا فعل عبادةً أحَبَّ أن يراه الناس، لسوء جهله بحقائق الدين.

قوله: «ولكن لم يهتدوا إليه»، أي: إلى معرفته وعبادته.

قوله: «مصاب في عقله»، أي: ناقص العقل، فإن أهل الكهف برؤيتهم السماوات والأرض، علموا أن الذي خلقها هو الذي خلقهم، فقالوا: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾[الكهف: ١٤]، أي: لا نعبد معه غيره.

[مجاهدة النفس وصيانتها عن المخالفة]

وقال رَضِيَ اللهُ عنه: «هذا الزمان هو الذي قال الله تعالى فيه: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، والأمور فيه، فعلى الإنسان فيه بخاصة نفسه يمنعها من كبر وحسد، وغل وحقد، ولا عليه في ذلك من غيره».

قال الناقل رحمه الله تعالى: أقول: كان السلف الصالح قد نهوا أن يحتج الإنسان لنفسه بهذه الآية ويترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأنه شرط فيها أنه ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾. ومن جملة الاهتداء الأمر والنهي، فمن تركهما فليس بمهتد، وهذا كان في الزمن الصالح الذي كانت فيه أمور الدين قائمة مُتَّبَعة، وأما إذا فسد الزمان، وتعطلت فيه أمور الدين، كحالته اليوم، فلا يُتَّبَعُ فيه أمرُ مَن أمَرَ، ولا نَهْيُ من نَهَى، فلا فائدة في شغل، وتضييع وقت، وعناء بلا فائدة، وهكذا هو هذا الزمن الحاضر عند قوله هذا الكلام،

فعلى الإنسان حينئذ أن يتجرد فيه لأمر نفسه ونهيها، فإنه والٍ عليها، فيجاهدها كما أمر بقوله: «يمنعها من كبر»... إلخ، ويقوم عليها في نهيها أولاً، وأشَدُّهُ هذه المذكورات في قوله، ثم في باقي المنهيات الباطنة، ثم الظاهرة، ثم يأمرها بفعل الخير، والعمل الصالح ظاهراً جسمانياً، وباطناً قلبياً بعد النهي؛ لأن «دَرْء المفاسد مقدم على جلب المصالح»، ولا بدّ من الأمرين معاً؛ لكن التنظيف عن القَذِرات يقدم على وضع الطيبات، وخطبة سيدنا أبي بكر رَضيَ اللهُ عنه فيما يتعلق بالآية، مع خبره الذي يرويه عن رسول الله ﷺ، معلومان، وذلك بمقتضى وقته وزمانه، بخلاف ما يقتضيه وقت سيدنا عبد الله وزمانه، وأما وقتنا هذا وزماننا فأفظع وأبشع، وهو عام (١١٦٩هـ)[1].

[مظاهر الحسد]

وقال رَضيَ اللهُ عنه: «الحسد يدخل ـ أو قال: يظهر ـ على الإنسان في كلامه وأحواله من غير شعور منه، وهو لا يظن ذلك من نفسه؛ بل يرى أنه بريء منه، وهو من أكبر الذنوب، وبه هلك إبليس، وقابيل».

[أسباب موت القلب]

وقال رَضيَ اللهُ عنه: «من تهاون بطاعة الله الظاهرة ووقع في معصيته، لا بدّ له من الموت عاجلاً وآجلاً، وأول ما يموت منه قلبه».

---

(١) أقول: وكيف حالنا هذا الزمان وهو عام (١٤٣١هـ)؟! نسأل الله السلامة، حيث انتشر الفساد على مرأى ومسمع من الجميع، وزال الحياء، وعمّت الفتن، نسأل الله الثبات وحسن الخاتمة.

[أثر الأوراد]

وقال رَضيَ اللهُ عنه: «الأوراد لا تؤثـر إلا مع الحضور، ولا تنفع إلا مع الدوام».

[المحافظة على الفرائض]

وقال رَضيَ اللهُ عنه: «إنما يستدل على كمال الشَّخص بتأديته الفرائض على كمالها؛ لأنها عمود الدين، فمَن أقامها بواجباتها، وسننها، وحضورها، من غير وسوسة، دلَّ ذلك على كماله، وحسن عناية ربه به، وإن عكس، دلَّ ذلك على عكس ما ذُكِرَ».

قال الناقل رحمه الله تعالى: أقول: إذا أداها على هذا الوصف دلَّ منه على الإيمان، والتقوى، وعلى ولاية الله له ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٣].

قال الشيخ عبد الله العيدروس: كل مؤمن ولي، فالولي هو المؤمن التقي الذي تحصل منه الكرامات، وتنخرق له العادات.

[عدم إظهار الأولياء كراماتِهم في هذا الزمان]

وقال رَضيَ اللهُ عنه: «إنَّ أهل الكرامات من الأولياء قَلَّ أنْ يُظْهِروا منها في هذا الوقت شيئاً، لفساد الزمان، وتعلُّق أهله بالدُّنيا، فلو قال وليٌّ لواحد

منهم: قُمْ، وانظر في المحل الفلاني من بيتك تجد فيه ألف درهم، خذها وأعط الفقراء منها خمسين درهماً لَـبَخِل ولم يسمح بشيء، وأراد أن يأخذه كله، وقال: لو كان هذا ولياً لـمَا أراد مني شيئاً! فانظر أحوالهم هذه ما أبعدها من الصلاح والاعتقاد، وما أقربها من الطمع والفساد».

قال الناقل رحمه الله تعالى: أقول: ومصداق قوله ما قال الشيخ عبد الله ابن علي صاحب الوهط، قال: صاح شاووش الأولياء بعد الأربعين والألف أن لا أحد يظهر شيئاً مما عنده. ذكره في «المشرع الروي»، وغيره.

[لا تصلح الخَلوةُ والرياضة في هذا الزمان]

وقال رَضيَ اللهُ عنه: «لا تصلح الخلوة والرياضة في هذا الزمان لعدم شروطها فيه، كأكل الحلال وغير ذلك؛ ولكن من بنى أمره فيه على ملازمة الفرائض، وترك المحرمات، وما استطاع من نوافل، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وإعانة ضعيف، وإحسان إلى محتاج، أو إقامة بمؤنته، وما شاكل ذلك، وثبت عليه، حصل له ما حصل لأولئك برياضتهم وخلواتهم، وأدرك ما فاته منها».

[أهل الزمان تغلِبُ عليهم العادة]

وقال رَضيَ اللهُ عنه: «أهلُ الزَّمان تغلب عليهم العادة، سواءٌ صَلُحت أو فسدت؛ لأنهم عدموا من يقتدون به من الأخيار، فبقوا على آرائهم، وهذا الزَّمان قليل الأخيار من أخيار الدين، وأخيار المروءة».

قال الناقل رحمه الله تعالى: مفهومه أنَّ الزمان كثير الأشرار: أشرار الدِّين، أي: الفسقة والظلمة والفجرة، وأشرار المروءة، أي: اللِّئام أهل الشح والبخل؛ لأن أهل هذه الأوصاف من أصناف النَّاس مع كُمَّلِ المؤمنين ضدان متلازمان إذا فُقِدَ أحدُهما وجد الآخر، وأهل هذه الأوصاف الخبيثة هُم اليوم أكثر أهل الأرض، ولو لم يبقَ من هذه الأمة من أهل الخير في جميع أقطار الأرض إلا واحد لصدق عليها أن الخير فيها باقٍ لم ينقطع، وصدق به قولُ الملائكة والنبيين: «أبشر يا محمد، فإنَّا نرى الخير فيك وفي أمتك إلى يوم القيامة»، ولو لم يبقَ على الحق الـمَرْضيِّ عند الله من هذه الأمة على وجه الأرض كلها إلا واحد لصدق به عليها أنها لم تجتمع على ضلالة، وصدق به قوله ﷺ: «لا تجتمع أمتي على ضلالة»[1] فضلاً عن أنه قد صح عنه ﷺ أنه قال: «إن طائفة من أمتي لا تزال قائمةً على الحق لا يضرها من خالفها حتى يأتي أمر الله، حتى إنهم ليقاتلون المسيح الدجال»[2]، فهكذا وعد به الصادق الأمين كما جاء عنه في الأحاديث الصحيحة كما في الصحيحَيْن وغيرهما. وسئل عليه الصلاة والسلام عن تلك الطائفة: مَن هم؟ فقال: «الذين هم على ما أنا عليه، وأصحابي»، يعني: في العقائد، والأعمال، والأخلاق، يعني: عقيدة أهل السنة التي قررها الإمام الغزالي في عقيدته في

---

(١) رواه أحمد والطبراني في الكبير عن أبي ذر الغفاري، وابن أبي عاصم في السنة عن أبي مالك الأشعري، وأبو نعيم، والحاكم، والترمذي عن ابن عمر، وعبد بن حميد، وابن ماجَهْ عن أنس، والحاكم عن ابن عباس، والترمذي، وابن أبي عاصم عن ابن مسعود موقوفاً. وبالجملة، فالحديث مشهور المتن وله أسانيد كثيرة، وشواهد عديدة في المرفوع وغيره (كشف الخفا ٢: ٤٧٠).

(٢) رواه الشيخان، وأحمد عن معاوية رَضِيَ اللهُ عنه، والترمذي (٢١٩٢، ٢٢٢٩)، وابن ماجَهْ (٦)، والحاكم (٢: ٧١)، وأحمد (٤: ١٠٤)، وأبو داود في الفتن باب (١).

الإحياء، وأعمالهم: من صلاة الجمعات، والجماعات، وإقامة الصلوات، والزكوات، ومباني الإسلام كلها، وجميع الطاعات من الأعمال والأقوال، ومكارم الأخلاق، وترك سفاسفها.

وإنما مراد سيدنا أنّ النّاس اليوم اختلفت أحوالُهم في الديانات، والمروءات، والعادات الحسنة إلى ضدها، عن الحال الأول؛ وذلك لقربهم من قيام السَّاعة، وتلك الطائفة المتصفة بالحق مع الفساد في الـزَّمان هي على ما هي عليه من الاستقامة لا يضرها ذلك شيئاً، وكل هذا التناقض إنَّما هو فيما يتعلَّقُ بأحوال الخَلْق ممَّا يتعلق بمعاملاتهم مع ربهم، وبعضهم مع بعض فقط، وأمَّا ما يتعلق بالقدرة الإلهية، والإرادة الأزلية فكل شيء على ما هو عليه، ما اختلف عن حاله ولا يختلف ما دام هذا العالم، حتى يأتي أمر الله.

ويجب على الإنسان العاقل، الراغب في الخير، الكاره للشر، إذا رأى التناقص في هذه الأمور، سِيَّما الدّيانات والمروءات، أن يرفع نفسه عن النقص في أمر دينه ومروءته، إلى الكمال فيهما، ولا يرضى لنفسه بنقص الحظ في الخير، ولا ينجذب إلى النقص بميل طبعه لمخالطته لأهل وقته، ويدعو إلى الكمال مَن ساعده من أولاده وأهله وأقاربه، ومن يشفق عليه، فلعله إذا كَمُلَ أن يلتحق بتلك الطَّائفة المبجلة، أو كملوا أن يلتحقوا بها.

قال الناقل رحمه الله تعالى في موضع آخر: ومن اختلاف الزمان، ورجوع الأمور فيه عن أوضاعها إلى أضدادها، بعدما كان النَّاسُ ـ سِيَّما المتشبهة بطلب العلم ـ على التَّـقَلُّلِ من الدُّنيا إمَّا زهادةً أو قناعةً، صاروا اليوم ـ سِيَّما المنتسبين إلى العلم ـ يتهافتون تهافت الفراش على النَّار على خمسة أنواع من المال يظنون أنهم يأكلونها، وإنما هي تأكلهم:

أولها: التولي على ثلث ميت، وقد سمعتُ رجُلاً يقول لسيدنا عبد الله نفع الله به: يا سيدي، أشكو إليك أنه لا يعيش لي ولد، فقال له: هل عندك ثلث ميت متولٍّ عليه؟ قال: نعم، قال: من هو متولٍّ على ثلث لا يعيش له ولد؟[1] وإن عاش له ولد لا يكون فيه بركة، ولقد رأيتُ أناساً كان الرجل منهم متسبباً في طلب الحلال وعليه أثر الغنى ويَفذُّ منه معروف كثير للضعفاء والمساكين والمحتاجين، ثم تولى ثلثاً، فأكله الثلث حتى افتقر، وصار لا يفذ منه من المعروف لا قليل ولا كثير، فهذه المشاهدة تكفيك عن الخبر.

ثانيها: أموال الوظائف والأوقاف المعينة على شيء، كأوقاف المساجد، يتهافتون عليها ويطلبونها على ظَنٍّ أنهم يأكلونها، وإنَّما هي تأكلهم، قال بعضهم: ما رأينا رجلاً قط استغنى من الوظائف؛ بل الفقر بادٍ عليهم أكثر من الفقراء الذين لا يملكون شيئاً.

ثالثها: أموال المتولي على أموال الأيتام، إذ لا بركة فيها، بل الشَّر فيها أكثر، والضرر في ذلك غالباً مما يضر في الدين والدُّنيا والآخرة، كما هو مشاهد.

رابعها: الأموال الحاصلة من أيدي الحكام والسَّلاطين والأمراء، فقد كانوا في أموالهم الحلال أغلب، وكان أهل الورع يتوقَّون من أموالهم جهدهم مع أنَّ العبرة بالغالب، فما بالك بسلاطين هذا الزمان الذين لا يُعرف عندهم الحلال، فقد كان علماؤهم لا ورع فيهم عن الحرام، أما يخشون من السم القاتل الذي فيه؟ فإنَّ المال المتحقق حرمته فيه سمٌّ مُذهِبٌ للعقل والجسم، مع إذهابه للدين أيضاً.

---

(١) الذي يظهر، والله أعلم، أن المراد: أن يتولى الثلث ويأكله ولا يقوم بواجبه حياله، أو تولى عليه مع وجود من هو أولى بالتولي منه.

خامسها: مال الصُّبرة، وهو شَرُّها، لما فيه من تلبيس الحرام بالحلال، واعتقادِ حِلِّيته، واعتقادُ حل ما أُجْمِع على تحريمه كفر؛ لكنهم لَبَّسُوا عليهم بصورة الحق على الباطل، وظنوه يسلم بذلك، ولا سلم منه.

فاعرف هذه الأنواع من المال المذهب للدِّين والدُّنيا بأكلها لأربابها الذين يظنون أنهم يأكلونها وإنما هي تأكلهم، وتتلف أعمارَهُم مع إتلاف دينهم ودنياهم. نعوذ بالله من الوقوع في الشر في معرض الخير، ونستجير بالله من أنواع الشر والبلاء.

[ابتلاء الخواصِّ وميزاتُ طريقهم]

وقال رَضِيَ اللهُ عنه: «مَن أتانا يطلب الطريق العامة أخذنا بخاطره وآنسناه، ومَن أتانا طالباً للطريق الخاصة استخدمناه وابتليناه مجابرةً، للأول باللائق لجنسه، واختباراً للثاني، وكسراً لنفسه».

قال الناقل رحمه الله تعالى: أقول: الطريق العامة ـ أي: لكل الناس ـ لا خصوصية فيها لأحد على أحد في ظاهر الأمر، وهي طريق أصحاب اليمين، وهي طريقة الصبر المشار إليها بذلك في الحديث، وأما الطريق الخاصة: طريقة الخواصِّ المختص بها الخصوص، طريقة المقربين السَّابقين، ففيها خصوصيات تختص بها، ومزايا تميزها عن الأُخرى، وتميز أهلها عن أهل تلك الطريقة:

أولها: رياضةُ النَّفس وتهذيبها، لِتطمئنّ على متابعة الشَّرع، منقطعة الهوى الذي يجذبها إلى مخالفته، أي: الشرع، وتسلم من متابعته، أي: الهوى، فلهذا قال في حقه: «اختباراً، وكسراً لنفسه»، وقال في حق طالب العامة: «أخذنا بخاطره، وآنسناه»؛ لأنه ضيف تستحب مؤانسته والأخذ بخاطره، وهذا هو المطلوب في

حق عموم النَّاس القاصرين عن منال تلك، وأكملهم الواقف على الحد لا يحيد عنه وهو في طرفه.

وأما الطريق الأخرى: طريق الخواص، المشار إليها في الحديث بطريق الرضا، وهم السابقون، ويقال لهم: المقربون، المتعلقة قلوبهم بالله، لا يرون إلا الله في جلب كل نفع، ودفع كل ضر، وظواهرهم متمسكة بطريقة أصحاب اليمين، وهي التَّمسُّكُ بالشريعة في العبادات، والعادات، الكاملون الاقتداء بالنَّبي ﷺ، ومع ذلك أُعطوا نصيباً من ذلك السر الشَّريف الذي يقوى به الإيمان المشار إليه في حق سيدنا أبي بكر رَضيَ اللهُ عنه في الحديث بقوله ﷺ: «ما فَضَلَكم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة، وإنما فضلكم بسر وَقَرَ في صدره»[1]، فصار بذلك أنه لو وزن إيمانه بإيمان الأمة لرجحها، ولا بدّ لكل ولي من نصيب منه، وبحسب ما وهبه الله منه يقوى إيمانه ويقينه، وهو وهب الولي الذي يؤتاه، وبقية أفعاله على موافقة الشَّرع، وقد ذكر الله الفريقين في كتابه فقال في الخواص: ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩] أي: كل ما ملك أحدهم ـ قل أو كثر ـ فيه حق للمذكورين، ولو عشاءه الذي أراد أن يتعشى به ففيه حق لهما وهذا في المندوب.

وقال في حق أصحاب اليمين: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ﴾ [المعارج: ٢٤]، أي: قدر نصاب الزكاة، وقدر ما يلزمه إخراجه في الزكاة، وهو المعلوم الذي ذكره وهو في الواجب، فمدح الأولين على ما ندب، ومدح الآخرين على ما وجب.

---

(١) قال العراقي في حمل الأسفار: لا أصل لهذا مرفوعاً. وإنما يعرف من قول بكر بن عبد الله المزني. رواه الحكيم الترمذي في نوادره، قال الزبيدي في الإتحاف: قلت: وبكر: ثقة، سمع من ابن عباس، وابن عمر، وعزاه ابن القيم إلى أبي بكر بن عياش من قوله، ولفظه: «ما سبقكم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة؛ ولكن بشيء وقر في قلبه».

وذكر النبي ﷺ في حديثه الفريقين أيضاً، فقال للخواص: «لا عَدْوَى، ولا طِيَرة»، فقال رَجُلٌ: إنِّي أُنِيْخُ بَعيري السَّليمَ بجَنْبِ البعيرِ الأجرَب، فيُعْدِيه، فيَجْرُبُ مِثلَه، فقال ﷺ: «إن كان أعدَاهُ، فمَن أعْدَى الأَوَّل؟»[١] وأكل ﷺ مع مجذوم، فسمى، وقال:«بسم الله، ثِقةً بِالله، وتوكُّلاً عليه»[٢]. وقال للعامة: «فُرَّ منَ المجذُومِ فِرَارَكَ منَ الأسَدِ»[٣]، وبين الخطابَيْن من الفرق كما بين المقامَيْن.

والأصل في تقسيم الدِّيْنِ المحمدي إلى هذَيْن المقامَيْن: مقام الخواص، ومقام العامة، قول النبي ﷺ: «اعْبُدِ اللهَ على الرِّضا، فإنْ لم تَسْتَطِعْ ففي الصَّبْرِ على ما تكْرَهُ خيرٌ كثيرٌ»[٤]، فالعبادة على الرضا هي مقام الخواص، وهو أن يرضى بكل ما فعل الله به، وإن أمرضه أو أفقره أو فعل به أيَّ أمر تكرهه نفسه مع إقامته بالمأمور؛ لأن معنى العبادة أن يرضى بكل ما فعل به المعبود، ويفعَلَ كلَّ ما يُرْضي المعبود، فإن لم يقدر على الرضا، وكرهت نفسه ما يخالف هواها فيلزمه أن يصبر ولا يضجر ولا يتبرم ولا يشتكي، فإن فعل من ذلك شيئاً خرج به عن مقام الصبر، فصار خارجاً عن مقامَي: العبادة والدين بالكلية، وصار مع أصحاب الشمال.

---

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة بلفظ: «لا عدوى ولا هامة ولا صفر»، فقال أعرابي: يا رسول الله: فما بال الإبل تكون في الرحل لكأنها الظباء فيخالطها البعير الأجرب فيجربها؟ فقال رسول الله ﷺ: «فمن أعدى الأول؟».

(٢) رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجَهْ من حديث جابر، وقال الترمذي: غريب.

(٣) رواه البخاري (٧: ١٦٤)، وأحمد (٢: ٤٤٣)، والبيهقي في السنن (٧: ١٣٥، ٢١٨)، وابن أبي شيبة (٨: ١٣٢، ٩: ٤٤)، وغيرهم.

(٤) رواه الحاكم، وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عباس. ورواه الدارقطني في الأفراد من حديث أبي سعيد الخدري، أن النبي ﷺ قال لابن عباس حين وصاه: «اعمل لله باليقين في الرضا، فإن لم يكن فإن في الصَّبْر خيرًا كثيراً»، وقد تقدم.

ثالث المقامات الثلاثة الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۞ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ [الواقعة: ٧ - ٨]، وهم العامة أصحاب الصبر المذكور في الحديث. ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ [الواقعة: ٩]، وهم الذين خرجوا عن المقامَيْن المذكورَيْن في الحديث: العبادة على الرضا، والعبادة مع الصَّبر على الشَّرط المذكور من عدم الضَّجر والتَّشَكِّي، الذي فيه خير كثير إذا عجز عن الأول.

ثم قال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ [الواقعة: ١٠]، وهم أهلُ العبادة على الرِّضَا، الذي هو مقام الخواص، فافهم هذه المقامات الثلاثة: مقامَي العبادة والدين، والثالث: الخارج عنهما، فاختر ما تختار لنفسك.

[من علامات منافق العمل]

وقال رَضِيَ اللهُ عنه: «أهل الزمان يَسمَعُون ما ورد في الحديث مِن مَدحِ حُسْنِ الظَّنِّ بالله فيفعلون المعاصي، ويُصِرُّون عليها ويغترون، ويظُنُّونَ أنَّ ذلك هو حُسْنُ الظَّنِّ المطلوب؛ بل إنَّما هذا سوءُ ظَنٍّ بالله، وإن كلَّمتَهُ قال: أنا صالح، وأنا مِن سائر النَّاس، وما الذي يمنعه منَ الصَّلاح ومتابعة نبيه؟ ويتوكَّلُون في تَرْكِ الطَّاعات، ولا يتوكلون في ترك الدُّنيا. ومن علامة المؤمن من المنافق: أنَّ المنافق جميع ما تراه في أفعاله وجميع أحواله يتتبع الرُّخَص، والمؤمن يحتاط؛ وهذا منافق في العمل دون الدين، وإنْ أنكر على من يرد عليه فهو منافق في الدِّين أيضاً؛ ولكنك اجتهد أن لا تُدانيَهم، ولا تطَّلعْ على أحوالهم، وإلا وقعت معهم في محنة، وإنْ بُلِيتَ بأحد منهم فاجتهد في سلامة دِينِكَ ونفسك من شره».

قال الناقل رحمه الله تعالى: قوله: «وإنْ كلَّمتَهُ»: أي: لُـمْتَهُ في ذلك، ونصحتَه، فيقول: إنما يفعل ما دعوتني إليه الصالحون، وأنا لست كذلك، إنَّما أنا من سائر النّاس العامة. ومنافق العمل الذي عمله على غير قانون الحقِّ، وإن ادعى مع ذلك أنه على حق وصواب فهو منافق في الدين، أي: في الاعتقاد والعمل، فاجتهد أن لا تخالطهم، حتى لا يستمد طبعك من طباعهم، فيَخُفَّ على قلبك وقْعُ مخالفة دين الله عملاً واعتقاداً، ذلك هو الخسران المبين.

[التصوف هو: إقامةُ الكتاب والسنة]

وقال رَضيَ اللهُ عنه: «من لا يعرف قواعد الصوفية يظن أَنَّهُ تُفاضُ عليهم العلوم كذا بلا شيء وهم جلوس، لا؛ بل لا بدَّ من الإقامة بالكتاب والسنة أولاً، ثم يفتح الله بَعْدُ عليهم بها: وهي علوم عين اليقين، بعدما تنظفت قلوبهم من المذمومات، وتحلت بالمحمودات، وهو حاصلٌ من الاقتداء بالكتاب والسنة: وهو معنى المجاهدة التي وعد عليها بالهداية، فمنه تحصل العلوم اللدنية، ومن جلس ينتظر من غير اتباع لهما مِن أين يحصل له ذلك؟! وقد كانوا يحصل لهم من الأنوار والعلوم والمعارف ما لم يُعَبَّر عنه، وأما اليوم فقد تغيرت القلوب من أكل الحرام والشُّبَه».

قال الناقل رحـمه الله تعالى في معنى ذلك: يعني: لا يعرف ما عادتهم واعتمادهم عليه، وهو أمران: فِعْلٌ ظاهر، وهو العمل بظاهر أحكام الكتاب والسنة، واعتقاد باطن، وهو بَعْدَ إحكام الأحكام يرجو أن يكون قد كتب له نصيب من الفتوح؛ إذ لا يكون ذلك إلا بذلك ويسمى الاستعداد، ويتعلق رجاؤه

واعتماد قلبه بربه، ولا يلتفت بقلبه إلى عمله، ويجتهد في عمارة قلبه، وتنظيفه من مذمومات الأخلاق، وتزيينه بالأخلاق المحمودة، وهذا من أعظم قواعدهم ومعتمدهم، ومجمع الأمرَيْن هو الاقتداء بالكتاب والسنة، وهذا ما هو إلى العبد، وما وراء ذلك هو إلى الله ﴿ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٤٠] ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ١٠٥]، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، ومن عَجَز عن ذلك فإنَّما ينال بإعانة الله، وتوفيقه وتسديده.

وقوله: «المجاهدة التي وعد عليها»، أي: في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وتقدم قوله: إنْ أَكَلَ الحرام ولا يعلم بحرمته: لا يأثم؛ ولكن يؤثر في القلب إظلاماً، فهذا الأثر هو الذي منع حصول الأنوار والعلوم والمعارف، وهذا مع عدم الحرمة لعدم المعرفة، فكيف به إذا اجتمع معها، وحصل معه الإثم أيضاً، ونبت اللحم عليه، وصارت النار أولى به؟ ولذلك، عدمت أيضاً همة الفتوح التي ذكرها، فصار ذو التقوى في هذا الزمان كالمضطر الذي يأكل الميتة لسد الرمق، فذكر سيدنا حديث: «لو كانت الدنيا دماً عبيطاً لكان قوت المؤمن منها حلالاً»[1]، ثم قال: لأن المؤمن الكاملَ الإيمان لا يأكل إلا للضرورة لا للتشهي، كمن يأكل للضرورة الميتة لسدِّ الرمق، فإن كان حلالاً فذاك، وإلا كان أكله للضرورة مباحاً، فيكون أكله حلالاً على كل حال.

---

(١) قال في المقاصد الحسنة رقم (٨٩٨): لا يعرف له إسناد؛ ولكن معناه صحيح، فإن الله لم يحرم على المؤمن ما يضطر إليه من غير معصية. انتهى. وفي كشف الخفا (٢: ٢٠٨): وقال الزركشي: لا أصل له، وتبعه في الدرر. وقال النجم: هو من كلام الفضيل بن عياض، وذلك لأن المؤمن لا يأكل إلا عن ضرورة، ويقرب منه قول نجم الدين الكبرى: الذكر يقطع لقيمات الحرام. والعبيط بالعين المهملة والموحدة، ففي القاموس: لحم ودم وزعفران عبيط بَيِّنَ العُبطة بالضم: طري، وقال ابن الغرس: عبيطًا هو بالعين المهملة، أي: طريّاً.

[معنى قولهم: الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق]

وقال رَضيَ اللهُ عنه في معنى قولهم: الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق، قال: «هي أعمالهم التي يتقربون بها إلى الله تعالى، لا كل أعماله طرائق؛ بل لو سبَّح مئة تسبيحة مثلاً وقُبلَتْ يقال: هذه مئة طريقة، وعلى هذا».

[مسألة القضاء والقدر مسألةُ اعتقاد في الباطن]

وقال رَضيَ اللهُ عنه: «مسألة القضاء والقدر إنما هي اعتقاد في الباطن، لا مسألة احتجاج بها، وإظهار لها، ومن أظهرها ضلّ فتُعتقَد، ولا تكون في الأعمال. أليس تحريكك يدك باختيارك؟ فهذا هو الكسب والاكتساب، ولا يظهرها أو يتكلم بها للعامة إلا من أراد أن يُضِلَّ أو يَضِلَّ، وقد قيل: إنها مسألة غامضة لا تتضح إلا يوم القيامة، وقالوا: الرضا بالقضاء أن تفعل ما يرضى الله به ظاهراً، وترضى بما يقضيه باطناً، فهذا هو الحق والصواب، وما كان غير ذلك فهو باطل».

[العقيدة الحقة]

قال الناقل: وسألته: هل الاعتقاد الحق منحصر في عقيدة الأشعري، وما خرج عنها فهو باطل؟

فقال: «عقيدته هي الحق وما خرج عنها فيه حق وباطل، وإنما فاق غيره

لكونه قال: آمنت بالله، وما جاء عن الله، على مراد الله، وفوض الأمر إلى الله. يعني أنَّ هذا مِلاك عقيدة الأشعري، وأساسها التي بنيت وأحكمت عليه».

[الصعود في المقامات]

وقال رَضيَ اللهُ عنه: «الأمور الإلهية كلُّها ترفعك، وعليك بقراءة القرآن، فإن عجزت عنه لا تعجز عن الذكر، فهو يوصلك إلى حيث أردت من أمور الدين، والصعود إلى العالم العلوي عسر، كما يَطْلَعُ الإنسان البئر، إلا أنه فرق بين مَن يطلعها بحبل يشلونه به، وبين مَن يطلعها بلا حبل، وهذا هو الفرق بين السالك والمجذوب».

قال الناقل رحمه الله تعالى في معناه: فإن حالة المجذوب هي حالة من حصلت له العناية بحصول النفحة، فينجذب إلى الإقبال على الله، وقبلها يتكلف في الترقي من حالة النقص إلى حالة الكمال إلى أن يمنَّ الله عليه بالنفحة لمن أراد، وهو إذ ذاك كالسالك دائماً يترجى الترقي، ويدأب في العبادة، وهو معنى التعرض للنفحات؛ ولكن لا علم له بوقت النفحة كما لا علم للسالك بوقت حصول الجذب، وهو أيضاً من النفحات المأمور بالتعرض لها.

[من عرف الدنيا زهد فيها]

وقال رَضيَ اللهُ عنه: «من عرف الدنيا زهد فيها، ولو كان ما يؤمن بيوم الحساب، ومثل الإنسان في الدنيا كمثل رجل جالس في بيت يُحذَف بالحجارة فيخاف عليه كل حين أن يرضخ رأسه، فسبحان الله! كيف يَقِرُّ الإنسان وهو

كل حين يُشَيِّعُ مَيْتاً، وكل الناس مجمعون على أنَّ الدنيا فانية، وكل الملل مجمعة على ذمها، وكل الأمم التي بُعِثَت إليها الملل مجمعون على محبتها، ولعل ثلث القرآن جاء في ذمها، وأبلغ آية في التزهيد فيها قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٣ - ٣٥].

ثم حكي أن رجلاً من أهل المشرق أصابته علة شديدة، فطلب طبيباً ماهراً، فدُلَّ على طبيب ماهر نصراني في جهة المغرب، وأنه لا يمكن أن يداويه إلا هو، فمضى إليه، وحمل معه مالاً كثيراً، وإذا به ـ يعني الطبيبَ ـ علّة شديدة، ولم يداوِ نفسَه منها! فقال: لو هذا طبيب لداوى نفسه، وأراد أن يرجع، ثم قال: إني عَنَيْتُ له من بُعْدٍ فأنظُرَ ماذا عنده، فذكر له علته، فقال: لا أداويك إلا بنصف مالك ـ وكان ذا مال كثير سار به معه ـ فأبى أولاً ثم رضي لَمَّا لم يجد بُدّاً من ذلك، ولم يسأله الطبيب حينئذٍ عن اسمه فداواه وصَحَّ؛ لكن بقي أثر من تحشيف، وهو أثر العلة، فقال له: هات المال، فقال: هذا ما طاب، وقال: ليس هذا علي، إنما داويتك بقدر ما أعطيتني، فإن أردت أن أُداوي هذا فأعطني نصف ما بقي من مالك وهو الربع، فأعطاه وداواه منه وصح، وأراد الانصراف فسأله الطبيب حينئذٍ عن اسمه ومن هو وما دينه، فأعلمه وقال: ديني الإسلام، فقال: مَن أعلمكم به؟ فقال: بعث الله إلينا نبياً صفته كذا، وعلمنا الدين والإسلام، فقال: ما أخبركم نبيكم أنك ستموت؟ فقال: بلى، أخبرنا أنَّ كلًّا ميت، وأنَّ الدنيا فانية، وأنَّ الآخرة باقية، وهي خير وأبقى، وكان هذا الطبيب عاقلاً، فقال له: مع إيمانك وتصديقك بما أخبركم به نبيكم تحب الدنيا وتحب طول البقاء فيها وتحب المال! حتى أتيتني من مسافة بعيدة تطلب صحة بدنك، وبذلت فيها مالك، وأراك حريصاً، وأنا ـ يعني: هو مع كفره ـ لَمَّا جربت الدنيا وعرفت أنها

زائلة زهدت فيها! فهذا بدني عليل ما داويته، وهذا مالك الذي أعطيتني، خذه مني فلا أريده، وسِرْ عافاك الله، إنَّما أردت أن أختبرك». انتهت الحكاية بلفظه من فمه حرفاً حرفاً.

ثم قال: «والدنيا فانية بكل حال، إمَّا ولت عنك، وإمَّا وليت عنها».

وقال لرجل فقير من أهل شبام عندما استخلف منه يريد المسير إلى بلده: «الحذر أن تغبط أهل الدنيا تود أن تكون مثلهم فتحاسب في الآخرة حساب الأغنياء وأنت ما معك شيء».

وقال رَضيَ اللهُ عنه: «أهل الزمان ليس في أجسامهم قلوب ولا أرواح، إنما فيها نفوس شيطانية، ويُعرفُ هذا بحركاتهم الظاهرة؛ لأنّ الأمور الغيبية لا تعرف إلا بالحركات الحسية على مقتضى ما تدعو إليه، وعلى لسانها، كما يتكلم المدخول من الجان على لسان الجني الذي فيه».

وقال في وصف الرجل من أهل هذا الزمان: «إنه لا صدق فيه ولا تقوى، ولا يُصَدِّقُ بوجود أحد فيه صدق وتقوى؛ لعدم ذلك فيه، وإقدامهم على الحرام يضاهي إعراض الأولين عن الحلال؛ لأن الأولين أعرضوا عن الحلال احتياطاً للسلامة ولا بالوا، وهؤلاء وقعوا بالقصد في الحرام ولا بالوا، ومثلَهم كالهرار في بعض الأماكن إذا شمت ريح اللحم هاجت، ولم تستمسك ما لم تأكل منه حتى يدهنوا فمها بقليل من السمن فتسكن عند ذلك قليلاً».

قال الناقل رحمه الله تعالى: يعني: فهؤلاء كذلك، فضراوتهم في محبة الدنيا والتلهف عليها لم يتمالكوا حتى يلقوا أنفسهم في الحرام والشر، فإذا أمكن أحدهم أن يصيب من الدنيا شيئاً يسيراً من الحلال لعله أن يضبط به نفسه عن الوقوع في

الحرام، ويستعين على منعها منه بقليل من حلال، فذاك أليق وأصون له، فيحتاج إليه ضرورةً.

[الإفراط في محبة الدنيا تغيِّر العقل والدين]

وقال رَضيَ اللهُ عنه: «الإفراط في محبة الدنيا تغير العقل والدين؛ لأنَّ طبعها الإسكار».

وقال رَضيَ اللهُ عنه: «متى فرحت بشيء من أمور الدنيا واطمأننت به، فأنت ناقص عقل ودين، وزيادة أحدهما أو نقصه يستلزم مثله في الآخر. ولا أحسن أهل الزمان تدبير دينهم ولا دنياهم؛ بل هم في دنياهم كالعين العوراء ضعيفة النظر، وفي دينهم كالعين العمياء ليس تبصر أبداً، وكلما دار الزمان قليلاً تغير أهله، فترى الإنسان يقصر عن مماثلة أبيه ويعجز في دينه ودنياه حتى في القوة والهمة، ويعرف الإنسان مرض قلبه ونقص دينه وعقله، وهو أعرف به من غيره، ثم لا يهمه ذلك أن يقصد طبيباً من أطباء القلوب، يداويه ويسلم الأمر إليه، ولو وقع له أدنى مرض في بدنه لاهتم له وطلب المداوي، ويقال: إن المريض أعرف بعلته من الطبيب».

قال الناقل رحمه الله تعالى: قوله: «متى فرحت...» إلى آخره، أي: فرحت به لمجرد وجوده في يدك تعزُّزاً به، وكراهةً لخلوِّ يدك منه، أو فرحت به لتتمكن به من مآرب نفسك وحظوظها، فإنَّ هذا من وصف النساء القاصرات الناقصات العقل والدين، وليس ذلك من شأن الرجال الكاملين، ولا تغتر بأوصاف رجال وقتك، فإنَّ طبائعهم مثل طبائع النساء في نقصان الحظ من

العقل والدين؛ بل حتَّى إذا فكرت في حال أهل وقتك وحال أهل وقتٍ قبله، ولو ما بينهم طول مدة، رأيت سفهاء أهل ذلك الوقت، ومن ينسب إلى خلاف الديانة أحسن ممن يُعَدُّ مِن طَـيِّبي أهل وقتك مروءةً وديانةً في كثير من الأمور والأحوال، وأمَّا إذا فرحت به لوفاء دين تُبرِّئ به ذمتك من حقوق الناس، أو لمعاش ضروري تستغني به عن الاحتياج إلى الناس، أو لتفعل به معروفاً وتصل به رحماً، وتتصدق منه على محتاج ونحو ذلك من أمور الخير التي يحبها الله بنية صادقة يعلمها الله منك لا دعوى بلا تحقيق، فإذا فرحت به لأجل ذلك صادقاً في ذلك من غير تلبيس من النفس وإبليس، فلا يخرجك عن حال الرجولية إلى وصف النساء والطفولية إن شاء الله من نقص العقل والدين.

قوله: «وزيادة أحدهما أو نقصه يستلزم مثله في الآخر» يعني: أن نقص العقل مستلزم لنقص الدين، وزيادته مستلزمة لزيادة الدين، كما أن زيادة الدين مستلزمة لزيادة العقل، ونقصه مستلزم لنقصه.

[الحمد عند العافية، والصبر عند البلية]

وقال رَضيَ اللهُ عنه: «لا تقل وأنت في عافية: لو ابتليت صبرت، فإنَّ الغالب أنَّ من يدعي الصبر مع الله يُبْتَلَى؛ ولكن اسأل الله العافية، فإذا ابتليت فاصبر، ولا تغتر في نفسك بأحوال أقوام بلغ بهم البلاء كل مبلغ فصبروا، فلعلك لو ابتليت لم تصبر، فكم من قائل: لو ابتلاني الله لصبرت، فلما حل به البلاء لم يصبر، فتراه إذا تحرك له ضرس أو ضرب عليه عرق بات سهران، وأما أولئك الذين صبروا فإنهم انكشفت لهم الآخرة فشاهدوها فلم يبالوا بالبلاء، ودانوا لأنفسهم فلم يعبأوا بالرفاهية، واستوت هي والشدة عندهم».

[سبب تنوير القلب]

قال الناقل رحمه الله تعالى: وسمعته يوصي بعض السادة فقال: «إن أردت تنوير قلبك فعليك بلا إله إلا الله في جميع أوقاتك، واجعلها شغلك، ولا تخرج منها إلا إلى قراءة القرآن، أو قول: الله الله».

قال: وسمعته يوصي بعض الفقراء بملازمتها بعد صلاة العشاء ألف مرة، ورغَّبَه في ذلك فقال: «كنا نقولها ألف مرة بعد العشاء ثم عجزنا عن ذلك فجعلنا نرتبها ألفاً بعد ظهر كل يوم، وفي رمضان ألفَيْن»، وقال لذلك الفقير أن يقولها ألفاً بعد العشاء يحصل له من الله الفتوح ونور القلب والخير، الكثير.

[ستر الأعمال الصالحة عن عاملها..
ولا تحتقر من أعمال الخير شيئًا]

وقال رَضِيَ اللهُ عنه: «استكثر من أعمال الخير ما استطعت، وخذ منها ما تطيق المداومة عليه، ولا تحتقر منها شيئاً، فقد رؤي الإمام الغزالي في النوم بعد موته فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي، فقيل له: بم ذاك؟ قال: بذباب برح على القلم وأنا أكتب فتركته حتى روي. فإن الخير كله في أمور الخير السهلة التي لا تراها النفس، ولا تعدها شيئاً، وأما التي تراها، وتعتد بها، فإنها يتطرق إليها البطلان، إمَّا من جهة الفاعل، أو المفعول معه، أو الحاضر بينهما».

قال الناقل رحمه الله تعالى: أقول: مثال ذلك في فعل الصدقة مثلاً، أما الفاعل لها أو المعطي، بأن يمدحه فتميل لذلك نفس المعطي، أو المرسل بها يمدحه ويذكره، ولذلك عظم شأن المخفي لها بحيث لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، حتى صار من السبعة الذين يظلهم الله بظل عرشه، ومعنى «لا تعلم شماله» يعني: لو كان عن شماله أحد ما علم بها لشدة إخفائه؛ ولكن الشأن في إخفائها عن النفس بحيث لا يخطر على باله، وهو معنى ستر الأعمال عن عاملها، وذلك أمر عظيم، ولذلك سأل بعضهم بعض الصالحين الدعاء فقال: استعملك الله بطاعته، قال: زدني، قال: وسترها عنك، قال: كفاني. وقال بعضهم: مهما خطر ببالي عمل من أعمالي فلا أعتد به، يعني: ما أراه شيئاً، ولا أطمع في جزائه؛ لأن رؤيته في النفس أذهبت جزاءه، فإن ذلك نوع من الإعجاب المبطل لثواب الأعمال، فقد تُبطل لحظة من الإعجاب ثواب أعمال سنين، نعوذ بالله منه.

[أثر الهوى في الأعمال]

وقال رَضِيَ اللهُ عنه: «كل عملٍ من أعمال الطاعة إذا كان فيه شيء من الهوى يخف على النفس ويسهل عليها، وإن قل الهوى قَلَّتْ رغبتها، وإن كثر كثرت، حتى يتجرد للحق فقط دون هوىً فحينئذٍ يثقل عليها، وتشمئز منه».

قال الناقل رحمه الله تعالى: أقول: إذا كانت النفس على الوصف المذكور تجردت رغبتها للعمل المتجرد للحق فقط، فإن سيدنا ذكر شأن طبع النفوس المنطبقة عليه: فإذا كَمُلَتْ كمل علمها، وما دامت في النقص فعملها في النقص، فترى أحداً يبني المساجد ويعمر ما خَرِبَ منها ويصرف في ذلك مالاً كثيراً، ولو

أتاه فقير يطلب منه عشاءً له ولعياله شحت نفسه ولم يعطه، وهو أفضل له، فدلَّ ذلك على أنَّ ما بعثه على ما صنع إلا الهوى من الرياء، ومحبةُ أن يذكر بذلك لكونه ظاهراً، وتلك صدقةٌ خفية، وهي أحب إلى الله تعالى مما بنى وعَمَّر.

[معنى حديث: «ما وسعني أرضي...»]

وقال رَضِيَ اللهُ عنه، في معنى قوله تعالى الوارد في الحديث عنه سبحانه: «ما وسعني أرضي ولا سمائي، ووسعني قلب عبدي المؤمن»[1]، قال: «يعني وسع معرفة وحمل الأمانة».

قال الناقل رحمه الله تعالى: أقول: المراد بالأمانة: عهدة التكليف التي قال الله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، وحملها الإنسان، فعجز عنها من ذُكِرَ لعدم العقل فيهم، وحملها الإنسان لِما أعطاه من العقل والتمييز به بين الخير والشر، وبين ما يحمد ويطلب شرعاً وبَيَّنَ ذلك له، فقال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الإنسان: ٣]، ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، أي: طريقي الخير والشر. والقضاء والقدر يعني ما أراد سبحانه لعبده من خير أو شر، كاللجام للفرس يقوده إلى أيهما أراده الله سبحانه؛ ولذلك قال بعد قوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي: بَيَّنَّا له الطريقين، فكان بحسب ما يقوده إليه لجام القضاء

(١) قال العراقي في تخريجه: لم أَرَ له أصلاً، ووافقه في الدرر تبعاً للزركشي، وقال في المقاصد تبعاً لشيخه في اللآلي: ليس له إسناد معروف عن النبي ﷺ، ومعناه: «وسع قلبُه الإيمان بي ومحبتي ومعرفتي»، وإلا فمن قال: إن الله يحل في قلوب الناس فهو أكفر من النصارى الذين خصوا ذلك بالمسيح وحده». كشف الخفا (٢: ٢٥٥).

والقدر ﴿إِمَّا شَاكِرًا﴾ أي: سالكاً طريق الخير المشكور، ﴿وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]، أي: سالكاً سبيل الشر المكفور، ثم ذكر جزاء من قاده إلى سلوك السبيلَيْن إلى آخر السورة.

ومعنى كونها أمانة: أنها أوامر ونواهٍ بين العبد وبين الله لا يطلع عليها إلا الله، ولو غدر فيها وخالف لا يعلم به إلا الله، كما أن الأمانة شيء في ذمته، وأمانته بينه وبين ربه، لو غدر فيها وخان لا يعلم به إلا الله، ولا يقوم بهذا الأمر على وجهه من كل الوجوه إلا الكامل في التقوى، ولذلك عَظُمَ شأنُ التقوى والمتقين عند الله تعالى، وكانت هي وصية الله للأولين والآخرين كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١]، والتقوى: هي سلوك سبيل الشاكرين المذكورة المبينة بالهداية في الآيَتَيْن المذكورتَيْن، أي: بَيَّنَ سبيلهما، وأعطى من كلّفه الاختيار في سلوك أيهما اختار، وجعل الجزاء لسالكهما في مقابلة الاختيار، والله سبحانه القائد لهما بلجام القضاء والقدر على حسب مراده للفريقَيْن من شاء منهما كما شاء بأيهما، كما شاء من الجزاء لهما، من جزاء الخير لمن وفقه للطاعة، وجزاء الشر لمن خذله، وقاده للمعصية.

وقال رَضِيَ اللهُ عنه: «كلما ازداد الإنسان خسةً ودناءةً، ازداد تكبراً وافتخاراً، ووجود أحد هذين يدل على اتصاف الشخص بما ذكر».

[حكم الصلاة خلف المبتدع]

وقال رَضِيَ اللهُ عنه: «نصلي خلف كل بَرٍّ وفاجر كما في الحديث ولا نعيد؛ لأن هذا تعنت وغلو في الدين، وقد صلى الأئمة خلف الدول الظالمين والمبتدعين كدول بني العباس وغيرهم. وإذا صلينا جمعة لا نعيد ظهراً».

قال الناقل رحمه الله تعالى: أقول: أي: كما صلى عبد الله بن عمر وغيره من الصحابة رَضيَ اللهُ عنهم خلف الحجاج وكفى به ظالماً! صلوا خلفه جُمُعًا وغيرها ولا أعادوا، وصلى الإمام الشافعي رَضيَ اللهُ عنه الجمعة في بغداد وفيها جُمَعٌ متعددة وما أعاد، وتأويلُه أنّ ذلك لضرورة. معلومٌ أنَّ الجمعة لا تُكَرر إلا لضرورة، وإذا زالت الضرورة فتبقى الجُمَعُ على حكمها، كما شرط في الجامع أن يكون متصلاً بالبلد، فإذا كان متصلاً ثم انفصل بعد ذلك بسبب، كسيل وغيره، بقي على حكمه، وتصح الجمعة فيه بعد انفصاله، وهكذا في أحكام كثيرة.

[اجتماعات الخير والشر]

وقال رَضيَ اللهُ عنه: «اجتماعات الخير يحضرها ناس، على مقتضيات نياتهم، بخلاف اجتماعات الشر، فلا يحضرها من حضر تلك».

قال الناقل رحمه الله تعالى: كفى في اجتماعات الخير شرفاً أنَّ الله سبحانه يباهي بهم الملائكة.

[مقابلة الإساءة بالإحسان]

وقال رَضيَ اللهُ عنه: «إحسانك إلى مَنِ أساء إليك أكمل منه إلى مَن أحسن إليك، وتقديمك الإحسان إلى المحسِن أولى وآكد».

قال الناقل رحمه الله تعالى: أقول: أي: أكثر ثواباً؛ لما فيه من مخالفة النفس، ولكون مقابلة الإساءة بالإحسان من أخلاق الأنبياء؛ ولكن مقابلة الإحسان بالإحسان أحق لقوله تعالى: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن: ٦٠].

[أمور الدنيا والآخرة على قدر المتكلِّم بها]

وقال رَضِيَ اللهُ عنه: «أمور الدنيا والآخرة إنما هي على قدر المتكلم بها، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧]، قال: أي: إنها عند الله تكون قريباً وإن بعدت، يعني: عند الخلق».

وقال رَضِيَ اللهُ عنه: «قال النبي ﷺ بسبب يهودي: «لا تفضلوني على يونس ابن متى»[١]، ولا ينبغي تأويله بأن ذلك قبل أن يعلم أفضليته؛ بل السكوت عن التأويل أحسن».

ثم قال: «ومن هذه الأشياء يتطرق للأولياء الإنكارُ فيما يقولون؛ لأن مقام الولاية لا يبلغ مقام النبوة».

قال الناقل رحمه الله تعالى: أقول: قال الشيخ عبد الله بن أبي جمرة الأندلسي رحمه الله تعالى في هذا الحديث: «لا تفضِّلوني» إلخ، يعني بذلك: نفي التكييف والحدود، على ما قاله أبو المعالي بأنه قد وجدت الأفضلية بينهما في عالم الحس؛ لأن النبي ﷺ أسري به إلى السبع الطباق ويونس عليه السلام أنزل به إلى قعر البحر، وقال النبي ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»[٢]، وقال: «آدم فمن دونه

---

(١) أخرجه الشيخان وأبو داود عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عنهما، وأخرجه الشيخان أيضًا عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عنه.

(٢) رواه الترمذي (٣١٤٨، ٣٦١٥)، وابن ماجَهْ (٤٣٠٨) وغيره، قال الترمذي: وهذا حديث حسن صحيح.

تحت لوائي يوم القيامة»[١]، وقد اختص بالشفاعة الكبرى التي لم تكن لغيره من الأنبياء. فهذه الأفضلية قد وجدت بالضرورة، فلم يبقَ أن يكون قوله ﷺ: «لا تفضلوني على يونس بن متى» إلا بالنسبة إلى المسافة، فمحمد ﷺ وإن أسري به للسبع الطباق واختراق الحجب، ويونس عليه السلام وإن نزل به لقعر البحار فهما بالنسبة إلى القرب من الله تعالى على حد واحد، والمراد بقوله عز وجل: ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ أي: أنه لو كان لله عز وجل مسافة يمشى إليه فيها لكان النبي ﷺ منه بذلك القرب، إشارة منه عز وجل إلى قرب نبيه منه وتشريفه. وتحصَّل من هذا أن ليلة الإسراء كانت خيراً خاصاً به، وفرض الصلاة فيها عليه وعلى أمته مشترك بينه وبين أمته. انتهى كلام ابن أبي جمرة بحروفه.

وكان يقول سيدنا: لا ينبغي تأويله بأن ذلك كان قبل أن يعلم بأفضليته، وقد أوله بذلك كثير من العلماء وسيدنا لم يرض بهذا التأويل واستحسن السكوت في ذلك، وهو أسلم للدين وأقرب إلى الأدب. ومراده بقوله هذا: الرد على من أوَّلَهُ به، ومشيراً به إلى صحة المعنى الذي أشار إليه ابن أبي جمرة، وأنه الأصح المتبع الذي ينبغي أن يقال به ولا يعدل عنه.

قوله: «ومن هذه الأشياء» أي: يعني ما تقدم، وما وقع لموسى مع النبي ﷺ من الغيرة، ومن عدم حصول الرؤيا لموسى وحصولها للنبي ﷺ. وأما قول ابن الفارض:

وإذا سألتُكَ أن أراكَ حقيقةً فاسمَحْ ولا تجعَلْ جوابيَ: لن تَرىٰ

فأُنكِرَ عليه، إذ لم يحصل لموسى في مقام النبوة، فكيف يحصل له في مقام

---

(١) هو جزءٌ من الحديث المخرَّج في الحاشية السابقة.

الولاية؟ فأنكر عليه قوله ذلك؛ لأن مقام الولاية لا يبلغ مقام النبوة، فكيف قاله؟! قال: لكن كان مغلوباً، والمغلوب معذور، ونحو ذلك من أقاويلهم التي أنكرت عليهم.

[صور الملائكة]

قال الناقل: وسألته رَضِيَ اللهُ عنه عما جاء أن الملائكة لهم أجنحة يلتحفون ببعضها ويفترشون ببعضها، وأنَّ الواحد منهم كالجبل، ونحو هذا مما يوهم أنهم صور حسية مع أنهم أرواح معنوية؟

فقال: «هم كذلك إذا تَـمَثَّـلُوا صوراً على الصور التي يتمثلون فيها، كما رأى النبي ﷺ جبريل عليه السلام وقد سد الأفق، قال: وإنه كثيراً ما يراه على صورة دحية، وكذا في القرآن ﴿أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ﴾ [فاطر: ١]، وأما حالتهم الأصلية فهي الروحية».

[من تهاون بطاعة الله مات قلبه]

وقال رَضِيَ اللهُ عنه: «من تهاون بطاعة الله الظاهرة ووقع في معصيته لا بدّ له من الموت عاجلاً وآجلاً، وأول ما يموت منه قلبه».

[التدرُّج في طلب العلم]

وقال رَضِيَ اللهُ عنه: «المبتدي الذي لم يتبحر في العلوم إذا نظر إلى الخلاف في العلوم تفرّق قلبه، وتشتت همّه، وفاته التحصيل، سيما في الإلهيات والنبوات،

وربما يقع في شبهة ولا معه من العلم ما يزيلها به، وأما إذا تمكن في العلوم فلا بأس أن ينظر في الخلافيات ليعلم ذلك».

[معنى حديث «اللهم أعط منفقاً خلفاً»... إلخ]

قال الناقل: وذكر سيدنا عبد الله يوماً حديث الملكَيْن يصيحان يناديان صباح كل يوم، أحدهما ينادي: اللهم أعط منفقاً خلفاً، والآخر ينادي: اللهم أعط ممسكاً تلفاً[1]، ثم قال: «هذا في من لم يخرج الزكاة فيمنع حق الله الواجب، أو لم يتصدق مع قدرته على ذلك؛ بل يبخل عن ذلك ويجبي المال وينميه ويحرص عليه ويحب زيادته».

[الاقتصار في الملبوس والمأكول والنوم على ما لا بدَّ منه]

وقال رَضِيَ اللهُ عنه: «ينبغي للإنسان أن يقتصر من الملبوس والمأكول والنوم على ما لا بدَّ له منه؛ لأنه على هذا درج السلف والأخيار، وخصوصاً في هذا الزمان الذي كثر فيه الحرام وقلَّ الحلال والنيات الصالحة، فإن كان ممن وُسِّعَ عليه لينفق منه إن وفقه الله في كل الأوقات، وإلا ففي بعضها، وإن كان ممن قُتِّر عليه فما معه إلا ذلك».

قال الناقل رحمه الله تعالى: ومراده أن الاقتصار على ما ذكر في هذا الزمان ألزَمُ لما ذكر من حاله وأحوال أهله، والمراد بصلاح الزمان: ما كثر فيه الحلال وكثر فيه الصالحون والآكلون منه بنية الاستعانة به على الخير، وبفساد الزمان: ما

---

(١) رواه البخاري (١٤٤٢) ومسلم (١٠١٠)، وغيرهما.

كان على العكس من قلة الحلال وقلة النية الصالحة أو عدمها وكثرة الحرام، وإن كانت الأزمنة كلها لا تخلو من كل ذلك؛ ولكن تختلف بالكثرة والقلة كما بشر به المرسلون النبيَّ ﷺ ليلة المعراج بقولهم: «أبشر يا محمد، فإنا نرى الخير فيك وفي أمتك إلى يوم القيامة»، فلا تخلو من ذلك قط. فمن خواص هذه الأمة المكرمة أنها لا تخلو من الخير ولا تجتمع على ضلال، وإن اشتهر وانتشر بعض الأمور المنكرة، فليس ذلك في جميع الأمة؛ بل في بعضها، وكرامتها لكرامة نبيها.

[أصلح الصالحين]

وقال رَضِيَ اللهُ عنه: «أصلح الصالحين من لا يرى أنه من الصالحين».

[الدعاء والتوكل على الله في دفع الظلم]

وقال رَضِيَ اللهُ عنه: «ينبغي إذا ظُلِمَ الإنسان أن يدعو الله ويكِلَ أمرَ الظالم إلى الله حتى ينتصر له، فلعلّ الانتصار لا يحصل إلا بالسكوت»، أو قال: «متوقف على السكوت».

وقال لرجل: «استعد للنوائب بسورة يس، وإذا ظُلِمْتَ فلا تنتصر لنفسك، وسلِّم الأمر ربَّك لينتصر لك، فإن من انتصر لنفسه لا يكون له من الله نصير».

[الدليل على ولاية الله لك]

وقال رَضِيَ اللهُ عنه: «زُهدُ الرجل وخروج الدنيا من قلبه أدلُّ دليل على ولاية الله له وأنه من أولياء الله».

[أهل هذا الزمان]

وقال رَضِيَ اللهُ عنه: «أهل الزمان كلهم أقفية، وليسوا بوجوه، فإذا لم يكن لك بهم نسبة لا في شور ولا في عطاء ولا غير ذلك فهو أحسن، فإنك لو أحسنت إلى أحدهم، ما رجع إليك منه إلا شر».

قال الناقل: وقال لي: هل صليت الاستخارة، وانشرح صدرك لذلك الأمر الذي قلنا لك؟

فقلت: صليت الاستخارة ولا ظهر لي شيء؛ ولكن ما أشرتم به هو الصواب.

فقال: لا، قد حكينا لكم أن طريقتنا أنا لا نأمر أحداً ابتداءً بأمر؛ لأنا قد صحبنا على ذلك أقواماً ما فعلوا معنا إلا هكذا، وإنما نشير على من استشارنا بما نرى فيه الصواب، ونبين له وجه الصواب فيه، وهو بالخيار، ونحن في هذا الزمان لا يتأتى لنا ذلك؛ لأنَّا رأينا أهل الزمان وجربناهم مراراً كثيراً، نقول له في الشيء وكأنه لم يسمع منك فيه كلمة، والتجربة تحصل بمرتَيْن من شخصَيْن لا أكثر من ذلك، ولو قلنا لواحد: افعل كذا، لراح وتركنا، وربما أوجب له ذلك الانقطاعَ عنَّا، وإنما نحن مُيَسِّرون، ونَسْتَجِرُّ الناس إلى الصواب، وتلك درجة أصحاب اليمين.

فقلت لسيدنا: كان عادة المشايخ، فيمن صحبهم، أنهم لا يراعون ذلك مع صحبهم، فقال: وأين هذا اليوم؟ كانوا إذا جاءهم أحد لا يجيء حتى يجعل

إليهم النظر في نفسه، حتى لو أرادوا ذبحه لا يقول في نفسه: إن هذا لا يجوز في الشرع. وافهم هذا من قصة الخضر، فإن الله جعلها في وقت ليعتبر بها أحوال أهل الكمال من هذه الأمة مع من أرادوا يرقونه إلى حال الكمال، فهل يجوز لأحد قتل غلام أو خرق سفينة سائرة في البحر وفيها الناس؟ وإنما معنى ذلك أن مرادك معرفة العلم بالله، وهو طور وراء طور عقلك ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٤]، فسلم فيه الأمر لله بلا اعتراض ولا إنكار، وإنما تكليف الشرع معك على مقتضى طور العقل، وهو مقام الدعوة لعموم الخلق، وهو معنى قول سيدنا: إنما نحن على مقام طريق العموم وما كلفنا أن ندعو إلى طريق الخصوص، ومرةً قال: يحسب الناس أنا على الطريق الخاصة، وإنما نحن على الطريق العامة، وإنما أنكر سيدنا موسى ذلك من الخضر لكونه مخالفاً لطريق العموم، وقد يعرف من طريق الخصوص أبلغ مما عرف الخضر واطلع عليه فلا ينكره، فلهذا وجب على المريد أن يكون في غاية من الرضا والتسليم، وأن يكون مع شيخه كالميت بين يدي الغاسل، وكل هذه المعاني واقعة في معناها بين طريق الخصوص وطريق العموم في هذه الأمة، فافهم. ولو أمره مثلاً بامتثال أمر ظاهره مخالف للشرع، إظهاراً لانقياده، لتحققه بالعبودية، فهم يحمونه ـ أي: يحميه الله ببركتهم ـ كما ذكر عن الشيخ عمر بامخرمة لما جاء إلى الشيخ عبد الرحمن[1] أبا هرمز طالباً منه يعطيه الطريق، قال له: صَلِّ ركعتَيْن إلى جهة الشرق وكأن القبلة هناك إلى جهة الغرب، فلما استقبل إلى جهة الشرق رأى الكعبة تلقاءه فأحرم إليها وهو يراها، ومثل ذلك، فيحميه الله ببركتهم عن أن يقع فيما يضره في دينه ودنياه ببركة ما أعطاه الله من قوة اليقين.

---

(١) وفي ب (عبد الله).

وكذلك حُكي عن أحمد بن أبي الحواري أنه أمره شيخه أبو سليمان الداراني أن يحمي التنور ليخبز فيه قوتهما، فحماه، فأبطأ ينتظره بأمره له بطرح العجين فيه، فقال له: إن التنور قد حمي، فقال له: قع فيه، فامتثل أمره ووقع فيه، فغفل عنه ساعةً ثم ذكر فناداه، فخرج من التنور ولم تضره النار! فهكذا أحوال المشايخ مع المريدين الصادقين.

فإن كنت من هذا القبيل وإلا فادرج عنه فليس بعشك، ولا تَدَّعِ ما لست له بأهل، وإنما المقصود من فعل المشايخ هذه الأشياء مع المريدين تمرينُهم على الانقياد الكلي والإذعان بقوة اليقين لأحكام الله الدال على التحقق بكمال مقام العبودية، كما يقال في بعض الأحكام ما هو معقول المعنى وبعضها غير معقول المعنى؛ بل مجرد تعبد وانقياد، فسيدنا، نفع الله به، إنما لم يؤكد على أحد في هذا الزمان بامتثال أمره؛ لعلمه أنهم ليسوا كذلك، أي: ليسوا كما ذكرنا آنفاً.

[الاحتجاج بالقضاء والقدر]

وتكلم يوماً في القضاء والقدر، فقال: «هذه الأشياء هي أفعال العباد، فيؤمن بأنها من الله، ولا يحتج على الله بالقضاء والقدر؛ بل يجتهد ويختار الأحسن حتى يُغْلَب، وقد عَلَّمك الله القضاء والقدر فخذ به؛ لأن اختيارك من فعل الله فماذا تحتج به؟! كما إذا حضر الطعام عندك وأنت جائع، أو قَصَدَكَ عدو من سبُع وغيره ومعك سلاح وأنت قادر فتترك ذلك، فلا تأكل ولا تقاتل، وتقول: إنْ قَدَّرَ الله شيئاً هو يكون، فهو قَدَّرَ لك بأن أعطاك الاختيار والقدرة، وفَصَّلَ لك أنواع الخير والشر، وبَيَّنَ الأحسن والأسوأ، فاجتهد أنت وتَحَرَّ ما يحسن، ولا تجلس

وتعتذر، ومعك خصلتان يضل بهما الناس، وما عرفوهما، لأنهم أخذوهما بجهل جاهل عن جاهل، ولا يعلمونهما: القضاء والقدر، والتوبة، فيحتج بالقضاء والقدر، مع التقصير في حقوق الله، والاحتجاجُ بهما مع المعصية معصيةٌ أكبر من تلك المعصية، وفي التوبة ربما تاب من بعض الذنوب فنقضها، وما جاء في طلب الرضا بالمقدور فهو يعني في أمور الدنيا من فقر أو غنى، أو ربح في تجارة أو خسران، أو مرض أو صحة أو موت وأمثال ذلك، لا بأن ترضى بترك واجب أو فعل محرم؛ لأن الله لا يرضى لعباده الكفر، وكذلك فروعه».

قال: «وما وقع من أفعال الله هو الأصلح على أي وجه كان، وفيه حِكَمٌ لا يحيط بعلمها الخلق، لأنهم لم يحيطوا علماً بكل شيء، وإن كان يُظَن في الشيء أنَّ الأصلح خلافه، فيقول: لأي شيء يكون الشوك، وإنما الفائدة في الثمر؟ وكذلك لا حاجة إلى نحو الحَيَّات والعقارب، ففيها حكم ومنافع لا يحيط بها الوهم، أقل الحال أن لا يبطر الخلق إذا كان كل شيء على ما أرادوا».

وقال رَضِيَ اللهُ عنه: «والمُصِرُّ على الذنوب مع رجاء العفو مُتَمَنٍّ، والمعتل مع ذلك بالقضاء والقدر مبتدع، وهذه مسألة قديمة، قد اعتلَّ بها الكفار؛ ولكنها شاعت عند العامة، فأول ما يلام على المعصية احتج بذلك، وجعلوه كالجبر، وليس هذا عذراً لمن بقي معه الاختيار».

[خطر الوساوس أثناء العبادة ووجوب الاحتراز منها]

وذكر الوسوسة في الصلاة والتلاوة والذكر فقال: «لا أحسن للإنسان في الصلاة من ترك الخواطر والإعراض عنها، ولا شك أن الخواطر الحاصلة في

طاعة تدعوه إلى طاعة أخرى. إنها من الشيطان؛ لأنها تسلبه الحضور فيها، فإن دعته إلى مباح كان أخس، فإن كان إلى حرام ـ والعياذ بالله ـ فالأمر أشد، وإذا لم يمكنه الحضور الكلي التام، الذي يعرفه من ذاقه، وفيه يكون اللسان تابعاً للقلب، فلا أقل من أن يجعل القلب تابعاً للسان، بحيث يجري عليه معاني ما يجري به اللسان، ويتأمل ما يقرؤه. ومن العجيب أنَّ الإنسان في حالة الأكل تَقِلُّ خواطره؛ لأنَّ النفس مجتمعة على مطلوبها، فإذا قام إلى الصلاة تفتحت عليه الخواطر من كل جانب؛ لأنها خلاف مطلوب النفس فتضيق منها، ومن حضر في صلاته فهو في الحضرة، ومن وسوس فيها بمباح فهو خارجها، أو بمحرم فهو في حضرة الشيطان.

والرياء هو: الفعل بالقصد، غير الخواطر التي تـخطر من غير اختيار، فإن قلوب الضعفاء تكثر فيها الخواطر من هذا الجنس، حتى يتخلى القلب من الخلق، وقليلٌ خطورُها في قلوب المتقين، فإذ خطر منها خاطرٌ نادر، بادروا إلى الرجوع عنه، وهو معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟﴾ [الأعراف: ٢٠١]، الآية. وذلك حين يتخلى القلب وينخلع عن كل ما سوى الله تعالى، وذلك هو الكبريت الأحمر الذي يعز وجوده ويُتَحَدَّثُ به ولا يوجد»، أو كما قال.

قال الناقل رحمه الله تعالى: أقول: قال الشعراوي: عدم الخواطر في الصلاة ليس من طاقة البشر؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «رأيت في مقامي الجنة والنار»[1]، وكان في صلاة الكسوف، فلو كان يقدح في الصلاة لما وقع له ﷺ.

---

(١) رواه مسلم (٢: ٦١٩) رقم (٣)، والنسائي في الكسوف، والبيهقي (٣: ٣٤١).

وقول عمر رَضيَ اللهُ عنه: إني لأجهز جيوشي في الصلاة. قال: وذلك لكماله؛ لأن الكل لا يشغلهم عن الله شاغل مع أن ذلك كان في مرضاة الله.

وقد فصّل سيدنا الخواطر العارضة في الصلاة في «الفصول العلمية»[1] وفي «إتحاف السائل» أكثر، ومادة كلامه هنا غير مادة كلامه هناك، يبين لك ذلك إذا نظرت إلى كلٍّ في محله، ففي «الإتحاف» سئل عنها، وكان مقصد كلامه في جوابه عنها وحكمها ومادتها، وفي موضع من «المجالس» سئل عن سببها، فقال: أصلها من الطعمة والخلطة، يعني إذا كانت الطعمة فيها شبهة أو غير خالصة في الحل أو كانت للخلطة مع أناس لا تقوى معهم فلا يتحاشون الفضول والغيبة، ومادة كلامه في «الفصول» ذكْرُهُ نقصانَ الإنسان إذا كثرت عليه الخواطر في

---

(١) قال رحمه الله في «الفصول العلمية» في الفصل الرابع والثلاثين (ص ٨٥): «من أضر الأشياء على الإنسان في حال صلاته وتلاوته للقرآن وذكره لله تعالى وساوس الصدر، وكثرة الخواطر، وحديث النفس بالماضيات والمستقبلات، وإذا استغرق القلب بها وأمعن فيها أفسدت عليه حقيقة هذه العبادات ومعناها وما هو المراد منها، وربما تفسد عليه صورة العبادة الظاهرة منها، فيصير حاله كحال من لم يقم بها أصلاً أو أسوأ حالاً منه، كما يعرِف ذلك من يهتم له ويجربه ممن يهمه أمرُ دينه، والقيام بحق ربه، والسعي لآخرته. ثم إن كانت تلك الخواطر وأحاديث النفس بطاعات لا تعلق لها بما هو فيه فذلك من خداع الشيطان وتلبيسه على الإنسان، وترويجه الشر في معرض الخير. وإن كانت بأمور من المباحات كان ذلك أنزل وأسفل، وإن كانت بأمور أخرى من المعاصي والسيئات كان ذلك أسوأ وأقبح، وربما يُصَدُّ العبدُ بسببها عن حضرة الله تعالى ويكون من الممقوتين والمُبعَدين. فليحذر العبد من ذلك كل الحذر. ولا يُخَلِّ نفسه وأحاديثها ووساوسها التي لا خير فيها وهو بين يدي الله تعالى يذكره، ويناجيه، ويصلي لوجهه، ويتلو كتابه العزيز. ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦]، ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٥ - ٣٦]».

الصلاة وسلبته الحضور فيها، ومادته هنا ذكْرُ أنّ الخواطر على وجوهها الثلاثة المذكورة للرياءِ من الشيطان؛ لأنها تسلبه الحضور في الصلاة، وأن بعضها أشد من بعض، أولها: أن تدعوه منها إلى طاعة أخرى، وأشد منها إن دعته إلى مباح، وأشد منه إن دعته إلى حرام، وأن الخواطر في الصلاة إذا عجز عن ردها دليل على نقصه، والكامل لا يعرض له فيها هفوة، شغلَ قَلْبَه الحضورُ مع الله فيها.

[أذكار النوم]

وقال رَضِيَ اللهُ عنه: «من أتى بأذكار النوم عند المنام فتكلم بكلام أجنبي ينبغي أن يعيد ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ و«الإخلاص» فقط؛ لأنه ورد أن يأتي بهما آخراً، فإن انتبه أثناء الليل ونيته العود إلى النوم يكفيه الأول، فإن قام وليس نيته الإعادة إلى النوم، ثم بدا له أن ينام: يأتي منه بما تيسر، ولم يرد في القيلولة شيء، ولا بأس بيسير منه ولو لم يرد إذ ذاك، فإنَّ أوقاته ﷺ كانت محفوظة».

قال الناقل رحمه الله تعالى: وذَكَر علمَ الحديث وأكثر فيه، ثم قال:

«ما جمعنا كتب الحديث إلا لأجل المهدي، فإنه إذا خرج لا يأخذ بفتاوى الفقهاء؛ بل إنما يأخذ بالكتاب والسنة ويدع ما عداهما، أما ترى الاختلاف الحاصل بينهم، ولولا ما جرى عليه سلفنا من الأخذ بمذهب الشافعي، كان أحببنا أن نأخذ بمذهب مالك؛ لأن فيه مسائل إذا تأملتها رأيتها أنها هي السنة؛ لأنه عالِمُ المدينة، وعمدته ما أجمع عليه أهل المدينة؛ ولكن الشافعي مالكي؛ لأنه تلميذه أخذ عنه؛ ولكن لما تأخر عن مالك وقد أتقن مذهب مالك وعثر على علوم لأحاديث أخرى لم يقف عليها مالك فخالفه في بعض المسائل، ثم

جاء بعده الإمام أحمد وتتبع مذهب الشافعي وحرره، فكأنَّ المذاهب ـ لذلك ـ كلها مذهبٌ واحد».

قال الناقل رحمه الله: قوله: «فكأنّ المذاهبَ الأربعةَ لذلك مذهبٌ واحدٌ»، أي: كون كل واحد منهم أخذ عن الآخر، ثم تتبع الآخر ما ثبت مما لم يذكره المأخوذ عنه، ومرادُ كُلِّهم اتباع ما ثبت عن الله ورسوله، فهم لذلك مذهب واحد.

ويؤيد ذلك ما حُكي أن بعض كبار مشايخ اليمن رأى أن القيامة قامت، وأن الحق سبحانه دعا بالأئمة الأربعة للحساب، فلما وقفوا بين يديه، قال لهم: أرسلت إليكم رسولاً واحدًا بشريعة واحدة فجعلتموها أربعة؟! فما منهم من تكلم، ثم أعاد القول مرة أخرى فما تكلموا، ثم أعاد الثالثة، فقال الإمام أحمد بعد الثالثة: يا رب، إنك قلت: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨]، فقال تعالى: قد أذنت لكم، فقال الإمام أحمد: مَنْ يشهد علينا بذلك؟ قال: تشهد عليكم الملائكة، قال الإمام أحمد: لنا القدح في شهادتهم؟ قال: لِمَ؟ قال: لأنهم شهدوا علينا بالإفساد وسفك الدماء قبل وجودنا، لَمَّا قالوا حين خلقت أبانا آدم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٣٠]، فشهدوا علينا بالإفساد وسفك الدماء قبل وجودنا، قال سبحانه: تشهد عليكم أعضاؤكم، قال الإمام أحمد: يا رب، كانت الأعضاء في الدنيا لا تشهد وهي اليوم تشهد مكرهة، والمكره لا تصح شهادته، قال سبحانه: أنا أشهد عليكم، قال الإمام أحمد: يا رب حاكم وشاهد! ما عرفنا هذا في أحكامك في دار الدنيا! وقال تعالى: اذهبوا فقد غفرت لكم. تمت الحكاية. وما بقي الرائي بعد هذه الرؤيا إلا نحو ثلاثة أيام وتوفي.

[المجاورة في مكة المكرمة]

وقال رَضيَ اللهُ عنه: «لا تصلح المجاورة بمكة إلا لأحد رجلَيْن: إما عارف عالم كالبحر لا يبالي بشيء وخامل جداً، أو سائح في الجبال كابن الفارض».

قال: «ومن حجَّ ليصحَّ حجه للناس فحجته معلولة، وحج الناس في ذمته».

[وساوس النفس]

وتكلّم في الوسواس وقال: «ما توسوس به في نفسك على أي وجه كان لا تؤاخذ به؛ لأنه كلام الشيطان، ولا يؤاخذ الإنسان بكلام غيره، فتحسبه أنه كلامك وليس بكلامك، فلو تكلم أحد على النبي ﷺ هل تؤاخذ به أنت؟ وإنما يجب عليك الإعراض عنه ومنعه إن قدرت لا غير، ووسوسة الشيطان كذلك، وما سببها إلا مجالسة الأشرار، وأكل لقيمات الحرام، فاجتنبها أولاً، ثم اجتنب الوسوسة، أصلح الظاهر ثم أصلح الباطن، ولا يمكن صلاحه إلا بعد صلاح الظاهر، وترقَّ في ذلك فإن الدين درجات، قال عليه السلام: «إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق»[1]، فمن غالبه غلبه.

---

(١) ذكره الغزالي في الإحياء، وقال العراقي: لا يصح إسناده. ورواه البيهقي من حديث جابر: «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله»، قال الزبيدي في الإتحاف: رواه البيهقي من طرق، وفيه اضطراب، روي موصولاً ومرسلاً ومرفوعاً وموقوفاً، واضطراب في =

وتقدم قوله: «إنَّ الله لا يؤاخذ الإنسان بوسواس الشيطان إذا كان له كارهاً وعقيدته بخلافه».

[من مناقب الإمام الغزالي]

ولما ختم السيد زين العابدين كتاب «الأربعين الأصل» للإمام الغزالي تكلم سيدنا كثيراً في ذلك المجلس، ومن ذلك أنه قال: «سبحان الله، كلام الغزالي يكفي من غيره، وغيره لا يكفي منه، وصدق من قال: لو يجوز خروج نبي لكان الإمام الغزالي، وتثبت معجزاته ببعض مؤلفاته، وقد رأى الإمام الرازي أو بعض أصحابه النبي ﷺ، فقال عليه السلام له: أتحب إن كنت قد أدركتني؟ فقال: كيف لا أحب ذلك! وأنا متأسف على رجل من أمتك ما أدركته أن لا أكون أدركته، فقال: من هو؟ قال: الإمام الغزالي، فقال عليه السلام: ذاك هو الإمام الزاهد الفاعل، حتى عد مئة خصلة. وكذلك ما رواه الشيخ أحمد الزبيدي ليلة مات الإمام الغزالي، وهو أنه رأى أنه أُخرج ميتٌ من قبره وعرج به من سماء إلى سماء حتى تغطى عنه، فسأل عنه، فقيل: هو الإمام الغزالي».

= الصحابي أهو جابر أو عائشة أو عمر؟ ورجح البخاري في التاريخ إرساله، وروى البزار في مسنده من حديث جابر بلفظ: «إنّ هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق، فإن المُـنْبَتَّ لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى»، وفي سنده متروك. وروى أحمد من حديث أنس: «إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق»، والإيغال: الدخول في الشيء. والمعنى: لا تحمِّلوا أنفسكم ما لا تطيقون فتعجزوا وتتركوا العمل. وروى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة: «إن الدين يسر، ولن يشاد هذا الدين أحدٌ إلا غلبه، فسددوا وقاربوا...» الحديث.

قال الناقل رحمه الله تعالى: يعني بالشيخ الزبيدي: الشيخ أحمد الصياد[١]، فقد تقدمت قصته هذه التي أشار إليها هنا، ومكاشفته من رؤيته ما ذكر وهو في زبيد، فرأى أنَّ ميتاً وضع في قبره في بعض بلدان العجم ـ وهي طوس ـ فأُخذ من لحده وعُرج به من سماء إلى سماء، حتى تعدوا به السبع السموات إلى حيث غُيِّب عنه ولم يره، قال: ولم أعلم إلى أين انتهوا به، وهو موافق لقول أخيه أحمد الغزالي، قال: حين وضعناه في لحده بطوس، رأينا يداً تناولته من اللحد فأخذته، وبقي اللحد فارغاً لا نرى فيه أحداً! وهذا يدل على جلالته وكرامته ومنزلته عند الله تعالى.

وكذلك رؤيا الشيخ أبي الحسن الشاذلي رَضيَ اللهُ عنه[٢] قال: نمت في المسجد الأقصى، فرأيت خلقاً كثيراً جاؤوا فدخلوا أفواجاً أفواجاً، فقلت لرجل في جنبي: ما هذا الجمع؟ قال: هؤلاء جميع الأنبياء والمرسلين، مئتا ألف وأربعة وعشرون ألفاً، قد حضروا ليشفعوا في الحسين بن منصور الحلاج[٣] عند محمد

---

(١) الشيخ الكبير، والولي الممكَّن، صاحب الأحوال العظيمة والمواهب الجسيمة، أبو العباس أحمد ابن أبي الخير، المعروف بالصياد، له كلام حسن في الحقائق، فمن ذلك قوله وقد سئل: هل العارف أعلى أم المحب؟ فقال: بل العارف؛ لأن المحب مشغول بالمحبة، والعارف مشغول بالمحبوب. كان حنفي المذهب (انظر ترجمته في طبقات الخواص للزبيدي ص ٦٥ - ٦٨).

(٢) هو الإمام: أبو الحسين علي بن عبد الجبار الشاذلي الضرير، نزيل الإسكندرية، (٥٩٣ - ٦٥٦هـ) صوفي فقيه، ناظم شاعر، نسبت إليه الطريقة الشاذلية، أخذ علم السلوك والأخلاق عن أبي عبد الله بن حرازم، وتفقه بتونس على مذهب الإمام مالك بن أنس، وساح في كثير من البلاد، وتوفي بصحراء عيذاب قاصداً الحج، فدفن هناك في ذي القعدة، (معجم المؤلفين ٧: ١٣٧) وانظر (لواقح الأنوار في طبقات الأخيار للشعراني٢: ٥ - ١٧) وغيرهما.

(٣) هو الحسين بن منصور الحلاج «أبو مغيث» المتوفى سنة (٣٠٩هـ)، أصله من بيضاء فارس، نشأ بواسط العراق أو بتستر، وانتقل إلى البصرة وحج ودخل بغداد وعاد إلى تستر، كان يأكل يسيراً =

عليه الصلاة والسلام في إساءة أدب وقعت منه، فشفعهم فيه قبل شفاعتهم وعفا عنه، ثم نظرت فإذا نبينا محمد ﷺ جالس على التخت بانفراده، وجميع الأنبياء والرسل جالسون على الأرض مثل: إبراهيم وموسى وعيسى ونوح، فوقفت أنظر وأسمع كلامهم، فقام واحد منهم، فقلت لذلك الرجل: من هذا؟ قال: هذا موسى بن عمران عليه السلام، فخاطب موسى محمداً عليهما الصلاة والسلام، فقال له: يا محمد، أنت قلت: «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل» فأرني من علماء أمتك واحداً، فقال له: هذا، وأشار إلى الإمام الغزالي رحمه الله، فقال له موسى: ما اسمك؟ فقال: اسمي محمد بن محمد بن محمد الغزالي، فاعترض عليه موسى، وقال: ينبغي أن يكون الجواب مطابقاً للسؤال. سألتك سؤالاً واحداً فأجبتني بأربعة أجوبة، فقال له الغزالي: اعتراضك علي وارد عليك حين سألك ربك، بقوله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ١٧]، فكان جوابك أن قلت: ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه: ١٨]، فكيف ما أجبت بجواب واحد حتى أجبته بأربعة أجوبة وهو أعلم بك وبعصاك؟ فابتهر سيدنا موسى من قوله وتعجب غاية العجب، وقال: صدقت يا محمد، علماء أمتك كأنبيائنا. قال الرائي: فبينا أنا متفكر في جلالة قدر نبيِّنا وكونه جالساً على التخت بانفراده والبقية على الأرض، إذ رفسني شخص برجله رفسةً

= ويصلي كثيراً، ويصوم الدهر، صحب الجنيد وأبا الحسين التوري وعمرو المكي وغيرهم. والمشايخ في أمره مختلفون، ردَّه كثير من المشايخ ونفوه، وأَبَوْا أن يكون له قدم في التصوف، وقبله آخرون من جملتهم: أبو العباس بن عطاء، وأبو عبد الله محمد بن خفيف، وأبو القاسم إبراهيم بن محمد النظر آبادي، وأثنوا عليه، وصححوا له حاله وحكوا عنه كلامه، وجعلوه أحد المحققين، حتى قال محمد بن خفيف: «الحسين بن منصور عالم رباني» قتل ببغداد يوم الثلاثاء، لستٍّ بَقِين من ذي القعدة سنة (٣٠٩هـ). (انظر طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي ص ٣٠٧ - ٣٠٨).

مزعجة فانتبهت، فإذا بالقيم يشعل قناديل المسجد الأقصى، فقال: لا تعجب، فإن الكل خلقوا من نوره، فخررت مغشياً علي، فلما أقاموا الصلاة أفقت وطلبت القيمَ فلم أجده إلى يومي هذا! ومن هنا قال البوصيري رحمه الله تعالى في البردة:

وانسُبْ إلى ذاتِهِ ما شئتَ من شرَفٍ ... وانسُبْ إلى قَدْرِه ما شئتَ مِن عِظَمِ

فـإنّ فضْـلَ رسُـولِ الله لـيس لـهُ ... حـدٌّ فيُعـرِبَ عنـهُ نـاطقٌ بفَـمِ

انتهى. من «شرح الخفاجي على الشفا».

وكل ذلك دليل على فضيلة الإمام الغزالي وشاهد لجلالة قدره وشرفه، وبهذا سمي حجة الإسلام، ويكفيه من الشرف تعظيم السادة بني علوي له، كما ذكرنا من قول سيدنا عبد الله، وقوة محبتهم له ولكتبه، وقوة اعتقادهم فيه وتنويههم بذكره وتعظيم كتبه، حتى قال الشيخ القطب السيد عبد الله العيدروس نفع الله به: لو بعث الأموات لما أوصوا الأحياء إلا بالإحياء.

وقصة ابن حرزهم في الغرب مشهورة تروى عن الشيخ أبي الحسن الشاذلي نفع الله به، وهي كما قال الشيخ أبو الحسن رَضيَ اللهُ عنه: أن الشيخ ابن حرزهم كان فقيهاً مشهوراً، وكلمته مسموعة في بلاد المغرب، فطالع في كتاب «الإحياء»، فأنكر على الإمام الغزالي في مواضعَ منه، فجمع جميع نسخه وعزم على إحراقها كلها، وفي ليلةِ عَزَمَ على إحراقها في صبيحة تلك الليلة قال: إنه رأى النبي ﷺ وهو في جمع كثير وعلى يمينه أبو بكر ـ وأظن قال: وإلى جنبه عمر ـ وإذا الغزالي قد أقبل وسلم على رسول الله ﷺ وقَبَّلَ يده وفي يده نسخة «الإحياء»، وقرأ على رسول الله ﷺ من أوله في العقيدة قوله: «وأنه بعث الرسول النبي الأمي إلى كافة العرب والعجم»، قال: فرأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل سروراً، ثم ناول الكتاب

لرسول الله ﷺ فنظره فأعجبه، ثم ناوله لأبي بكر فنظره وأعجبه، وقال كل منهما: هذا شيء حسن، فقال الغزالي: إن كان هذا على دينك وموافقاً لشريعتك فخذ لي حقي من خصمي هذا، قال: فأمر علياً رسول الله ﷺ أن أُضْرَبَ بسوط، فلما ضُرِبتُ ثلاثة أسواط شفع فيَّ الصديق، وقال: يا رسول الله، إنما هم مجتهدون. وانتبه ابن حرزهم وأثر السياط ظاهر في ظهره ويؤلمه، فتاب مما نوى في «الإحياء»، وأقبل عليه يطالع فيه بعد ذلك بعقيدة ومحبة، وفتح الله عليه فيه. قال الشيخ أبو الحسن: ولقد حضرت غسل ابن حرزهم بعد موته فرأيت أثر السياط ثلاث ضربات بيِّنة في ظهره.

[ما يليق أثناء تفسير القرآن والأحاديث الشريفة]

وقال رَضِيَ اللهُ عنه: «ما يليق في تفسير القرآن وشرح الأحاديث إلا الخشوع والخوف، لأنها رقائق، ولا يحسن فيها البحث، ونقل الأقوال».

[مسألة القدر والمذاهب الإسلامية فيها]

[وقال رَضِيَ اللهُ عنه]: «ومسألة القدر فيها إشكال لا يزول، وهي على ثلاث درجات: مذهب القدَرية، والجَبْرية، وقد انقرضوا، حتى لم يبقَ اليوم منهم أحد، وكانوا أنباءً، ومذهب أهل السنة وسط بينهما؛ ولكن اعْمَل ما يصلحك في أمر دينك ـ على الوجه المقرر ـ ودنياك، وإن شَقَّ ذلك، فتشبث به على ما قرره أئمة الحق».

قال الناقل رحمه الله تعالى: قوله: «ثلاث درجات»، يعني: الناس فيها على ثلاثة مذاهب: مذهب القدَرية، متعلِّقون بالأسباب ظاهرهم وباطنهم، لا يرون

النفع إلا من قبلها، ونسوا المُسبب الحق الذي وجهها إلى مسبباتها، وشرط أن لا يحصل مقصودها الذي وجهها له ـ وهو النفع المرادة له ـ إلا بإرادته، وهي مشيئته أن تقع تلك المنافع بتلك الأسباب، فإن لم يشأ ذلك لم تفده الأسباب، فافهم ذلك، فإنَّ جمهور الناس غافلون عنه، فهم قدرية، وما علموا كما تقدم ذلك من قول سيدنا، والدليل في هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧]، والابتغاء هو: التسبب، وما كتب الله هو ما أراده، فدل ذلك في كل أمر أنه لا يحصل مقصود سبب إلا بإرادة الله تعالى، وغير ذلك من الدلائل إذا تأملتها في القرآن، حتى مشيئتك في قصدك فعلَ السبب ما تكون إلا بمشيئة الله، لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، أي: ما تشاءون الاستقامة التي هي سبب رضا الله ودخول جنته والنجاة من ناره، وسبب كل خير في الدنيا والآخرة إلا بمشيئته، فأين أنت عن هذه المعاني؟

ومذهب الجَبْرية عكس مذهب القدَرية، يقولون: نحن معتمدون على الله، لا نرى نافعاً إلا الله، ولا تنفع الأسباب، وتركوها، وقالوا: لا نافع ولا ضار إلا الله، وتركوا أحكام الله التي جعل اتباعها سبباً للنجاة في الدنيا والآخرة من العار والنار، وما اعتمد على الله مَن ضيع أحكامه، وذلك ـ قطعاً ـ خزي وعذاب في الدنيا والآخرة، وقد جعل الله ـ قطعاً ـ رضاه وعافيته في الدارَيْن متوقفاً على اتباع أحكامه، ويرون أنهم في أحوالهم وأعمالهم القبيحة مغلوبون مقهورون في كل ما يأتون ويذرون، كحال المرتعش الذي يرتعش قهراً من غير اختيار، يعني: فلا ملام عليهم في فعل قبيح، ولا حمد لهم في فعل مليح، وكلا المذهبَيْن باطلان.

قوله: «وكانوا أنباءً» أي أخباراً: تُذكر ولا تُرى، يعني: أنَّ أهل هذَيْن المذهبَيْن قد انقرضوا وما بقي منهم أحد سوى أخبارهم.

ومذهب أهل السنة، وهم الباقون اليوم، ومذهبهم هو الحق الوسط بين المذهبَيْن، فيعملون الأسباب امتثالاً لأمر الله، ويعتمدون بقلوبهم في حصول النفع على الله، وكونه هو الحق؛ لأنه المقرر في كلام الله وكلام رسوله ﷺ، وهو الموجود الآن، ومؤيَّد بتأييد الله إلى يوم القيامة، وكونه وسطاً؛ لأنه وسط بين المذهبين، أي: أخذ من كل واحد منهما طرفاً. ففعلوا الأسباب كما أمر الله، ولا اعتمدوا عليها كالقدرية، واعتمدوا في حصول المقصود من الأسباب على الله، فقالوا: لا يضر ولا ينفع إلا الله، وما تركوا الأسباب واتباع الأحكام كالجبرية، وهم لذلك وسط، فإن الدِّين هو الوسط، أي: وسط بين الإفراط والتفريط، وبين الغلو والتقصير، فهذا هو الحق والصواب يرشد لصحته الشرع والعقل؛ فإنّ الأسباب أشباح، وإن المقادير فيها أرواح، فلا يحيا الجسم إلا بالروح، كما لا يفعل السبب إلا ما جرى به القدر.

وهذا معنى ما أراده الله، ومعنى المكتوب ومعنى القضاء، فإن كل ما قضاه الله وأراده كتبه، وكونه خصه بأوقات وصفات هو القدر، فإن وافق السبب القدر الذي هو الإرادة مع حضور الوقت حصل المقصود الذي يراد من السبب، وإن لم يوافقه لم يحصل ما تسبب ما يُراد منه، كما دلت عليه الآية المذكورة ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧]، يعني: تسببوا بكل أمر تريدونه بسببه الذي جعله الله له، فلعل أن يوافق القدر الذي هو الكِتبة، وهو عبارة عن إرادة الله ذلك، إلا من المتسبب له، فيبقى مع فعل السبب راجياً أن يوافق الإرادة الإلهية السبب، وخائفاً ألا توافق، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨]، وما صاروا راجين لرحمته إلا

بعد فعل أسباب الرحمة، وهي هذه المذكورات، ولم يقطع لهم بالرحمة بفعلها إلا بشرط موافقة الإرادة الإلهية لها بذلك، فلما كانت غيباً لا يقطع بها صار فاعل الأسباب راجياً لعل أن توافق، فلو طمع في الرحمة بدونها كان متمنياً، وكذلك في سائر المطالب إذا طمع فيها بدون فعل أسبابها فهو متمنٍّ، مغرور، مخادعٌ نفسه، ومع الأسباب على رجاء موافقة الإرادة الإلهية فهو راج، فلا يغفل عنها، فرجاؤه بدونها ولو مع السبب رجاءٌ كاذب، أي: لا يصح له ما رجاه، وقس على ذلك في كل الأسباب الدنيوية والأخروية.

إنَّ الأسباب كلها سلم يتوصل بها إلى المقاصد، شرطَ موافقة إرادة الله لذلك، لا مطلقاً، فافهم.

وأما غرض امتثال أمر الله من العبد فيحصل له بفعل السبب، سواء وافق القدر حصول المقصود أو لم يوافق كما قيل: «إنّ عَلَيَّ فِعْلَ ما أُمِرْتُ به، وما عَلَيَّ إذا لم يُسْعِفِ القدَر».

ولما لمح هذا المعنى بعض السلف قال: لأن أدخل النار وأنا مطيع أحب إليَّ من أنْ أدخل الجنة وأنا عاصٍ، فإذا فعل الطاعة التي هي سبب دخول الجنة ووافقت الإرادة الإلهية بدخول الجنة كان ممن وعد بها ووعدت به، وتم به وعد الله له بها ولها به، وإن عمل بالمعصية التي هي سبب دخول النار ووافقت الإرادة الإلهية له بدخولها كان ممن وعد بها ووعدت به، وتم به وعد الله له بها ولها به، وإن لم توافق الإرادة الإلهية للمطيع بدخول الجنة لا بدّ أن يختم له بعمل أهل النار فيلتحق بهم، وإن لم توافق للعاصي بدخول النار لا بدّ أن يختم له بعمل أهل الجنة فيلتحق بهم. والدليل على ذلك قول رسول الله ﷺ في آخر حديث: «والذي

نفسي بيده، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإنَّ أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»[1]، والكتاب: عبارة عما أراده الله في سابق علمه وكتبه في اللوح المحفوظ، فما يموت أحد إلا على ما سبق له من الكتبة، يعني: ما أراده الله له، ويختم بذلك ولو كان عمله بخلافه، ومخالفة العمل لذلك نادر؛ ولذلك ورد ـ جرياً على الغالب ـ: يموت المرء على ما عاش عليه، ويبعث على ما مات عليه.

[الأسباب في الخير والشر]

وقال رَضيَ اللهُ عنه: «كل شيء له أسباب كثيرة، فإن أسبابه وإن تعددت تكون فرعاً لأصل واحد، وهو أصلها، وترجع جميعها إليه في الخير والشر، فإن كان شراً وأراد قطعها فليقطعه إن أراد الله به الخير، وذلك بتحكيم شيخ محقق أو أخ صالح مشفق ناصح، وإلا لم يسلم من دسائس نفسه أبداً ولو فيما هو صحيح في اعتقاده، فقد قال الإمام الغزالي: إن الإنسان لم يمكِنْه تهذيبُ نفسه إلا بمنعها من أهويتها، ولو كان ناصيته ورأيه بيد كلب لكان أنفع له من كون ذلك إلى نفسه».

قال الناقل رحمه الله تعالى: أقول: أخذ ذلك بالمعنى، ولفظه: ومن ألقى زمامه في يد كلب مثلاً حتى لم يكن تردده بحكم طبعه؛ بل بحكم غيره، فنفسه أقوم،

---

(١) رواه البخاري كتاب القدر (٦٥٩٤)، ومسلم كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه (٢٦٤٣)، وأبو داود في السنة باب (١٦)، وأحمد (١: ٣٨٢ - ٤٣٠).

وإلى قبول الرياضة الحقيقية أقرب ممن جعل زمامه في يد هواه يسترسل استرسال البهيمة. وتحت هذا سر عظيم في تزكية النفس، وهذه فائدة تحصل بوضع الشارع ﷺ كيف ما وضعه، والفائدة الحكمية والخاصية لا تتغير بالوضع وهذا يتغير بالوضع، فإن المقصود أن لا يكون مخلًّ مع اختياره، وذلك يحصل بالمنع من أحد الجانبَيْن أيَّ جانب كان، وفي مثل هذا يتصور أن تختلف الشرائع لأنه ثمرة الوضع، فيكفيك هذه التنبيهات على فضل ملازمة الاتباع في جميع الحركات والسكنات. انتهى. ذكره في «الأربعين الأصل». وأفهم معنى كلامِه أنك إذا تحققت في ملازمة اتباع الكتاب والسنة أنك لا تحتاج إلى تحكيم أحد.

[الموعظة وشروط تأثيرها]

وقال رَضِيَ اللهُ عنه: «إذا خرجت الموعظة بجد وصدق مع معرفة مقاطع الكلام، وعدم التشكّك، والوقف حيث ينبغي أن يقف عليه: نفعت، وإلا شوشت ولم تنفع».

قال الناقل رحمه الله تعالى: أقول: يعني من أهل الجد والعمل وصدق العبودية، وهم العلماء العاملون المشهورون بالتقوى والورع، لا ممن لا يعمل بعلمه، فإنَّ الناس في اتباع الأعمال أقْمَنُ من اتباع الأقوال. وقد قيل: عمل واحد يؤثر في ألف ما لم يؤثر ألف قول في واحد، و«مقاطع الكلام»، يعني: يتحقق لهم صدقه ونصيحته ورغبته في هدايتهم، بخلاف قول المتجمل بالكلام، والمراد: كلام صاحب لسان الحال، لا كلام صاحب لسان المقال.

[أثر الاقتداء بالنبي ﷺ]

وقال رَضِيَ اللهُ عنه: «السير على الطريق العام على الاقتداء بالنبي ﷺ مليح وفيه بركة، وإذا الإنسان دام عليه وتمسك به يحصل له خير مما يحصل من الخلوة».

[الزهد في الدنيا]

وقال رَضِيَ اللهُ عنه: «من عرف الدنيا زهد فيها ولو كان ما يؤمن بيوم الحساب، ثم ذكر قصة الحكيم النصراني الذي داوى المسلم وأخذ منه ثلثي ماله وكان كثيراً، فلما برأ من علته قال له: أما أخبركم نبيكم أن لا بدّ لكم من الموت؟ فقال: بلى أخبرنا بذلك، وفي كتابه الذي أنزله الله عليه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، فقال: مع إخبار نبيكم لكم أن لا بدَّ لكم من الموت! وقد أتيتني من مكان بعيد تطلب شفاء علتك! ولو برأتَ منها لا بدَّ لك من الموت، فكشف له عن جسده وإذا به علة عظيمة، وقال له: انظر كيف بي هذه العلة وما داويت نفسي عنها، لعلمي أن لا بدّ لي من الموت، وهذه دراهمك، هاكها، لا حاجة لي بها وأنا ميت عنها».

قال الناقل رحمه الله تعالى: والقصة مذكورة هنا في غير هذا الموضع، وفيها أنه أتعبته هذه العلة وكان في أقصى بلاد الصين، ودار على حكماءَ كُثْرٍ يريدهم يداوونه منها، فكل منهم يقول له: لا أقدر على مداواة علتك هذه، ولا يقدر على مداواتها إلا فلان في أقصى بلاد المغرب، يعنون هذا الحكيم ويشيرون له إليه،

فقصده بمال كثير جداً وقال: إن داويتَ علتي هذه وبرأتُ منها أعطيك ربع مالي هذا كله، وأراه المال، قال: ما أداويك إلا بثلثيه، وعالجه على أقل من ذلك فأبى، فلم يرض إلا بالثلثَيْن، فدفع له ذلك، فداواه فبرأ، ثم قال ما تقدم ذكره، فحيث برأ وقال له ما قال، ثم أرجع إليه ماله زهداً فيه، وقال له: إنما أردت أن أريك أنّي لا أريد الدنيا لزوالها عني وزوالي عنها، وأنت شحيح عليها مع تزهيد نبيكم لكم عنها.

[الدعاء بخير الدارَيْن]

وقال رَضِيَ اللهُ عنه: «لا تخص الدعاء بأمور الدنيا فقط إذا دعوت؛ ولكن إذا سألت الله شيئاً من الدنيا فاسأله قبله شيئاً من أمر الآخرة، فإنه سبحانه أكرم مِن أنْ يعطي شيئاً ويترك البعض؛ بل يعطي ذلك جميعاً».

قال الناقل رحمه الله تعالى ـ في أثناء كلام ساقه عن السيد رحمه الله تعالى ـ ورضي عنه حيث قال: وهذه كلمات نعتاد نقولها في مجالسنا، لا بدّ لنا أن نقولها، ثم ذكرها، ومراده أن نقولها عند الابتداء في المطالعة، فقلت لسيدنا في ذلك المجلس: عساكم تُملونَها عَلَيَّ أكتبها؟ فقال: نحن نكتبها ونرسلها لك في وقت آخر، ثم قال: يا حساوي الكلام كثير، والعمدة على صلاح القلب، فلما كان عشية هذا اليوم، كتبها وأرسلها إليَّ مع ابنه السيد زين العابدين، بخطه، وهي هذه: «بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم. نويت التعليم، والتعلم، والنفع، والانتفاع، والمذاكرة، والتذكير، والإفادة، والاستفادة، والحث على التمسك بكتاب الله وسنة رسوله، والدعاء إلى الهدى، والدلالة على الخير، ابتغاء وجه الله، ومرضاته، وقربه، وثوابه سبحانه وتعالى».

انتهى ما أملاه الشريف عبد الله بن علوي الحداد باعلوي. وذكر أنه يقوله أول ما يجلس لتعليمه العلم، وقراءته عليه، والله تعالى يستجيب ويتقبل من الجميع بفضله وكرمه. وكان ذلك بتاريخ وقت العصر، يوم الثلاثاء لسبع خلت من المحرم أول سنة إحدى وثلاثين ومائة وألف. انتهى بلفظه.

[منهاج أهل السنة والجماعة]

قال الناقل رحمه الله تعالى عند ذكره الكلمات من «رسالة المريد» للسيد رَضيَ اللهُ عنه قوله: وعليك بتحصين معتقدك وإصلاحه وتقويمه على منهاج الفرقة الناجية، وهي المعروفة من سائر الفرق الإسلامية بأهل السنة والجماعة، وهم المتمسكون بما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه.

وأنت إذا نظرت بفهم مستقيم عن قلب سليم في نصوص الكتاب والسنة المتضمنة لعلوم الإيمان، وطالعت سير السلف الصالح من الصحابة والتابعين، علمت وتحققت أن الحق مع الفرقة الموسومة بالأشعرية، نسبة إلى الشيخ أبي الحسن الأشعري رحمه الله تعالى. قال: وهو من ذرية أبي موسى الأشعري الصحابي رَضيَ اللهُ عنه، وكان على رأس المئة الثالثة، وحكي أنه المجدد لذلك القرن. قال: هو الذي رتب قواعد عقيدة أهل الحق وحرر أدلتها، وهي العقيدة التي أجمعت عليها الصحابة ومن بعدهم من خيار التابعين، وهي عقيدة أهل الحق من كل زمان ومكان، وهي عقيدة جميع أهل التصوف، وهي بحمد الله عقيدتنا وعقيدة إخواننا من السادة الحسينيين المعروفين بآل أبي علوي وعقيدة أسلافنا من لدن رسول الله ﷺ إلى يومنا هذا، ويعرف هذا بالتتبع إذا تتبع سيرهم وعقائدهم يجدهم كذلك.

قال: وكان ظهور أبي الحسن الأشعري في وقت أحمد بن عيسى[١] وكان على عقيدة أسلافه.

قال: وكان الإمام المهاجر إلى الله جد السادة المذكورين سيدي أحمد بن عيسى بن محمد بن علي بن الإمام جعفر الصادق رَضِيَ اللهُ عنه لما رأى ظهور البدع وكثرة الأهواء واختلاف الآراء بالعراق هاجر منها، ولم يزل نفع الله به يتنقل في الأرض، قال: لأنه خرج من البصرة وهي من العراق حتى أنه مرّ بمكة ولم يتأتَّ له ما قصده، يعني: من التجول، حتى أتى حضرموت وأقام بها إلى أن توفي، فحصل له ما قصد من الخمول، فقال: هنا طاب لي المقام، فبارك الله في عقبه حتى اشتهر منهم الجم الغفير بالعلم والعبادة والولاية والمعرفة، ولم يعرض لهم ما عرض لجماعات من أهل البيت النبوي من انتحال البدع واتباع الأهواء المضلة ببركة هذا الإمام المؤتمن وفراره بدينه من مواضع الفتن، فالله تعالى يجزيه عنا أفضل ما جزى والداً عن ولده، ورفع درجته مع آبائه الكرام في عليين، ويلحقنا بهم في خير وعافية غير مبدلين ولا مفتونين، إنه أرحم الراحمين.

قال الناقل رحمه الله تعالى: قوله: خرج الشيخ أحمد بن عيسى، أي: في زمن القرامطة، وكان ذلك في سنة ثلاثمئة وسبع عشرة، وفتنتهم من جملة الفتن الكائنة في العراق، ومن قبلها فتنة الزنج، وفتنة التتار، وغير ذلك، وكانت قوة

---

(١) هو: أحمد (المهاجر) بن عيسى بن محمد (ويلقب بالرومي) بن علي (العريضي) ابن الإمام جعفر الصادق ابن محمد الباقر بن علي زين العابدين (السجاد) بن الحسين (الشهيد) بن علي ابن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عنه.

جد السادة بني علوي المعروفين بحضرموت، قدم من البصرة إلى حضرموت سنة ٣١٨هـ، وتوفي بها عام ٣٨٣هـ. (كتاب المشرع الروي: للسيد محمد بن أبي بكر الشلي العلوي).

القرامطة في آخر القرن الثالث وأول الرابع، وكان ملكهم بالأحساء، فخرج عليهم في وسط القرن الرابع عبد الله بن علي بن إبراهيم بن محمد العيوني، وأمدهم عليه جميع قبائل عامر أهل الأحساء، وكان عسكره أربعمئة ومعه ألفان خرجوا عوناً له من العراق، وحُصر القرمطي في قصره سبع سنين، فأمدتهم عامرٌ بالخيل والرجل والركبان، حتى أن ذكور خيلهم فقط عُدَّتْ ألفاً، فتواعدوا ما بين النهرين سليسل ومُحَلَّم في ذلك الفضاء، فنصر الله عليهم عبد الله بن علي فقتل من نفس القرامطة اللابسين الدروع ثمانين، وهم جملتهم، وما بقي منهم أحد، وخلصت عامر تحت السيف، وكانوا ألوفاً كثيرة سوى خَيَّالَيْنِ فرا إلى البصرة عند المنتفق؛ لأنهم أيضاً من عامر، ومَنَّ عبد الله على الصبيان والنساء فتركهم ولم يقتلهم، ثم ملك الأحساء وبقي في الملك ستين سنة.

قال السيوطي رحمه الله في «تاريخه»: وفي سنة ثلاثمئة وثمان وسبعين ظهرت القرامطة بالكوفة، وهم نوع من الملاحدة، يدَّعون أنه لا غسل من الجنابة، وأن الخمر حلال، وأن الصوم في السنة يومان: يوم النيروز ويوم المهرجان، ويزيدون في أذانهم: «وأن محمد بن الحنفية رسول الله»، وأن الحج والقبلة إلى بيت المقدس، وأشياء أخر من المناكر الباطلة، ونفق قولهم على الجهال وأهل البَرّ، وتعب الناس، وذلك في خلافة المعتمد، وقد ضعف أمره جداً حتى خَلَع ولده المفوَّض من الخلافة، وبايع لأخيه المعتضد وذلك سنة (٢٧٩هـ).

ثم في سنة (٢٨٦هـ) ظهر بالبحرين أبو سعيد القرمطي، وقويت شوكته، وهو أبو طاهر سليمان الذي قلع الحجر الأسود وبنى في القطيف بيتاً سماه الكعبة، وعلق فيه الحجر الأسود، فكلما علقه سقط ولم يثبت، ثم فُدِيَ منه بمال كثير وأرْجِعَ إلى الكعبة، ووقع القتال بينه وبين عسكر الخليفة مراراً، وبنى داراً سماها

دار الهجرة، وكان في هذه السنين قد كثر فساده وأخذه البلاد وفتكه بالمسلمين، واشتد الخطب به، وتمكنت هيبته في القلوب، وكثر أتباعه، وبث السرايا، وتزلزل له الخليفة، وهزم جيشه غير مرة، وانقطع الحج في هذه السنين خوفاً من القرامطة[1]، ونزح أهل مكة عنها، كلُّ ذلك في السنة المذكورة.

---

(١) القرامطة: نسبة إلى مؤسس مذهب القرامطة وهو: حمدان بن الأشعث الملقب بقرمط، وكان أكَّاراً من الكوفة، وأصله (فارسي مجوسي) وقيل: صابئي، دخل بداية حياته مذهب الإسماعيلية على يد حسين الأهوازي ابن مؤسس المذهب الإسماعيلي العبيدي عبد الله بن ميمون القدَّاح (اليهودي)؛ لكن حمدان القرمطي سرعان ما انقلب على الإسماعيلية وأنشأ مذهبه الخاص به، وأنشأ له مركزاً في الكوفة عام ٢٧٧هـ سماه دار الهجرة، وفي هذا المركز بدأ بإرسال دعاته الذين انتقاهم بدقة لنشر دعوته بين جهلة الناس عامة وبين المجوس المتسترين وأحفاد اليهود خاصة، ومن أشهر دعاته أخوه مأمون، وزكرويه بن مهرويه الذي ورث عن أبيه كره الإسلام، وأبو النوارس قائد تمردهم عام ٢٨٩هـ، وأبو سعيد الجنابي في البحرين.

أما **عقيدة القرامطة** فتعتمد على إخفاء ما يؤمنون به وإظهار أنفسهم على أنهم مسلمون؛ ليسهل عليهم الاندماج في المجتمع والدعوة إلى دينهم، فإذا وثقوا من تابعهم أطلعوه على خفايا عقيدتهم.

(انظر: الملل والنحل للشهرستاني، الفرق بين الفرق للإسفراييني، الفصل بين الملل والنحل لابن حزم الظاهري، تاريخ الإسلام للذهبي حوادث عام ٢٨١ حتى ٣٢٠هـ التاريخ الإسلامي لمحمود شاكر جزء ٥ - ٦).

بدأت ثورة الزنج عام ٢٥٥هـ في عهد الخليفة العباسي المهتدي في فرات البصرة بقيادة رجل خارجي من الأزارقة اسمه بهبول، ويسمي نفسه علي بن عبد الرحيم من عبد القيس، في البحرين ثم في الأحساء، فدعا إلى تحرير العبيد في البصرة وضواحيها، واستمال قلوبهم حتى تركوا مواليهم وانضموا إليه، فعظم شأنه، وقويت شوكته، ولقيت دعوته قبولاً ورواجاً في الطبقات الدنيا. ثم حاربه المعتمد سنة ٢٥٦هـ بالبصرة، فانتصر صاحب الزنج، واستولى على الأبلة والأهواز وخرَّبها، واضطر أهالي البصرة وما جاورها إلى مغادرة البلاد فراراً من =

ـ ذِكْرُ شيءٍ مما وقع في جهة الأحساء والقطيف ونحوها:

ومنها فتنة أبي طاهر سليمان بن الحسن بن بهرام بن بهرست الحياني، وأصله رجل من أهل الكوفة يقال له: حمدان قرمط، وهو أنه أغار على مكة المشرفة وبلغت خيله وجنوده البيت الحرام، وقلع الحجر الأسود من البيت والميزابَ وحملهما إلى البحرين، وبنى في القطيف بيتاً سماه الكعبة، وقال: أصرف الحج إليه، وكلما جعل الحجر الأسود في بعض أركانه أصبح ناحية غير متعلق به، وكان حمله لهما سنة (٣١٢ هـ) وكان ردهما في سنة (٣٣٥ هـ) بعد قتله، ومدة إقامتهما في البحرين (٢٣ سنة).

وذكر المؤرخون أن أبا طاهر القرمطي وافى مكة (٧) ذي الحجة، وقيل: سنة (٣١٧ هـ) فعاش أبو طاهر بمكة، وقتل خلقاً كثيراً حتى ملأ المسجد وزمزم من القتلى، وأمر بعض أصحابه أن يضرب الحجر بدبوس فضربه فكسره، وقال: إلى كم تعبد من دون الله؟ ثم قلعه، وذلك بعد صلاة عصر يوم الاثنين (١٤) ذي الحجة، وذهب به إلى بلاد هجر، وكان أبو طاهر هذا نهب الحاج مراراً، وقتل الحاج في بعض سراياه جملة واحدة، ولم يَسْتَبْقِ غير أرباب الصناعات، فخرج بهم

= مطامع الزنج، واستولوا على البصرة سنة ٢٥٧هـ، وذبُّوا كثيراً من أهلها وخرَّبوا مسجدها العظيم، ويروي المسعودي (٢: ٤٤٧) حالة أهلها فيقول: إن كثيراً من أهل المدينة اختفوا في الدور والآبار، فكانوا يظهرون في الليل فيأخذون الكلاب فيذبحونها ويأكلونها، والفئران والسنانير، فاقتفوها حتى لم يقدروا منها على شيء. انتهىٰ. والمسعودي يكتب عن ذلك العصر الذي عاشه، وذكر أبو الفداء وغيره عدداً من العلماء الذين ذبحهم الزنج. انتهى أمر الزنج عام ٢٧٠هـ بعد معارك وحروب دامية استمرت ١٤عاماً؛ ولكن آثار هذه الفتنة الشنعاء استمرت زمناً طويلاً.

إلى البحرين، وغنم جميع أموال الحاج، وكان عدة ما فيه من الجمال المحمَّلة اثنين وثمانين ألفاً، وأسر أبا الهيجاء عبد الله بن أحمد التغلبي ووزير الخلافة، وأقاما عنده مدة ثم خلى سبيلهما بفداء، وكان في الحاج يومئذ عشرون أميراً، تحت كل أمير ألف فارس، وكان أمير الحاج أبا الهيجاء بن حمدان، ومعه من بني تغلب ألف فارس، ومن بني شيبان ألف فارس، ثم التقاهم جيش القرمطي وقد جعل جيشه ميمنة وميسرة وقلباً، وكذلك أبو الهيجاء وجميع الأمراء، فالتقوا فهزم جيش القرمطي جيش أبي الهيجاء، وعطفت ميمنة القرمطي وميسرته على أبي الهيجاء ومن معه فأسروه مع جماعة من أشراف قومه، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وأسروا الوزير ابن أبي السباخ، وكان تبلغ خيل القرمطي هذا الشام، والعراق، ومكة، وعُمان، ونهب البصرة والكوفة، وجانب بغداد الغربي، ولو لم يُقْطَعِ الجسر لكان دخل الجانب الشرقي، وكان عسكره يومئذ ألف رجل من بين فارس وراجل، وحين ملك البحرين جمع خلقاً كثيراً ممن بها من عبد القيس وأنزلهم في محلة من البلد وأضرم في تلك المحلة النار فاحترقوا جميعاً، فتلك المحلة تعرف بالرمادة إلى وقتنا، ولما ملك واشتدت وطأته وقهر مَن بالبحرين، دعا إلى نفسه، وأظهر أنه صاحب الأمر، وأبطل الصلاة والزكاة والصوم والحج وسائر أركان الشريعة، واستحوذ على ضعفاء الناس وَمَوَّهَ عليهم، وزخرف الأقاويل الباطلة حتى صاروا يتألهونه من دون الله، ويرون طاعته فرضاً واجباً، وهدم جميع ما في البحرين من المساجد، ومدة طول القرامطة ما أحد يصلي إلا خفية. انتهى ما أردنا ذكره من باطلهم. ويا للعجب! قلَّ ما أحد يدَّعِي بالباطل إلا ويلقى له مساعداً من المخذولين، ولو كانوا في صور أخيار، ولو ما معهم من الخذلان إلا مساعدتهم لدعوى المبطلين!

[ذكر قيام الأمير عبد الله]

ذكر قيام الأمير عبد الله بن علي بن محمد بن إبراهيم بن محمد العيوني البحراني الأحسائي رحمه الله تعالى على القرامطة المبطلين ومن تبعهم بعد أن استتم ملكهم فيها، فملكهم عليها عبد الله المذكور، وهو جد عَبْدَلْ، سُمُّوا بذلك نسبة إليه، وهو أنه وجماعته لما رأوا الضيم حل بهم وبغيرهم من القرامطة، في دينهم ودنياهم، انتُدبوا لقتالهم، وقلدوا الأمر الأمير عبد الله، فاختار من شجعانهم وأهل النجدة منهم أربعمئة رجل، حتى نزل بهم على باب قصر القرمطي، وبقي يحاربهم صباحاً ومساءً مدة سبع سنين، حتى انتزع الدولة منهم، أي: القرامطة واليمن[1] جميعاً، وملك البلاد ودفع عنها كل من كان يطمع فيها، وأباد عامر ربيعة غاية البوار، وأخذ أموالهم، وسبى حريمهم وذراريهم، وبعد ذلك مَنَّ على الحريم والذراري وسيّرهم إلى أرض عمان، ولم ينج من رجالهم إلا رئيسهم أحمد بن مسعر، وأبو ضراس بن الشباش، وليس منهم؛ بل نازل فيهم، هربا على فرسَيْن جوادَيْن حتى بلغا البصرة على غاية الضر، وذلك لأنهم، أي: عامر ربيعة، أتوا في نصرة القرامطة، وكان القرامطة يومئذ في ثمانين أميراً من صلب أبي سعيد يركبون التجافيف والسلاح التام، واستنجدوا عامر ربيعة فجاءهم منهم خلق كثير، وساروا في عدد لا يُحصى ولا يُلتقى، ورأى عبد الله وأصحابه منهم أمراً أزعجهم وأبهرهم، فبرزوا إليهم مستشعرين الخوف راهبين من كثرتهم مع قلة مددهم؛ لأنهم لا يبلغون منهم سهماً من خمسين سهماً، فاجتمعوا ولبسوا السلاح وحفحفوا

---

(١) أي: أناس كثير من الأزد وأصلهم من اليمن. من حاشية المخطوط بخط المؤلف.

الخيل وساقوا النَّعم قدامهم، فخرج إليهم عبد الله بن علي بمن معه، والتقوا بين النهرين محلم وسليسل، وقد قدمت عامر الإبل وأقبلت الفرسان والرجالة تسوقها من ورائها ويحمونها أن تدوسهم، فلما أقبلت الفرسان وصار أولها في نهر محلم، أمر عبد الله ابن علي بضرب الدبادب والطبول والبوقات، وأمر أهل الخيل أن يزحفوا عليها، وأمر العجم أن يرشقوها بالنشاب وأن يضربوا وجوه الخيل، ففعلوا ذلك، فرجعت الإبل على عامر فداستهم، وحمل عليهم عبد الله بن علي وأصحابه بالخيل والرجال من كل ناحية، فلم يفلت منهم كبير ولا صغير، وقُتِلَ ثمانون من نفس القرامطة من صلب أبي سعيد لابسين الدروع، وهم جملتهم، فلم يبق منهم أحد غير الاثنين المتقدم ذكرهما، وحُصِّلا في حِلَّةِ المنتفق المقاربة للبصرة على أخس حالة من المرض وسوء الحال، ومَنَّ عبد الله بن علي على الحُرَمِ والذراري وخلّى سبيلهم، ولم يمكن العجم منهم، وذلك أنه جاءته من العراق سبعة آلاف من العجم لنصرته، فاختار منهم مئتين مع رئيس لهم، ورد الباقي، وحَصَلَ له من غنائمهم أربعة آلاف ناقة فيها فحولها ورعاتها، وأخذ من الخيل إرادته، وترك بقية المغنم للعجم والعسكر، وذلك في سنة (٤٧٥ هـ).

وملك عبد الله بن علي القصر، وضُرِبَتْ له به الدبادب والبوقات، وصَعِده ولم يُمَكِّن العجم من الصعود، وقد خطب للدولة العباسية، وذلك في سنة (٤٧٦هـ). انتهى ما ذكره الناقل ملخصاً.

[الشيخ أبو الحسن الأشعري]

ثم قال رحمه الله تعالى: وأما الشيخ أبو الحسن الأشعري، صاحب العقيدة الأشعرية، وقد ذكره سيدنا وذكر أنه من ذرّية أبي موسىٰ الأشعري الصحابي رَضيَ اللهُ عنه.

قال اليافعي: هو الإمام ناصر السنة وناصر الأمة، إمام أئمة الحق المحققين، ومدحض حجج المبطلين المبتدعين المارقين، حامل راية منهج الحق، ذو النور الساطع، والحجج الواضحة، والبرهان القاطع، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن بلال بن أبي بردة عامر بن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري، الصحابي، رَضيَ اللهُ عنه.

قال: قلت: هكذا ذكر اسمه ونسبه، وأمَّا ذكر مناقبه، وما ورد من الآثار الدالة على شرف أصله، وكبر محله، ونصرته لمذهب الحق، وبيان صحة اعتقاده واعتداله وسداده، فممَّا يدل على جلالة قدره وارتفاعه، كثرة مصنفاته وأتباعه، وسعة علمه وبراعة فهمه، فقد روى الحافظ أبو القاسم بسنده أنها عدت تراجمها فنافت على ثلاثمئة وثمانين مصنفاً، منها: كتاب «الفصول في الرد على الملحدين والخارجين عن الملة»، كالفلاسفة والطبائعيين والدهريين وأهل التشبيه، والقائلين بقدم الدهر على اختلاف مقالاتهم وأنواع مذاهبهم، ورَدَّ فيه على البراهمة واليهود والنصارى والمجوس، وهو كتاب يشتمل على اثني عشر كتاباً، وكذلك «الموجز»، يشتمل على اثني عشر كتاباً، على حسب تنوع مقالات المخالفين من الخارجين عن الملة والداخلين، ورَدَّ على سائر أنواع المبتدعين في كتبه تعميماً وتخصيصاً، وكل من تعلق اليوم بمذهب أهل السنة وتفقه في معرفة أصول الدين من سائر المذاهب نسب إلى أبي الحسن الأشعري، ولم يكن أول متكلم بلسان أهل السنة، إنما يجري على سَنَنِ غيره، وعلى نصرة مذهب معروف، فزاد المذهب حجةً وبياناً، ولم يبتدع مقالةً اخترعها ولا مذهباً انفرد به، فليس له في المذهب أكثر من بسطه وشرحه وتواليفه في نصرته، وكانت شوكة المعتزلة بالعراق شديدة، وأعظم ما كانت المحنة زمن المأمون والمعتصم، فتورع عن مجادلتهم الإمام أحمد بن حنبل رَضيَ اللهُ

عنه، فموهوا بذلك على الملوك وقالوا: إنهم ـ يعنون: أهل السنة ـ يفرون من المناظرة لما يعلمون من ضعفهم عن نصرة الباطل، وأنه لا حجة بأيديهم، ويستعينون بذلك عليهم، حتى امتحن في زمانهم الإمام أحمد بن حنبل وغيره، حتى أخذ الناس حينئذٍ بالقول بخلق القرآن، حتى ما كان يقبل شهادة شاهد ولا يستقضي قاض ولا يفتي مفت لا يقول بخلق القرآن.

قال: وكان في ذلك الوقت جماعة من المتكلمين كعبد العزيز المكي، والحارث المحاسبي، وعبد الله بن كلاب، وجماعة غيرهم، وكانوا أولي زهد وتصنيف، ولم ير واحد منهم أن يطأ لأهل البدع بساطاً، ولا أن يداخلهم، وكانوا يردون عليهم ويؤلفون الكتب في إدحاض حججهم، إلى أن نَشَأ بعدهم وعاصر بعضهم ابن أبي البشر الأشعري، يعني: الشيخ أبا الحسن المذكور، فصنف في هذا العلم لأهل السنة التصانيف، وألف لهم التواليف، حتى أدحض الله حجج المبتدعين، وكسر شوكتهم، وكان يقصدهم بنفسه ويناظرهم، فكُلِّمَ في ذلك، وقيل له: كيف تخالط أهل البدع وتقصدهم بنفسك وقد أمرت بهجرهم؟! فقال: هم أهل رياسة، منهم الوالي والقاضي، ولرياستهم لا ينزلون إليّ، فإذا كانوا لا ينزلون إلي ولا أسير أنا إليهم فكيف يظهر الحق ويعلمون أنَّ للسنة ناصراً بالحجة؟! قال: وكان أكثر مناظراته مع الجبائي المعتزلي، وله في الظهور عليه مجالس كثيرة، فلما كثرت تواليفه ونصر مذهب أهل السنة وبَسَّطَهُ، تعلق بها أهل السنة من المالكية والشافعية وبعض الحنفية، فأهل السنة بالمشرق والمغرب بلسانه يتكلمون، وبحجته يحتجون. وأما أتباعه فقد ذكر الإمام الماهر المحقق الراوية أبو القاسم ابن عساكر في كتابه من أعيانهم قريباً من ثمانين إماماً، ثم أردفهم من جلة الأئمة ما صار للمئة عالماً، وممن اقتدى به وتبعه في الاعتقاد من المحققين النُّظَّار النُّـقَّاد ممن جمع بين العلم

والدين وأقام قواطع الحجج والبراهين: الإمام أبو بكر الباقلاني، والأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني، والإمام ابن فورك، والشيخ الإمام أبو إسحاق الشيرازي، وأبو المعالي إمام الحرمين الجويني، والإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي، والإمام فخر الدين الرازي، والإمام عز الدين ابن عبد السلام، والشيخ الإمام محيي الدين النووي، والإمام تقي الدين بن دقيق العيد، وغير هؤلاء العشَرة من ذوي المناصب، وكذلك جماعة من أكابر المشايخ الأجلة العارفين السالكين الربانيين المربين، كالشيخ أبي عبد الله القرشي، والأستاذ أبي القاسم القشيري، والشيخ شهاب الدين السهروردي، والشيخ أبي الحسن الشاذلي، وغيرهم من منابع الأسرار ومطالع الأنوار، وكان حامل راية ما لهُ من المناقب، وناصَرَ مذهبه دون المذاهب: الإمام المحقق، الحبر البارع، ذو البرهان القاطع، والبرهان الواسع، البحر الزاخر الطامي، القاضي أبو بكر الباقلاني، وهو الذي رَجَّحَ غير واحد من العلماء أنه هو الذي كان على رأس المئة الرابعة مجدِّداً للدين، لاحتياج الناس في قمع المبتدعين إلى علم أصول الدين.

وروى الإمام الحافظ أبو القاسم ابن عساكر بسنده إلى الإمام أبي إسحاق الإسفراييني، قال: كنت في جنب الشيخ أبي الحسن الباهلي كقطرة في البحر، قال: وسمعت الشيخ أبا الحسن الباهلي يقول: كنت في جنب الشيخ أبي الحسن الأشعري كقطرة في البحر، قلت: يعني بالباهلي المذكور: شيخه وشيخ الإمام أبي بكر الباقلاني وشيخ الإمام ابن فورك، وتلميذَ أبي الحسن الأشعري، لما روى الحافظ ابن عساكر رحمه الله تعالى بسنده إلى القاضي أبي بكر الباقلاني قال: كنت أنا والأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني والأستاذ ابن فورك معاً في درس الشيخ أبي الحسن الباهلي تلميذ الشيخ أبي الحسن الأشعري.

قال الإمام أبو القاسم ابن عساكر: فكفى أبا الحسن فضلاً أن يشهد بفضله مثل هؤلاء الأئمة، وحسبه فخراً أن يثني عليه الأماثل من علماء الأمة، ولا يضره قدح من قدح فيه لقصور الفهم ودناءة الهمة، ولم يبرهن على ما يدعيه في حقه إلا بنفس الدعوى ومجرد التهمة، وذكر كلاماً كثيراً عن كثير من الأكابر في الذب عنه، ثم قال: فهذا ثناؤه، فالاقتصار عليه في ترجمته، وهو قليل بالنسبة إلى جلالته، وإنما أوجزنا العبارة في بعض ذلك، لكوني رأيت بعض المؤرخين قد أعرض عن التعرض لذكر فضائل مرتبته العلية، لكونه رَضيَ اللهُ عنه مبايناً بمذهبه الجامع بين المعقول والمنقول بمذهب الحشوية الواقفين مع ظواهر النقول وإن كان مستحيلاً في العقول ومجانباً لعكسه، أعني: مذهب المبتدعة القائلين بالمعقول دون المنقول، متوسطاً بين الطرفين المذمومين، سالكاً للمنهج الأوسط المحمود، ومتبعه في مصدر وورود، رَضيَ اللهُ عنه وأرضاه، وجعل بفضله النعيم مأواه.

قال الناقل بعد أن ذكر كثيراً من مناقب الشيخ أبي الحسن المذكور: وهذا ما أردت نقله من تاريخ الإمام اليافعي رحمه الله ملخصاً.

ثم قال: وقد حث سيدنا السيد عبد الله الحداد، نفع الله به والمسلمين، في وصيته على التمسك بعقيدة الإمام الأشعري حيث هي العقيدة الحق وعقيدة أهل الحق، وذكر أن أسلافه من متقدمي السادة آل علوي ومتأخريهم كلهم عليها، فقال (شعراً):

وكنْ أشعَرِيّاً في اعتقادِكَ، إنَّهُ ... هُو المنهَلُ الصافي عن الزَّيغِ والكُفرِ

وقد حرَّرَ القُطبُ الإمامُ مَلاذُنا ... عقيدتَه فهْيَ الشِّفاءُ من الضُّرِّ

وأعني به مَن ليس يُنعَتُ غيرُهُ ... بحجةِ إسلامٍ، فيا لك مِن فخرِ

قال: يعني: أنَّ الإمام الغزالي حرر عقيدة الأشعري. أقول: يعني شرحها وبينها وفَصَّلها. قال: وعقيدته كلها حق، وعقائد غيره فيها حق وفيها باطل، وإنما فاقت غيرها؛ لأن معناها ومبناها: قول آمنت بالله، وما جاء عن الله، على مراد الله والاستقامة على ذلك، أي: والتحقق به ظاهراً وباطناً.

قال الناقل بعد أن ذكر سبب انتقال الشيخ الإمام أبي الحسن الأشعري عن مذهب أهل الاعتزال الذي أخذه عن الجبائي، بعد أن بقي عليه أربعين سنة من عمره، نقلاً عن الشيخ الغوامسي الأندلسي في «شرحه على أم البراهين»: ثم إن أبا الحسن الأشعري لما ترك مذهب الاعتزال مذهب الجبائي ومن تبعه، وأظهر طريق أهل السنة، تناظر مع أستاذه الجبائي، فقال له الإمام أبو الحسن: ما تقول في ثلاثة مات أحدهم صغيراً والثاني كبيراً طائعاً والثالث كبيراً كافراً؟ فقال له الجبائي: أما الطائع ففي الجنة والدرجات، وأما الكافر ففي النار والدركات، وأما الصغير ففي الجنة. فقال الأشعري: يقول الصغير: كان الأصلح لي أن تميتني كبيراً، فأنال الدرجات. قال له الجبائي: يقول له الرب: علمتُ أنْ لو كبرت كفرت، فدخلت النار، فكان الأصلح أن أميتك صغيراً. قال له الأشعري: فيقول له الكافر؛ بل أهل النار: كان الأصلح لنا أن تميتنا صغاراً، فماذا يقول الرب؟ فلما ألزمه الحجة ولم يصب جواباً قال له: أبِكَ جنون؟ قال الإمام: لا؛ ولكن وقف حمار الشيخ في العقبة.

فأحيا الإمام مذهب أهل السنة، فسمي هو ومن تبعه بأهل السنة والجماعة، واشتهروا بهذا الاسم في سائر الأقطار من المغرب والسودان ومصر والشام والعراق وخراسان والحرمين الشريفين. وأما ديار ما وراء النهر وهم أهل سمَرقَندَ

وما فوقها إلى البحر المحيط، فالمشهور فيها الإمام أبو منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي الحنفي، نسبة إلى ماتريد: محلة بسمرقند، وكلاهما على هدى ونور، وإن كان طريق الأشعري هو المقدم عندنا، وليس بينهما اختلاف إلا في سبع من المسائل، ليست من أمهات المسائل، حتى يكون الخلاف فيها مؤدياً إلى التباين والتناقض في أصول الدين؛ بل هي من الفروع في علم الكلام، والخلاف في أكثرها لفظي، انظرها في شرح الشيخ عبد السلام اللقاني على عقيدة أبيه.

قال الناقل رحمه الله تعالى: انتهى ما أردنا نقله من «شرح الغوامسي على أم البراهين». ثم قال: اختلف الإمام الأشعري مع الإمام الماتريدي في ثلاث مسائل، إحداها: في زيادة الإيمان ونقصانه، فقال الأشعري: يزيد وينقص، لقوله تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]، ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]، وقال الماتريدي: الإيمان شيء واحد لا يزيد ولا ينقص، وإنما معنى زيادته ونقصانه، زيادة تأثر القلوب ونقصه، كالمطر، فإنه شيء واحد لا يختلف بزيادة أو نقص، وإنما الأراضي المتأثرة به تختلف، فربّ أرض دمثة تتشرب به، وربَّ أرض صفاة إنما يكون في أعلاها لا تتشرب به.

الثانية مما اختلف فيه الإمامان الأشعري والماتريدي: صفاتُ الأفعال، كالخلق والرزق والإحياء والإماتة والإنعام والانتقام والإحسان والفضل والثواب والعقاب والحشر والنشر، وكل صفة كان فعله بها موجوداً، غيرَ أن وصفه لنفسه بجميع ذلك قديم. قال الماتريدي: قديمة، وقال الأشعري: حادثة، أي متجددة، لأنها إضافات تعرض للقدرة وهي تعلقاتها بوجود المقدورات لأوقات وجدانها، ولا محذور في اتصاف الباري سبحانه وتعالى بالإضافات.

الثالثة: قال ابن حجر الهيتمي في «شرح الأربعين»: قال جماعة من الحنفية: الإيمان مخلوق، وكلام أبي حنيفة صريح فيه، وقال آخرون منهم: غير مخلوق، وهما متفقان على أن الأفعال كلها مخلوقة لله تعالى، وبالغ جماعة منهم فكفَّروا من قال بخلقه؛ لما يلزم عليه من خلق كلامه تعالى؛ لأنه تعالى قال: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، فالمتكلم بها قاطع لكلامه بما ليس بمخلوق، كما أن قارئ آية يصير قارئاً لكلامه تعالى حقيقة.

ورُدَّ بأن هذا جهل وغباوة، إذ الإيمان وفاقاً: التصديق بالجنان أو مع الإقرار باللسان، وكل منهما فعل العبد، وهو مخلوق لله تعالى. وأيضاً، فقد قال الفقهاء: لا يكون المقروء قرآناً إلا بالقصد. وأيضاً يلزمهم أنَّ كل ذاكر؛ بل كل متكلم وافق كلامه جزءاً من القرآن فقد قام به ما ليس بمخلوق من معاني كلامه تعالى، وذلك مما لا يقوله ذو لب. وأيضاً، المتلفِّظ بالشهادتَيْن لم يقصد به إقراره؛ بل الإقرار بالتصديق.

ثم ما مر من القول بعدم خلق الإيمان، لم تنفرد به الحنفية؛ بل نقله الأشعري عن أحمد وجماعة من أهل الحديث، ومال إليه؛ لكن وَجَّهَهُ بغير ما مرَّ، وهو أن المراد بالإيمان حينئذ ما دل عليه وصفه تعالى بالمؤمن، فإيمانه هو تصديقه في الأزل بكلامه القديم لإخباره بوحدانيته، وليس تصديقه هذا محدثاً ولا مخلوقاً، تعالى أن يقوم به حادث، بخلاف تصديقه لرسله بإظهار المعجزة، فإنّه من صفات الأفعال، وهي حادثة عند الأشاعرة قديمة عند الماتريدية، وبذلك علم أنه لا خلاف في الحقيقة، لأنه إن أريد بالإيمان المكلف به فهو مخلوق قطعاً، أو ما دل عليه وصفه تعالى بالمؤمن فهو غير مخلوق قطعاً. انتهى من قوله.

الثالثة منقولة من كتاب «الدر الثمين» للشيخ الشهير بميَّارة في شرح «النظم» للإمام العلّامة عبد الواحد بن عاشر رحمه الله تعالى، وما قبله من الثانية من التتائي على رسالة ابن أبي زيد المالكي، والكلام في الأول من قوله: إحداها، فمن قول كاتبه سامحه الله. هكذا قال الناقل رحمه الله تعالى.

وهذا آخر ما أردت نقله من كلام السيد الجليل عبد الله بن علوي الحداد رَضِيَ اللهُ عنه في مجالسه التي نقلها الشيخ أحمد بن عبد الكريم الشجّار الأحسائي مع بعض ما ذكره مما هو كالشرح لكلامه رحمهما الله تعالى.

وفرغت من ذلك في اليوم الرابع، من جمادى الثانية، في العام السادس والستين والمئتين والألف [١٢٦٦] من الهجرة النبوية على مهاجرها أفضل الصلاة وأكمل التحية، وذلك بقلم ناقلها الفقير إلى الله تعالى أبي بكر بن محمد بن عمر الملا، غفر الله لهم والمسلمين أجمعين، آمين[١].

* * *

(١) [قلت: وأنا الفقير إلى المولى يحيى ابن الشيخ محمد ابن الشيخ أبي بكر الملا عفا الله عنه: قد فرغت من مراجعته ومقابلته على أصله وتصحيحه والتعليق عليه في اليوم الخامس والعشرين من شهر صفر الخير سنة ١٤٢٦هـ. وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم].

فهـرس المحتـويـات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
ترجمة السيد عبد الله الحداد	٩
ترجمة الشيخ أحمد الشَّجَّار	١١
مولده ونشأته:	١١
رحلته:	١١
صفاته:	١٢
مؤلفاته:	١٢
ترجمة الشيخ أبي بكر الملا	١٣
مولده ونشأته:	١٣
صفاته:	١٤
وفاته:	١٤
مؤلفاته:	١٥
الأجر على قدر الهمة والنية	٢٣
السبق في الأعمال على وجهين	٢٤
رب قليل كثَّرته النية	٢٥
النية لا يتطرق إليها الرياء	٢٦

الموضوع	الصفحة
معنى قوله سبحانه وتعالى: «ووسعني قلب عبدي المؤمن»	٢٦
يحصل بالنية الصالحة ما لا يحصل بالعمل	٢٧
المخطئ في الطاعة لا يؤاخَذ	٢٨
إذا كان العمل لله فلا عبرة بخواطر السوء	٢٩
الحض على علو الهمة وإخلاص النية وإصلاح العمل	٢٩
حال أهل هذا الزمان	٣٠
أمور الدين لا تتم إلا بعد إحكام الأساس	٣٠
العبرة بالعمل بالقرآن، لا بقراءته بلا عمل	٣٠
الخلوة والرياضة في هذا الزمان	٣١
طرق التصوف واحدة وحالات النفس مختلفة	٣١
العلوم الحقيقية لا تُعرف بالشرح	٣٢
حال الأولياء في البرزخ	٣٣
تعريف الإسلام، والإيمان، والإحسان	٣٦
الأمور مبنيّة على الصدق	٣٦
حق اليقين، وعلم اليقين	٣٧
الإخلاص وعِزُّه	٣٧
أعمال وأحوال أهل هذا الزمن	٣٨
أسبابُ حرمان الرزق، جهات الرزق	٣٨
من أسرَّ سريرة ألبسه الله رداءها	٤٠
الأسباب التي أفسدت على الناس دينهم	٤١
الفقر المحمود والفقر المذموم	٤٢
حسن الظن بالمسلمين	٤٣
حال الإنسان في تقصيره	٤٤

الموضوع	الصفحة
أرحَمُ ما يكون الربُّ بعبده إذا وُضِع في قبره	٤٦
الجمع بين الدين والدنيا	٤٧
كثرة الذكر توسع الرزق	٤٧
التعلق بعلم الظاهر من غير تطهير الباطن لا يفيد	٤٨
الخلق مُكلَّفون لما خلقوا له	٤٨
الناس مقهورون في عين اختيارهم	٤٩
أفعال العباد خيرُها وشرها فرعُ مشيئتهم، وهي فرع مشيئة الله	٥٢
الحقائق لا بدّ أن تتبعها طرائق	٥٣
لكل داءٍ دواء	٥٣
تعريف القضاء والقدَر وأنواعه	٥٥
أنواع القضاء والقدر	٥٥
شرط حصول مقام المقربين	٥٦
بيان مقام أصحاب اليمين	٥٧
أحوال المتعلقين بالدنيا	٥٩
التصديق بالأمور الغيبية	٥٩
الإعراض عن الخَلْق في هذا الزمان	٦٢
مقام الجمع بين الشريعة والحقيقة	٦٤
مذهب القدَرية والجَبْرية بِدعة	٦٥
مداراة الناس في هذا الزمان	٦٨
حكم بيع العهدة	٧٠
الجمع بين حديث «لا عدوى» وحديث «فِرَّ من المجذوم»	٧١
خذ من الطاعات ما يَقِيك النار	٧٢
صفة الجنة	٧٣

الموضوع	الصفحة
الناس مع الله في مقام الشكر	٧٤
أقسام العلاج	٧٥
كثرةُ الروايات عن النبي ﷺ سببٌ لاتساع العلم واختلاف الأقوال	٧٦
أسبابُ ما يَحُلُّ بالناس	٧٧
العُمدة في الأسباب على الإرادة الإلهية	٨٠
فوائد النظر إلى ما سبقت به الإرادة	٨١
استحالةُ الجهة في حقِّه سبحانه وتعالى	٨٣
مذهب السلف في المتشابه	٨٩
القرآن الكريم وجليلُ منزلته	٨٩
أقسام التنزيه	٩٧
الرزق المضمون، والرزق المقسوم	٩٨
سؤال الغير من الفواحش إذا كان بغير ضرورة	٩٨
حسنُ النية	١٠٠
صيانة الإنسان نفسَه عن الحاجة	١٠١
فضل صلاة الجماعة	١٠١
كيفية إزالة المنكر	١٠٢
عادة أهل العلم إذا ذَكرَ أحدهم عن أحد كلاماً	١٠٢
من تمكن في العلم اللدُنِّي لا يلائمُه إلا العلوم اللدنية	١٠٢
وصف الزمان	١٠٣
أداء الواجبات ونوافل الطاعات	١٠٤
الرضا بالقضاء والقدر	١٠٤
كلُّ كلام يخرُجُ وعليه كسوةُ القلب الذي خرج منه	١٠٦
الرضا بالقضاء والقدر من أمر الشرع	١٠٨

الموضوع	الصفحة
حفظ الوقت في طاعة الله	١١١
الدعاء للأخ في الله بظهر الغيب من علامة المحبة والأشياء إنما تُعرَف بأصولها	١١٢
التعلّق بالطاعات من أعمال الخير	١١٤
لا تعادُ الصلاة خلف كل بَـرٍّ وفاجر، وبعد صلاة الجمعة	١١٤
من اعترض على الأكابر هلك	١١٤
من راقب الناس أتعب نفسه	١١٥
من عشق علته فليس له طبيب	١١٥
الجلوس في المسجد وتلاوة القرآن	١١٥
مزية التواضع	١١٩
ذمُّ رؤية النفس	١١٩
الاستقامة خير من الكرامة	١٢٠
كل مُدّعٍ لا بد أن يقيِّض الله من يعجزه	١٢٠
العمل بالعلم	١٢٤
الحذر من الشيطان	١٢٦
مجاهدة النفس وصيانتها عن المخالفة	١٢٧
مظاهر الحسد	١٢٨
أسباب موت القلب	١٢٨
أثر الأوراد	١٢٩
المحافظة على الفرائض	١٢٩
عدم إظهار الأولياء كراماتِهم في هذا الزمان	١٢٩
لا تصلح الخَلوةُ والرياضة في هذا الزمان	١٣٠
أهل الزمان تغلِبُ عليهم العادة	١٣٠
ابتلاء الخواصِّ وميزاتُ طريقهم	١٣٤

الموضوع	الصفحة
من علامات منافق العمل	١٣٧
التصوف هو: إقامةُ الكتاب والسنة	١٣٨
معنى قولهم: الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق	١٤٠
مسألة القضاء والقدر مسألةُ اعتقاد في الباطن	١٤٠
العقيدة الحقة	١٤٠
الصعود في المقامات	١٤١
من عرف الدنيا زهد فيها	١٤١
الإفراط في محبة الدنيا تغيِّر العقل والدين	١٤٤
الحمد عند العافية، والصبر عند البلية	١٤٥
سبب تنوير القلب	١٤٦
ستر الأعمال الصالحة عن عاملها.. ولا تحتقر من أعمال الخير شيئاً	١٤٦
أثر الهوى في الأعمال	١٤٧
معنى حديث: «ما وسعني أرضي...»	١٤٨
حكم الصلاة خلف المبتدع	١٤٩
اجتماعات الخير والشر	١٥٠
مقابلة الإساءة بالإحسان	١٥٠
أمور الدنيا والآخرة على قدر المتكلِّم بها	١٥١
صور الملائكة	١٥٣
من تهاون بطاعة الله مات قلبه	١٥٣
التدرج في طلب العلم	١٥٣
معنى حديث «اللهم أعط منفقاً خلفاً»... إلخ	١٥٤
الاقتصار من الملبوس والمأكول والنوم	١٥٤
أصلح الصالحين	١٥٥

الموضوع **الصفحة**

الدعاء والتوكل على الله في دفع الظلم ١٥٥
الدليل على ولاية الله لك ١٥٥
أهل هذا الزمان ١٥٦
الاحتجاج بالقضاء والقدر ١٥٨
خطر الوساوس أثناء العبادة ووجوب الاحتراز منها ١٥٩
أذكار النوم ١٦٢
المجاورة في مكة المكرمة ١٦٤
وساوس النفس ١٦٤
من مناقب الإمام الغزالي ١٦٥
ما يليق أثناء تفسير القرآن والأحاديث الشريفة ١٦٩
مسألة القدر والمذاهب الإسلامية فيها ١٦٩
الأسباب في الخير والشر ١٧٣
الموعظة وشروط تأثيرها ١٧٤
أثر الاقتداء بالنبي ﷺ ١٧٥
الزهد في الدنيا ١٧٥
الدعاء بخير الدارَيْن ١٧٦
منهاج أهل السنة والجماعة ١٧٧
ـ ذِكْرُ شيء مما وقع في جهة الأحساء والقطيف ونحوها: ١٨١
ذكر قيام الأمير عبد الله ١٨٣
الشيخ أبو الحسن الأشعري ١٨٤
فهرس المحتويات ١٩٣